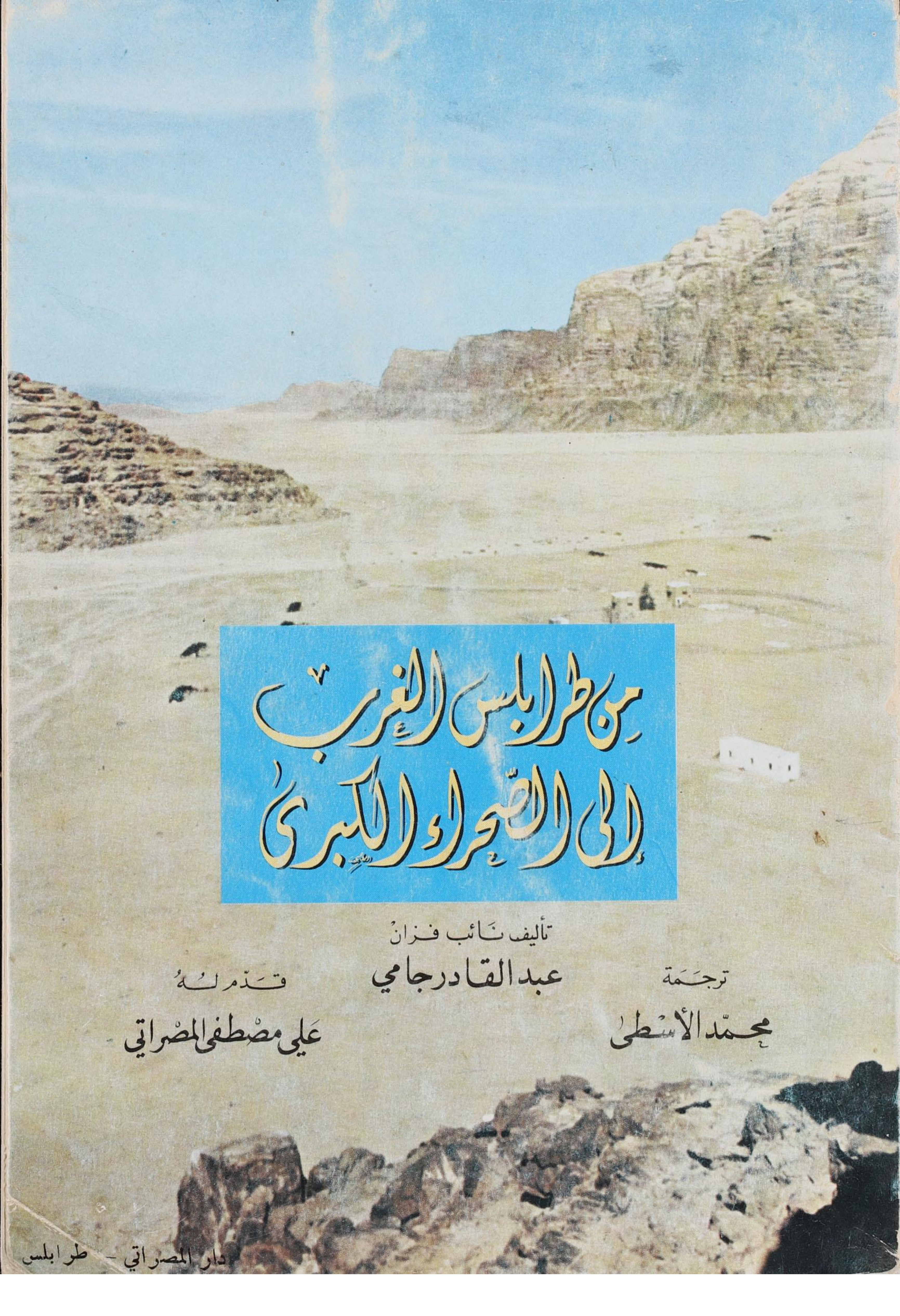


من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى

تأليف نائب فزان
عبد القادر جامي

ترجمة
محمد الأسطى

قدم له
علي مصطفى المصراتي

دار المصراتي - طرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

سورة التوبة

من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى

تأليف نائب فزان

عبد القادر جامي

ترجمة

محمّد الأسطى

قدم له

علي مصطفى المصراتي



فزان مبعوثی جامی

طرابلس غربدن صحرای کبیره دوغری

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ – ١٩٧٤ م

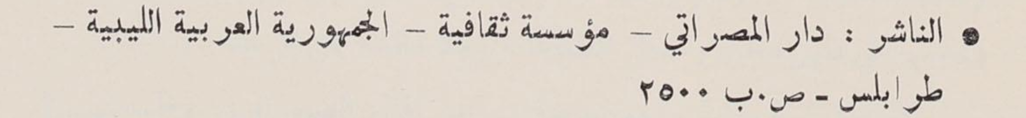
● المؤلف عبد القادر جامي ١٨٧٨ - ١٩٤٩ م

انظر صفحة ١٠

- ضابط تركي كان من الأحرار المثقفين .
- كان منفياً في صحراء فزان .. وعمل في سلك الإدارة في غات ومرزق وطرابلس أربعة عشر عاماً .
- عام ١٩٠٨ م انتخب نائباً عن فزان في مجلس المبعوثان العثماني
- كان من زملاء مصطفى كمال – اتاتورك – وعينه وزيراً للداخلية.
- قام برحلة من مدينة طرابلس الى مرزق والصحراء الكبرى ، وصف رحلته في هذا الكتاب الشيق عام ١٩٠٦م .
- له من المؤلفات : . الأتراك القره مافليون
  - . طرابلس ديار المنفى
  - . وعدد من المقالات والدراسات العلمية عن ليبيا نشرهـا في المجلات والصحف التركية والأوروبية .

● المترجم : محمد محمد عمر الأسطى – من مواليد طرابلس ١٩٠٠ م

- درس بطرابلس وهاجر إلى المدينة المنورة وبلاد الشام وتركيا وأتم تحصيله بمعهد مدحت باشا الصناعي بأزمير.
- تخرج عام ١٩٢٠ وعاد إلى وطنه ليبيا .
- اشتغل في حقل التعليم خمسة وعشرين عاماً .
- عام ١٩٥٥ عين أميناً ومترجماً أول في دار المحفوظات والوثائق التاريخية بطرابلس.
- نشر عدة مقالات وبحوثاً تاريخية في الصحف الليبية .
- يجيد التركية والايطالية .



● الناشر : دار المصراتي – مؤسسة ثقافية – الجمهورية العربية الليبية – طرابلس - ص.ب ٢٥٠٠

مقدمة وتعريف

بقلم علي مصطفى المصراتي

هذا كتاب ألفه رجل تركي .. كان ضابطاً مبعداً إلى طرابلس في أواخر العهد العثماني ، عندما كانت طرابلس ولاية مرتبطة بالدولة العثمانية .

وكانت البلاد في نظر الحاكمين في اسطامبول آنـذاك .. مجرد صحراء .. يرسل إليها المغضوب عليهم وغدت منفى للمثقفين والأحرار .. وابعاداً للطلاب المتفوقين والكتاب.. عندما كانت الدولة متفسخة في طريق الانحلال.. ومزالق الانهيار ..

وقد تآمرت على دولة الخلافة عدة عوامل .. من الداخل ومن الخـارج .. وكانت دسائس أوربا تعمل للاطاحة بهـذه الدولة حتى كان التمهيد للاستعمار والاحتلال في المناطق العربية ..

عاش عبد القادر جامي في ليبيا فترة طويلة وتقلد عديداً من الوظـائف .. ومكث في طرابلس وصحارى فزان أربعة عشر عاماً .. وهو في مطلع شبابه وعنفوان فتوته .. وقام برحلة هامة من مدينة طرابلس إلى مرزق وغات .. وقطعها على ظهر هجين وسجل انطباعاته وملاحظاته عن الرحلة ..

وكانت دراسة جادة .. موضوعية .. عن أقاليم الصحراء .. وطبيعتهـا

ومناخها .. والأودية ، والجبـــال والنبات والحيوان .. والمواقع الأثرية .. وبصمات الحضارة القديمة.. وحالة المجتمع الذي شاهده والعادات.. والتقاليد.. والأعراس .. والأغاني والرقص .. والأسواق .. والقوافـل .. والتجارة .. والأنساب والقبائل .. والبدو .. والطوارق .. وأهل الواحات والمدن والسواحل ..

وكل ما يتعلق بظروف فزان آنذاك .. التي كانت تموج بالمنفيين والمبعدين حتى ضاقت سجون فزان عنهم كما يحكي هو عن التقارير الرسمية التي شاهدها ..

ولقد انتقد الفساد الإداري وإهمـال الدولة لاقليم فزان وما كان يعانيه الشعب في هذه الأصقاع النائية. وكان عبد القادر جامي..مرهف الحس..دقيق الملاحظة كتب بأسلوب أديب .. وإحساس إنسان صادق الوجدان .. وبروح المنصف الذي يكره الفساد ..

وقد حفظ لنا في كتابه لوناً من العادات والتقاليد والأزياء وحوادث التاريخ والحياة الاجتماعية وأساليب الحضارة الصحراوية.. وتحدث عن الطوارق ولغتهم وكتابتهم وذاق معهم الأطعمة ونام في الخيام ..

كانت رحلته في صائفة ١٩٠٦ م وكان رفيقه في الرحلة المستر «هانس فيشر» البريطاني ..

بدأت الرحلة في يوليو من مدينة طرابلس التي وصف أسواقها وناسها .. وأبوابها ومعالم الحياة فيها .. وانتهت في سبتمبر عندمـــا وصل إلى واحـة مرزق .. التي كانت عاصمـة فزان .. شهران في الطريق على هجين في صيف قائظ ..

كانت رحلة شاقة .. ولكنها شيقة ..

وصعبة ولكنها جميلة .. ومتعبة ولكنها مفيدة ..

ولعل ذروة جمالها وفائدتها أن حفظت لنا في هذا الكتاب تلك المعلومات

والحقائق الهامة .. والملاحظات العلمية الدقيقة .. التي تطلعنا على تاريخ فزان ، وأحوال فزان ، تلك المنطقة الغالية من الوطن الليبي .. وكتابه هذا يعد من المصادر الهامة .. والمراجع المعتمدة ومن الوثائق المبنية على المشاهدات والتقارير والآراء الموضوعية .. في أسلوب يبعد عن الجفاف .. وعرض شيق بعيد عن الانسياب .. ومادة دسمة سهلة التناول .

يحدثنا بأمانة وصدق .. وأرقام وصور ورسوم .. هو فنان وكاتب واع.. يمتاز بعمق الملاحظة .. ودقة الدراسة . ولولا حسه الوامض .. وقلمه النابض لضاعت هذه الصور التي رسمها بقلمه وآلة التصوير أيضاً .. لضاعت هـذه اللقطات من حياة الشعب المكافح الصبور الذي كان يتألم أشد الألم لتلك الحالة الجائرة التي وصلت إليها البلاد والإهمال في الإدارة..

إنه تركي مسلم فيه إنصاف وحب للاصلاح ، وكان فرحاً بصدور الدستور لعل نوافذ النور تنفتح وبوادر الإصلاح تثمر .. وأحب فزان .. وعاش بها ..

بل كان ممثلاً لها في مجلس « المبعوثان » منتخباً من أهالي فزان .

●

كان عنوان الكتاب (طرابلس غربدن صحراء كبيرة دوغري) طبع في اسطامبول في مطبعة — نيشان بابكيان مطبعة سي عام ١٣٢٦ هـ .

●

وكان عبد القادر جامي يدرك أهمية الوطن الليبي فهو يشير منبهاً المسئولين آنذاك .

[يجب علينا أن ننظر إلى ولاية طرابلس بمـا يستحق موقعها في وسط البحر الأبيض المتوسط من أهمية ...]

وفي أكثر من موضع يبدي الاهتمام والنصح ..

وكان من أمنياتي في النشر أن يصل كتابان إلى القارىء العربي كتبا باللغة التركية :

● الأول كتاب محمود ناجي وأخيه نوري.. وقد قدمته للنابغ صديقي الأستاذ أكمل الدين إحسان وقام بترجمته .

● والكتاب الثاني .. هذا الذي نقدمه اليوم للقراء في ثوبه العربي .

ولكن من حق القراء أن يعرفوا عن عبد القادر جامي شيئا وهم يقرأون رحلته إلى فزان !

●

● عبد القادر جامي من مواليد اسطامبول عام ١٨٧٨ م .

والده الفريق محمد منير « باشا » .

ووالدته عائشة الصديقة .

أتم تحصيله الابتدائي والإعدادي باسطامبول ، ودخل الكلية العسكرية حيث تخرج برتبة ملازم عام ١٨٩٦م .. وعين بلواء الفرسان بطرابلس الغرب .. وتزوج عام ١٩٠٠ م بنت الحاج « أحمد بك » وهو أيضا من الأتراك الأحرار المنفيين في أرض فزان في عهد السلطان عبد الحميد .

وبعد مدة عين عبد القادر جامي « ياوراً » للوالي « رجب باشا » الذي عرف بعطفه على الأحرار وعنايته بالمنفيين المبعدين .

وكانت ولاية « رجب باشا » من عام ١٩٠٤ م الى ١٩٠٨ م وكانت ولايته من أحسن الفترات بالنسبة الى غيره من الولاة .

كان رجلا يحب الاصلاح ويعمل على إحباط مناورات ايطاليا وفرنسا وكانتا تتسابقان للاستيلاء على ليبيا . كان من الرجال الذين يهتمون بالأحرار

والمثقفين .. وقرب إليه « عبد القادر جامي » وغيره .

وكانت الصلة به وثيقة إلى حد أنه أطلق عليه لقب « جامي » وهو أحد المتصوفة الأعاجم الذين يعرفهم دارسو تاريخ التصوف .. والأدب الصوفي .

وعينه « رجب باشا » قائمقام .. وقائداً لمنطقة « غات » ، ورقي الى رتبة « قول آغاسي » وذلك للظروف الطارئة من جراء التوسع الفرنسي على حدود ليبيا ومناوراتهم في تلك المناطق من منافذ الصحراء ومداخلها .

وبقي عبد القادر جامي هناك الى عام ١٩٠٨م .

وعند صدور القانون الأساسي وما عرف بالحرية والمشروطية ، كانت فرصة للأحرار في كل مكان بالدولة العثمانية والبلاد العربية .. التي كان يكافح شعبها من أجل الحرية. انتخب عبدالقادر جامي نائبا عن متصرفية فزان في مجلس المبعوثان. كما انتخب من طرف الشعب أيضا زملاؤه من شباب تلك الفترة من طلائع المثقفين في أنحاء ليبيا وهم الأعضاء : سليمان الباروني ، وصادق بن الحاج ، ومحمد فرحات الزاوي ، ومصطفى بن قداره ، ومحمود ناجي ، وعمر الكيخيا . هؤلاء كانوا نواب ليبيا في المجلس .

كان عبد القادر جامي يعرف ، فضلاً عن اللغة التركية ، اللغات : العربية والفرنسية والألمانية . وفي أواخر عمره تعلم الانكليزية .

بعد أن أصبح نائبا في مجلس المبعوثان كان يقضي عطلته البرلمانية بين طرابلس وفزان .

كان أحلى حديث له ـ كما يحكي لنا ولده ـ المهندس سرمد بايكوت في رسالة له .. هو الحديث عن فزان .. وشعب فزان .. والصحراء . كان يتذكر في أيامه الأخيرة هجينه الذي كان يجوب به الصحارى البعيدة .. كان يحب أهل الصحراء .. وذكرياتهم . وعند وقوع الغزو الايطالي الغادر كان في غات .

واستدعته الادارة المسؤولة إلى اسطامبول فسافر عن طريق تونس . وحاول أن يقوم بواجبه كنائب في البرلمان في عام ١٩١٤ .

وعند قيام الحرب العالمية الأولى التحق بالجيش التركي الى عام ١٩١٨م .. وأثناء التحركات السياسية في تركيا وأيام حرب الاستقلال هناك كان من زملاء مصطفى كمال أتاتورك .. كان من مساعديه .. وعيّنه وزيراً للداخلية ..

وفي عام ١٩٢٠م عيّن عبد القادر جامي ممثلاً في المجلس الكبير التركي . وكان ممثلاً للحكومة الكمالية في روما .

وكان العضو الثاني في الوفد التركي في مفاوضات لندن .

وفي عام ١٩٢٨م تقاعد عن العمل الرسمي .. وتفرغ للدراسات وحياة العلم والبحث ..

توفي عبد القادر جامي فى شهر نوفمبر ١٩٤٩ م .

كان له من العمر إحدى وسبعون سنة .

وله غير هذا الكتاب أيضاً :

- الأتراك القره مانليون .
- ديار المنفيين .. يصور حياة المنفى في ذلك العهد في ليبيا .
- وله عدة مقالات عن ليبيا : تاريخاً .. ودراسات .. وذكريات . ونشرت له الصحف التركية والأوروبية .

* * *

وإذا كان المؤلف صديقاً للقارىء

ومن حق القارىء أن يعرف .. ويتعرف على هذا الصديق

فإن ربط هذه الصداقة وصلتها هو المترجم .

فمن حق القارىء أيضاً أن يعرف شيئاً عن المترجم من هو !؟

● والأستاذ محمد الاسطى ليس غريباً عن مجال الترجمة الأمينة وهو أستاذ له في مجال الدراسات والتاريخ ضلع وسهم . يفيد كل دارس .. يأخذ بيد كل باحث .. يعيش بين الأوراق والوثائق غير ضيق ولا كز .. ولا متجهم .. في بساطة وكرم علمي يرشد كل حائر .. في سراديب التاريخ ودهاليز الوثائق .. فيكون كالجندي المجهول وراء الأبحاث التي تقدم للجامعات والمعاهد الدراسية في ليبيا والبلاد العربية .. وأوروبا .. أساتذة .. ودكاترة .. وصلوا إلى الدكتوراه بفضل مساندته وترجمته وإرشاده .. ولولاه لتخبطوا .. هو مصدر موثوق .. واطلاع واسع .. وصبر الدارس ..

وهو من مواليد طرابلس في شهر نوفمبر ١٩٠٠م .

تلقى تعليمه في المدرسة القرآنية بمحلة الضهرة .. ثم بالمدرسة الابتدائية .

وقبل أن يتم تحصيله الابتدائي غزت أساطيل ايطاليا شواطىء طرابلس .. وأقفلت المدارس .

وبعد الصلح الواقع بين ايطاليا وتركيا عام ١٩١٢م هاجر مع أسرته إلى المدينة المنورة عن طريق الاسكندرية وحيفا .. وواصل محمد الاسطى تعليمه الابتدائي بالمدينة المنورة .. وفي أواخر عام ١٩١٣ م وبعد أداء فريضة الحج مع أسرته انتقل إلى دمشق وبيروت وأزمير .. وفي أزمير استقر هناك لإتمام تعليمه الإعدادي والثانوي .. في معهد « مدحت باشا الصناعي ». وتخرج من هذا المعهد بدرجة جيد جداً في جميع العلوم والفنون ..

وفي عام ١٩٢٠م عقب الحرب العالمية الأولى رجع إلى أرض الوطن واشتغل مع والده بالتجارة .

وفي عام ١٩٣١م عيّن مدرساً بالمدارس الابتدائية بعد نجاحه في هذا الامتحان الذي عقد خاصة للمتقدمين للتدريس .. واشتغل مدرساً .. فأدى في حقل التعليم

واجبه التربوي بدافع الإحساس والغيرة الوطنيـة في أحلك ظروف الاستعمار الايطالي الغاشم حيث كانت سلطات الاستعمار تحارب الثقافة والحرف العربي .

قام بواجبه المقدس في مختلف مناطق البلاد : في الجبل الغربي .. وأراضي فزان .. وطرابلس .. طيلة خمسة وعشرين عامـاً . وفي عام ١٩٥٥ م عيّن مفتشاً على مدارس منطقة ترهونة ومسلاتة وغيرها .. ثم مفتشاً في مخازن المعارف .. ونقل في تلك السنة ـ ١٩٥٥ ـ الى دائرة المحفوظات التاريخية أميناً لها ومشرفاً عليها .. ومترجماً .

وفي دار المحفوظات وجد الرجل المثقف غايته وأدى عن هذا الطريق رسالته العلمية . كتب عديداً من المقالات والملاحظات في الصحف والمجلات .

وساعد ـ كما أشرنا ـ جميع الدارسين والباحثين الذين يطرقون بابه .. وخاصة في التاريخ الليبي والوثائق التي تحتاج الى ترجمة من اللغة التركية .

وترجم كتاب « طرابلس غرب » لمحمود ناجي وأخيه .. مع زميله أدهم ، ولا يزال محمد محمد عمر الاسطى يشتغل في الوقت الحاضر ـ ١٩٧٤ ـ المترجم الأول في دار المحفوظات التاريخية ..

ورأت دار المصراتي للنشر أن تسهم في المكتبة الليبية .. بتقديم كتاب عبد القادر جامي .. بترجمة محمد الاسطى .. ولنترك القارىء .. مع الكتاب في رحلته الشيقة .

علي مصطفى المصراتي

طرابلس ـ ليبيا
ديسمبر ١٩٧٣م

مقدمة المؤلف

عندما اتجرأ على تقديم هذه السطور المتواضعة المتعلقة بطرابلس والصحراء الكبرى إلى قرائي أدرك إدراكاً تاماً بأني لم أتقدم بأثر فني يناسب الموضوع إلا أنني سأعرض مشاهداتي وانطباعاتي ومعلوماتي التي اكتسبتها أثناء تنقلي في شمال ولاية طرابلس الغرب في وظائف متعددة لمدة أربع عشرة سنة وأخيراً أثناء رحلتي إلى فزان ومأموريتي في غات الشاقة الطويلة التي قضيتها بين التوارق ، وأقدم معلوماتي عن المناطق الصحراوية التي على طرق تجارة السودان والسكان الذين يعيشون في تلك المناطق .

لا أرغب في كتابة وقائع رحلتي الأخيرة في يوميات متتابعة لكي لا يمـل القراء تتبعها، لذلك آسف لعدم الكتابة عن الأيام السارة التي قضيتها مع رفيقي في الرحلة المستر « هانس فيشر » مندوب الحكومة البريطانية في برنو بكل ذكرياتها، تلك الرحلة التي ابتدأت في يوليو ١٩٠٦ من طرابلس وانتهت في سبتمبر في مرزق . اني مدين بتقديم واجب الشكر لشخصه العالي القدر لما قام به نحو مواطني من عمل إنساني ومساعدة قيمة .

في أوائل سنة ١٩٠٨ فر من مرزق عشرة من المحكومين السياسيين المنفيين في فزان ووصل ثمانية منهم إلى برنو في حالة يرثى لها من البؤس والاحتياج فقام المستر هانس بمساعدتهم وحمايتهم وتكبد مصاريف جسيمة في إرسالهم إلى

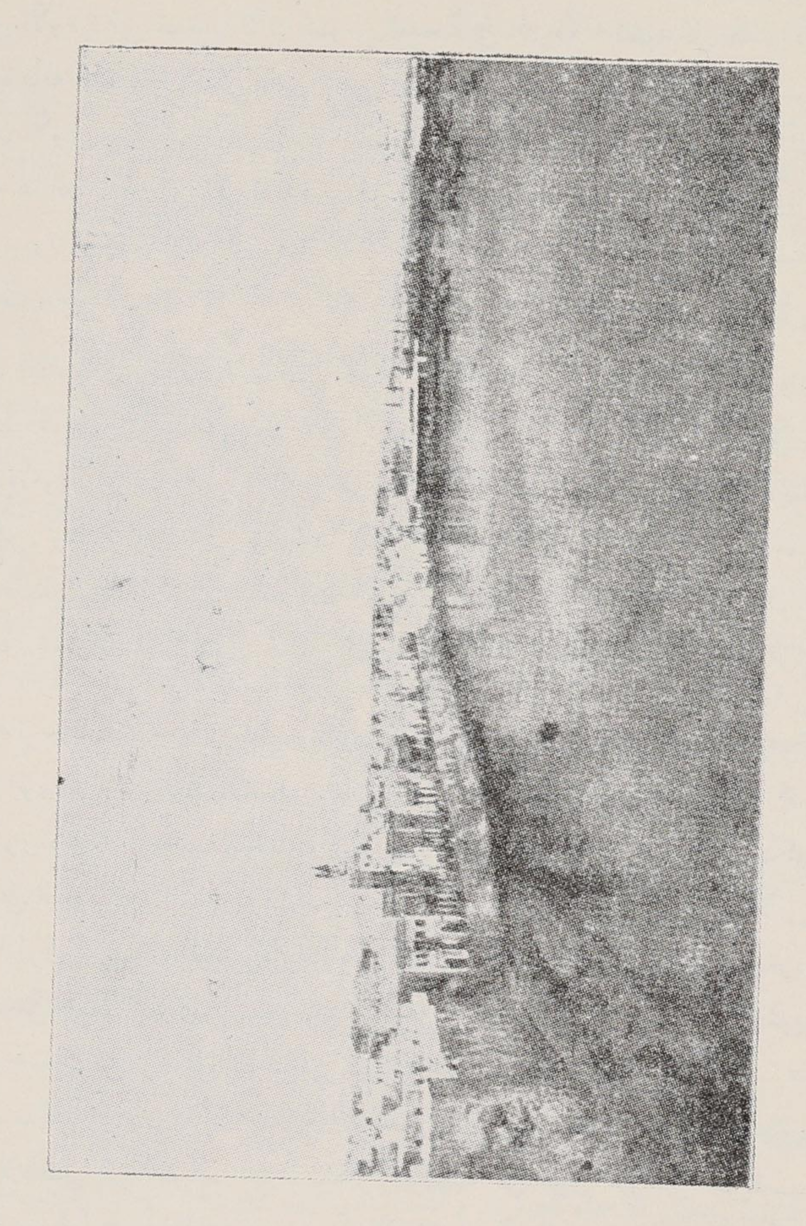
أوروبا على حسابه. وكما أُقدم شكري – وأنا فخور بتقديمه – لقنصل بريطانيا بطرابلس المستر الوارس الذي كان السبب في تعرفي برفيق قيم كالمستر هانس فيشر .

أرجو من قرائي أن يتبعوني بقليل من الصبر في رحلتي الصحراوية الصعبة هذه التي سأعرف فيها طرابلس التي كانت توصف عند الاسطنبوليين منذ زمن بعيد مخيفة كحجرات السجون المظلمة المرعبة التي في قصور أمراء القرون الوسطى القديمة أو في دهاليز الطبقات السفلى من سجون التعذيب ،وفزان التي في أقصى الجنوب وما بينهما من طرق صحراوية بكل وضوح .

في الوقت الذي تطغى فيه أوروبا (التي ازدادت نفوسها ونمت ثروتها بفضل السلم والاستقرار الذي سادها) نحو الأراضي التي ليس لها صاحب في الربع المسكون من العالم بخطوات جريئة لتجد مجالاً للذين لا يجدون في أوطانهم مجالاً لنشاطهم وتحقيق أرباح وافرة في تشغيل رؤوس أموالهم – يجب علينا نحن العثمانيين ان ننظر إلى ولاية طرابلس الغرب بما يستحقه موقعها في وسط البحر الأبيض المتوسط من أهمية لازمة .

ان طرابلس الغرب التي انتقلت إلينا بواسطة أبطال من البحارة العثمانيين مع غيرها من أقطار الشمال الافريقي في الوقت الذي كانت فيه أوروبا منشغلة في تطاحن القرون الوسطى الداخلية ، تلك القطعة التي ورثناها من أنقاض الدولة الأموية – تراجع عنها العلم العثماني تدريجياً إلى آخر معقل له بطرابلس الغرب التي كانت في نظر الحكم الفاسد لا تصلح إلا لتكون منفى للمثقفين الذين يعشقون الحرية والإنسانية . ان نظر الإدارة السابقة لطرابلس الغرب نفهمه من رد وزير للداخلية في ذلك العهد على إشعار من ولاية طرابلس بأن سجون فزان لم تعد كافية لاستيعاب المنفيين بقوله : « إن سجون فزان لازمة جداً ويجب الإشعار بما يلزم من نفقات لتوسيعها بوجه السرعة . »

لقد كانت طرابلس بمزارعها الواسعة مخزناً للمؤن بالنسبة للرومانيين وتشهد



مدينة طرابلس وميناؤها

الآثار المنتشرة على طول ساحلها وفي اتجاه صحاريها وأنقاض السدود والبنود في مجاري الأودية التي تصليها الآن شموس الصحاري المحرقة ، تشهد كل هذه الآثار والبقايا بأنه كان لهذا القطر ماض لامع تسوده السعادة . لم تكتف طرابلس في القرون الأولى بهذا بل ان الرومان انتهزوا فرصة الاستفادة من موقعها الذي منحته لها الطبيعة ، أي الاستفادة من قربها بأواسط افريقيا – فتقدموا نحو الجنوب.وتدل على ذلك آثار مراكز التجارة الصحراوية القديمة التي تصادف في غات وجرما .

ان المناسبات والاتصالات التي كانت سائدة منذ زمن الفينيقيين والرومان بأواسط افريقيا كونت في ليبيا عنصراً تعود على تحمل مشاق تجارة القوافل عبر الصحراء،وقد عرف الليبيون لدى افريقيا السوداء كممثلين لجميع الجنس الأبيض من البشر . وهذه الميزة التي توارثوها عن أجدادهم يجب أن نشكرهم عليها حيث بقوا محافظين عليها رغم التغيرات التي أوجدها الاوربيون في افريقيا والتعرض للغارات التي تشنها قبائل الصحراء وضعف حكومتنا وسوء إدارتها.

إن الرحالة الشهير « رولفي » الذي تمكن من إزالة الستار الذي كان يحجب افريقيا الوسطى عن العالم المتمدن والذي تجرأ على القفز في الأعماق المخيفة الكائنة وراء هذا الحجاب للبحث والتنقيب يقول : « ان من يريد أن يكون حاكماً على السودان (النيجر وتشاد) يجب أن يستولي على طرابلس » لأن أفضل الطرق للاتصال بقلب افريقيا هي الطريق التي تتجه من طرابلس جنوباً. لقصرها عن جميع الطرق الممتدة من سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية ووجود محطات عامرة على طولها في مسافات متقاربة نسبياً . وقد بقي هذا الاعتقاد سائداً إلى أن بدأت طلائع الاستعمار الاوروبي تتقدم خطوة بخطوة من المحيط الاطلسي إلى أطراف بحيرة تشاد وتمكنت من حوز خزائن افريقيا الرئيسية.ورغماً على أن قاعدة « من يرد الاستقرار في السودان يجب أن يكون حاكماً على طرابلس» قد بطل حكمها– إلا أن فكرة تأسيس أقرب طريق لاتصال

أواسط افريقيا بالعالم المتمدن يتوقف على التمكن من طرابلس لا زالت سائدة وحقيقة لم تنقص قيمتها حالاً ومستقبلاً .

ان مشروع الفرنسيين لمد سكة حديدية الذي بقي على الورق منذ سنين إذا أمكن تطبيقه ولو في مستقبل بعيد فإن أقصر خط لربط أسواق أوروبا التجارية بافريقية الوسطى هو الخط الذي يمتد من طرابلس جنوباً .

اني لا أريد الخوض في البحث عن نظر الإدارة السابقة إلى طرابلس التي هي آخر موضع لحظ رجعتنا في شمال افريقيا ، ولا عن كيفية إدارتها، ولا عن مكانتها في الميزان السياسي لحوض البحر المتوسط ولا عن احتمالات التيارات والمطامع السياسية المستقبلة التي ستواجهها . إلا أنني سأعرف مواطني المناطق التي تمكنت من مشاهدتها أثناء رحلتي بقدر ما شاهدته وفهمته لأكوّن فكرة لدى شبابنا المتحمس المعتمد على نفسه المتحفز ولفت نظره إلى هذه الولاية المسكينة المهملة المنعزلة المحرومة من مساعدة الوطن الأم والتي تحتاج إلى عنصر إداري فعال مضحي وذكي أكثر من غيرها منالولايات العثمانية .. وسأكون سعيداً إذا وفقت في لفت نظرهم إلى هذه الولاية .

طرابلس الغرب في ١٢ كانون الاول ١٣٢٤ هـ

٢٥ ديسمبر ١٩٠٨ م

عبد القادر جامي

ملاحظة خاصة :

كتبت بعض الأسماء البربرية وأغنية التوارق بحروف لاتينية لعدم ضبطها بالحروف العربية .

مدينة طرابلس والطرق إلى الجنوب

إن أراضي الصحراء الكبرى الرملية الواسعة المستولية على شمال افريقيا جنوباً الممتدة من الشرق إلى الغرب في سكون الموت العميق ، وأراضي الحمادة القاحلة والسرير الصخري التي حالت جبال الأطلس العالية كمنافس قوي دون اتصالها بالبحر الابيض المتوسط ـ تتمكن من الاتصال بامواجه البراقة الصافية في ساحل سرت .

ان الخليجين المسميين عند الجغرافيين بالسرتين هما انحناءان يقربان أواسط افريقيا بالساحل الجنوبي من البحر الأبيض والمبدأ لأقصر الطرق التجارية الشاقة عبر الصحراء لاتصال أواسط افريقيا بهذا البحر الذي كانت تمخر عبابه سفن الامم المتمدنة القديمة كالفينيقيين واليونانيين ولم تزل تعبره البواخر الحديثة .
وميناء طرابلس يعد من أعرق المراكز التجارية التي أسست على هذا الساحل ، وبتعبير أشمل : ان طرابلس هي أقرب ميناء تلتقي فيه الصحراء الكبرى بالبحر ونقطة اتصال بين قوافل السفن الآتية من الشمال بالقوافل القادمة من الجنوب .

ومدينة طرابلس عندما ينظر اليها من البحر ـ لوقوعها على أرض منخفضة ـ

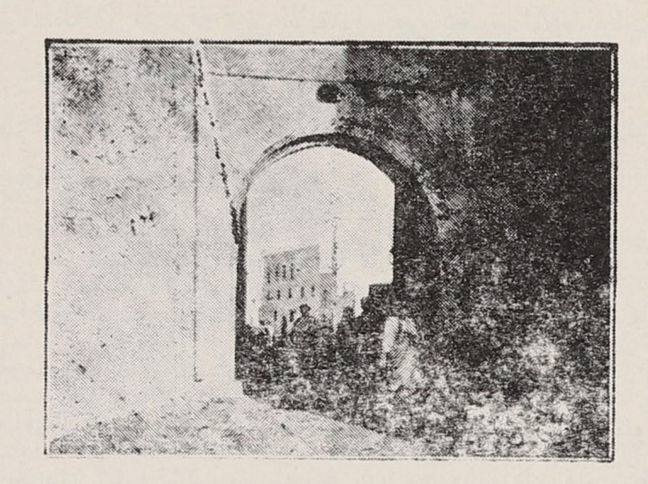
تبدو جميلة جذابة بمآذنها البيضاء الناصعة المتوجة باللون الأخضر وقلعتها القديمة التي تناطح جدرانها الأمواج وبرج منار مينائها الذي يتوجها بارتفاعه ومبانيها المتناسقة نوعاً ما على الشاطىء ونخيلها المتسع الممتد شرقاً على طول الساحل كحجاب أخضر يخفي وراءه الأراضي الرملية المملة القاسية .

ميناء طرابلس الطبيعي الواسع الذي تحميه سلسلة من الصخور التي تمتد من الغرب إلى الشمال الشرقي ومفتوح من الناحية الشرقية افتتاحا كلياً من الممكن افراغه إلى ميناء عصري متكامل بمصارف جزئية .

إذا تعديت الضواحي العامرة نسبياً على طول الساحل ودخلت المدينة من أحد أبواب أسوارها ترى المدينة القديمة بأزقتها الضيقة ، وهو منظر يرى في كل المدن القديمة المحاطة بالأسوار ؛ ومنازلها المختنقة التي ليس لها نوافذ وشبابيك .
ويجتمع كل النشاط التجاري والصناعي لطرابلس في أسواق هذه البلدة القديمة فمحصولات السودان وافريقيا الوسطى وتمور الواحات والمنتجات الصناعية المحلية والبضائع الاوربية تلتقي كلها في هذه الأسواق، فريش النعام الذي يجلب من كانم وبرنو يحضر للتصدير في طرابلس، والعاج والجلود وما يصنع منها من أشياء ومصنوعات الدواخل كالبطاطين والأردية الصوفية والقطنية وزرابي مصراتة توجد كلها في هذه الأزقة كما ترى معروضة في الحوانيت المظلمة بسوق الرباع .

وأنت ترى في أسواقها حانوتاً لبيع أرقى أدوات الزينة وصيدلية يتوسطها حانوت لبيع الخضروات والفواكه، وعلى قرب منها حانوت بقال لبيع المواد الغذائية وبجانبه دكان لصنع الأحذية كلها ـ مناظر غير متجانسة وفوضى تختص بها أسواق شرقنا .

وترى في أسواقها الضيقة هذه صباح يوم صائف معتدل الجو نسبياً نماذج من كل شعوب افريقيا تختلط بنماذج من سكان حوض البحر الابيض المتوسط



باب الجديد



الزي عند النساء اليهوديات

اناساً من مختلف البلاد الأروبية والموظفين العثمانيين والجنود والضباط والكول أوغلية المختلطي النسب والبدو وبربر الجبل والمغاربة واليهود والفزانيين والعربان المحترفين لنقل البضائع بالإبل عبر الصحراء وقليل من التوارق الملثمين والزنوج القادمين من اقاصي أواسط افريقيا من برنو ووادي وباغرمي - كل هذه الاجناس في حركة ذهاباً وإياباً تشكل مشهداً أو معرضاً لجميع الأجناس .

نفوس طرابلس مع سكان بساتين النخيل المحيطة بها ٤٢٠٠٠ نسمة منهم ٣ أو ٤ آلاف من الأجانب ويشكل أكثرية هذه الجالية المالطيون الذين هم أقرب الناس لشعوب الشمال الافريقي .

شوارع المدينة الجديدة خارج السور القديم متسعة والمباني فيها منتظمة إلا ان الفوضى وعدم التناسق الخاص بالشرق يتجلى هنا أيضاً حيث يصادفك كوخ للزنوج مقام من اغصان النخيل في قاعة خالية يجاور عمارة حديثة .

وعلى بعد من ذلك على حافة أحد البساتين الجميلة خيمة قديمة بالية ممزقة تحتمي تحتها أسرة بدوية ووراء سور المدينة من الجهة الغربية مباشرة أكواخ لبيع كل الخردوات من الشبابيك القديمة إلى مسامير الاحذية والنعال البالية وعلى مسافة قليلة من المباني الجديدة التي بدأت تزين الشوارع الواسعة كل هذه المناظر تمثل المضادة بكل معانيها .

نخيل واحة طرابلس يبدأ من سورها وكان يحتل كل الاحياء خارج السور القديم إلى ربع عصر مضى ، وتحت ظل هذا النخيل الذي يفصل البحر الابيض المتوسط عن رمال الصحراء المحرقة وبفضل المياه الجوفية المتوفرة وطبقاتها الواسعة ، ورغماً على أصول الري العتيقة - تمتد البساتين والمزارع التي تنمو فيها كل أنواع الاشجار المثمرة والخضر نحو الشرق .

فكل الاشجار التي تنمو في حوض البحر الابيض المتوسط متوفرة فيها فالبرتقال والليمون والتين والخوخ والمشمش والرمان والكمثرى واشجار الزيتون

الخضراء التي تعلو على مستوى ارتفاعها الملايين من النخيـل المرتفعة نحو السماء
تحت هذه الظلال الوارفة ترى الابقار وهي تخرج المياه بواسطة دلاء من جلد
من آبار يتراوح عمقها ما بين ٤ إلى ١٤ متراً. وبفضل هذه المياه البراقة الصافية
وتأثير حرارة الشمس الأفريقية تمنح الحياة للحبوب المزروعة كالقمح والشعير
والذرة ولكل الخضروات والبقول .

نواحي طرابلس الغرب العامرة وأكثرها سكاناً هي المناطق الممتدة على طول
ساحلها وأهمها مدينة طرابلس وضواحيها حيث تبلغ كثافة السكان فيها ١٥ نسمة
لكل كيلومتر مربع. واعتباراً من النخيل الذي يحيط بجنوبها تبدأ الصحراء بمنظرها
العقيم المحرق التي تسترها كثبان الرمال المتحركة بفعل رياح الجنوب وتستمر هذه
الساحة الجرداء التي تشقها جبـال غريان وترهونة الزرقاء مكونة فيهـا خطاً
فاصلاً وسطها .

على بعد خطوات من ظلال البساتين الغناء تبدأ الصحراء المديدة بوجهها
العبوس، ومثلما ترحب تلك الجنان الزاهرة الباسمة بالقادمين عبر الصحراء بعد
رحلة طويلة شاقة تتجلى الصحراء للقوافل التي تفارق حدود الواحات برمالها
المتموجة وسريرها الصخري عبوسة في صورة حزن الموت والفناء .

سواحل طرابلس كلها خط تصـادم لرياح البحر الابيض المتوسط الرطبـة
المعتدلة التي تهب من الشمال بلفحات رياح الصحراء المحرقة التي تهب من الجنوب.
وتستمر الرياح في القسم الشمالي من الساحل منتظمة في هبوبها من الشمال الشرقي
والجنوب الغربي .

في بعض الأيام تعصف رياح من الجنوب تسمى عند المواطنين بالقبلي بشكل
يتعب الاعصاب جداً ،فهي تنشف الازهار وحتى أوراق الاشجار وتدوم بكل
يبوستها فليتحف الافق الجنوبي كله برداء احمر ناري. واذا اشتدت ترتفع ذرات
الرمال التي تحملها فوق طرابلس فتكون ستاراً كثيفاً أحمر يحجب لون السماء

الازرق الصافي ، واذا خفت تنهمر مليارات من ذرات الرمال الطائرة وتتراكم
على الملابس وتنفذ حتى الى أجزاء الساعات الدقيقة .

هذه الحملة التي تشنها الصحراء من وقت لآخر تعقبها في أكثر الأحوال حملة
معاكسة لرياح شمالية شديدة تقشع سحب الغبـار نحو الجنوب وتعيد للسماء
صفاءها المعتاد التي تختص به هذه البلاد . أثناء هبوب رياح القبلي تحدث بعض
الحالات الغريبة يزعمها بعض القدماء من علامـات الشؤم حسب تفسيرهم ..
وتارة تعقب هذه العاصفة قطرات من المطر الكبيرة المتباعدة التي تسمى عنـد
الأهالي « دموع القبلي » مختلطة بذرات الرمال العالقـة بالجو ، فتسقط بلون
أحمر . في سنة ١٣١٣هـ – ١٨٩٧م شاهدت الحادثة بنفسي ورأيت الجدران
المطلية بالجير مبرقعة بنقط حمراء في بضع دقائق فبدت وكأنها جلد نمر .

ولا تكتفي رياح الجنوب بجر رمال الصحراء وغبارها إلى طرابلس بل تتحف
بها تارة سواحل البحر الأبيض المتوسط الشمالية . وبهذه الصورة تنقل جزءاً من
تراب افريقيا إلى أوروبا كل سنة ، أما تأثير رياح القبلي ويبوسته الشديدة فقد
شاهدتها فيما بعد بفزان .

السحب التي تسوقها الرياح المختلفة في الصيف تمر من غير أن تخلف قطرة
واحـدة إلا أن الرياح التي تهب من الشمال والرطبة تحمل كتلاً من البخار
تكوّن جواً ندياً بعد منتصف الليل وتمنح الحياة للنبات في السهول القريبة من
السواحل. فالذين ينامون فى العراء في ليالي الصيف يبتلون قرب الصبح بقطرات
الندى الساقطة .

موسم الأمطار فى القطر الطرابلسي أواخر الخريف والشتاء . تقع جميع
أراضي الولاية في المنطقة المحرومـة من الأمطار الممتدة من سواحل السنغال نحو
الشرق إلى أن تقطع مدار السرطان بميل جزئي، وفي قلب الصحراء التي يسيطر

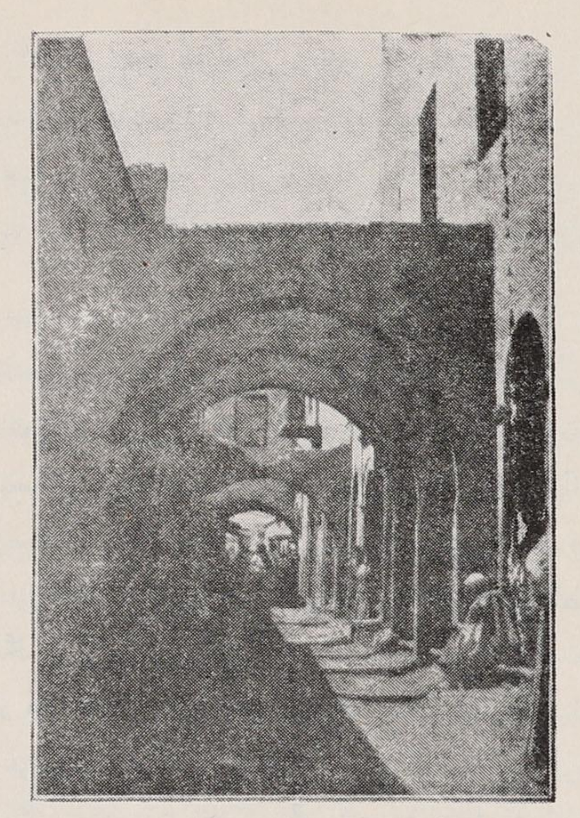
عليها الجفاف ، وتعد سواحلها من المناطق الجافة بالنسبة لمقاييس كمية الأمطار التي تسقط فيها .

قبل الحديث عن طرق القوافل فى الصحراء الممتدة من طرابلس ونخيلها إلى بحيرة تشاد والسودان سألقي نظرة على منطقتي طرابلس وفزان الشاسعتين .

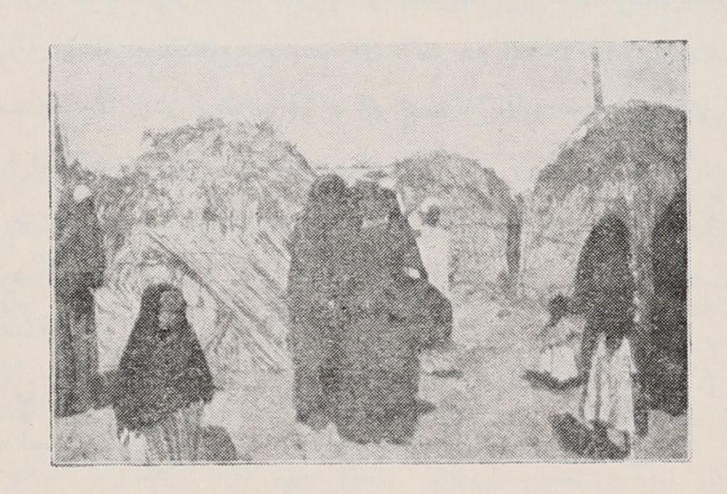
إن المنطقة الشمالية من القطر الطرابلسي تبتدىء من المنتهى الشرقي لخليج قابس وتستمر إلى مصراتة وتنحني جنوباً حيث التجويف الكبير المسمى بخليج سرت محاطة بالبحر شمالاً وتحدها من الجنوب الحمادة الحمراء وسلسلة جبال السوداء وسرير بن عفين أي أنها محصورة بين الماء وبين بحر من الرمال والحصباء. وهذا البحر الرملي الصخري حد فاصل طبيعي بين إقليم طرابلس وإقليم فزان ، ويبدأ هذا الحاجز من غدامس في الغرب وتقريباً من دائرة العرض ١٠ ، ٣٠ وفي الدائرة السابعة من الطول الشرقي بالنسبة لمبدأ الطول باريز ويستمر الى ٢٥ ، ٣٠ من دائرة العرض ودائرة الطول ١١ بميل جزئي . واعتباراً من هذه النقطة يمتد في اتجاه الجنوب الشرقي الى تقاطع خط العرض ٤٠ ، ٣٨ بخط الطول ١٣ ويسمى بالحمادة . وبحر الصحراء هذا الخالي القاحل يستمر في امتداده نحو الشرق الى هضاب جبال السوداء وصخور سرير بن عفين في الجنوب طولاً . وعرضه من الشمال الى الجنوب ما بين ١٣٠ – ٢٥٠ كيلومتراً .

وهذا الحاجز القاحل يفصل إقليم طرابلس عن إقليم فزان . وهما يختلفان في التشكلات الطبيعية والجغرافية . فالأراضي الشمالية أي إقليم طرابلس عبارة عن أراضي المنحدرات الشمالية والشمالية الشرقية والشرقية اللحقية وتتكون من السهول والأودية الواسعة وتتعاقب فيها مواسم الأمطار أكثر مما في الجنوب . وأما أراضي الجنوب فبها واحات كجزر متناثرة وأودية باقية من عهود ما قبل التاريخ تشهد آثارها على غزارة أمطار القرون الخالية في هذا الإقليم .. وهي طويلة شاسعة لكن مجاريها العميقة ردمتها الرمال بفعل الرياح فبدت مستوية .

* * *



أحد الأزقة في مدينة طرابلس القديمة



الأكواخ خارج السور

سأتجنب كتابة مشاهداتي عن طرق الجنوب ووقائعها في يوميات لكي لا تكون مملة ولكني سأسردها في عرض شامل عن الاتجاهات العامة وتشكلات الأرض الطبيعية وعن القبائل البدوية والطريقين الرئيسيين الكبيرين اللذين قطعتهما إلى بلدة غات الواقعة في أقصى الجنوب الغربي من الولاية .

إن أول محطة رئيسية لطرق تجارة سقوطو وبرنو وكانم ووادای وخطوط مواصلاتها الصحراوية بعد طرابلس هي مرزق في الجنوب أو غات في الجنوب الغربي . وهناك ثلاث طرق رئيسية تتجه للمحطتين المذكورتين ، أولاها الطريق الغربية التي تتجه إلى الجنوب الغربي الى غدامس ومنها جنوباً إلى غات ، وثانيتها الطريق الجنوبية التي تتجه إلى الشاطىء وتتفرع الى فرعين فرع إلى الجنوب إلى مرزق وفرع الى الجنوب الغربي ويستمر إلى غات،وثالثتها الطريق العامرة وهي الطريق التي اتخذت لإيصال البريد الى فزان منذ أن انتقلت الى الحكم العثماني الثاني . وأكثر هذه الطرق ازدحاماً هي الطريق المتجهة الى الجنوب التي تقطع سلسلة جبال غريان وتتجه الى الشاطىء حيث تنقسم إلى فرعين أحدهما الى مرزق والآخر الى غات . لم تفضّل اتجاهات هذه الطرق واختيارها لاجتناب العوارض الطبيعيةوعورة الأودية أو لقصرها من حيث إيصال الامتعة التجارية الى مرزق وغات وبالتالي الى السودان بالسرعة الممكنة، بل أسست في اتجاهات تتناسب مع منازل وأوطان أفراد القوافل الذين يحترفون نقل البضائع على إبلهم ، فالتاجر الذي يسلم بضاعته الى هؤلاء لنقلها الى غات يفرض عليه المرور من بلد العربان الجمالة .. ذلك لأن العربان الذين يعتمدون في معيشتهم على نقل البضائع يحتاجون لتبديل الإبل المتعبة بعد سفر طويل ولإيصال ما يشترونه من الأقمشة واللوازم البيتية الأخرى من أسواق طرابلس بالأجور التي يحصلون عليها الى بيوتهم ، لهذا تراهم ملزمين بالمرور من محلات سكنى قبائلهم وبالتالي يجرون أصحاب الأثقال التجار للمرور من نفس الطريق .

إن العربان الذين يتولون نقل الأمتعة التجارية من طرابلس الى فزان وغات

هم عربان الشاطىء، والذين يقومون بنقلها على الطريق التي تمر من منتهى الحدود الغربية من الولاية الى غدامس وغات هم عربان سيناون والتوارق. وأما الطريق العامرة الشرقية فتقطع فيها المسافة بواسطة عربان أورفلة وعربان منطقة سوكنة يتناوبون النقليات فيها من منزلة الى منزلة .

●

بعد تقدم خطوة خارج بساتين طرابلس أي اعتباراً من حافتها الجنوبية ندخل رمال الجفارة وعين زارة التي تبدأ من هناك.وتستمر الطريق في منحنيات ملتوية بين كثبان الرمال الناعمة المتحركة التي تغير مواقعها كل سنة . إن كثبان الرمال القريبة من الساحل قليلة الارتفاع بالنسبة لرمال الصحراء الكبرى ، وترى رمال الجفارة وهي تزحف نحو الغرب تدريجياً بفعل رياح الشمال الشرقي . ولقد استولت هذه الرمال على القسم الشمالي من السهل الواسع المتكون من الرواسب التي تجلبها الأمطار والسيول الآتية من جبال غريان وترهونة فتنسل القوافل خلال كثبان الرمال إلى أن تقطع ١٥ كيلومتراً في اتجاه الجنوب حيث تترك بعدها هذه الرمال وراءها وتدخل سهلاً أحمر متسعاً يمتد جنوباً الى سفوح جبال غريان وإلى أودية جبال ترهونة في الجنوب الشرقي. وهذه السهول المترامية الأطراف أول ما تراها تحسبها مستوية والحقيقة انها مائلة بميل جزئي نسبته أربعة في الألف .

بعد الخروج من الرمال تتجه الطريق الجنوبية الى « الكدوة » العزيزية وتستمر في اتجاه الجنوب الشرقي الى سهل وادي المجينين في أرض لحقية صلبة .

إن وادي الهيرة الذي يأتي بمياه أمطار جبال غريان الى الساحل ووادي المجينين الذي يأتي من جبال ترهونة ويصب في جوار مدينة طرابلس ووادي بن نور المتكون من مرتفعات ترهونة الشمالية الشرقية والشعب التابعة لها التي تغير مجاريها كل سنة في فصل الأمطار حاملة معها المواد العضوية المكونة مساحات شاسعة صالحة للزراعة . وتعتبر هذه الأرض الممتدة من جبال

ترهونة إلى سفوح جبال غريان ونفوسة أكثر خصباً من الأراضي الجبلية إلا أن خصوبتها تتوقف على غزارة الأمطار والفيضانات التي تحدثها الأودية المذكورة .

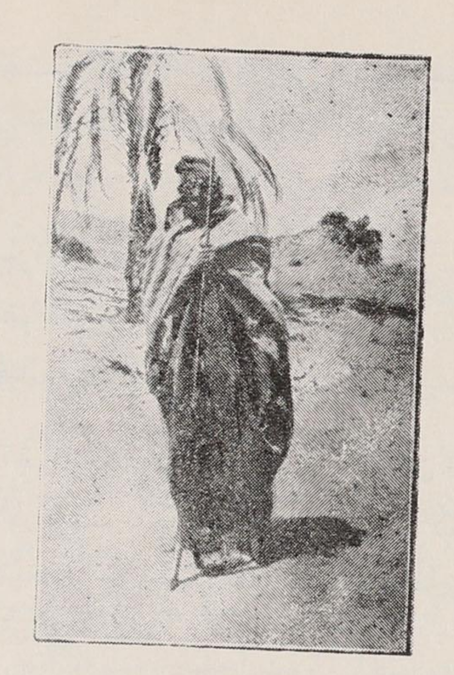
سطح هذا السهل صلب متشقق بفعل حرارة شمس الصيف الشديدة. وتبقى مجاري الأودية فقط طينية مختلطة بالرمال. وتكسبها أكوام السدر التي تستر سطح السهول وتمسك تربتها عن التحرك بعروقها منظراً جميلاً . والمنظر العام لهذه السهول المغطاة بأكوام السدر يشبه رغاوى خضراء داكنة لأمواج بحر أصفر متلاطم . تستمر الطريق ملتوية بين أكوام السدر مرة ومن جانب بساتين النخيل والتين مرة أخرى إلى الكدوة (العزيزية). والكدوة هضبة مرتفعة مائة متر عن مستوى السهل. وقصر الكدوة الذي هو مركز قضاء العزيزية عبارة عن قصر الحكومة وبضعة حوانيت وفندق ومسجد يقع في أسفل تلك الهضبة.

صعدت في عشية من شهر يوليو إلى هذه الهضبة للاستفادة من طراوة الريح الشمالية ونسماتها التي بدأت تهب عقب رياح قبلية حارة جافة تشوي كلفحة جهنمية آتية من فوهة فرن .

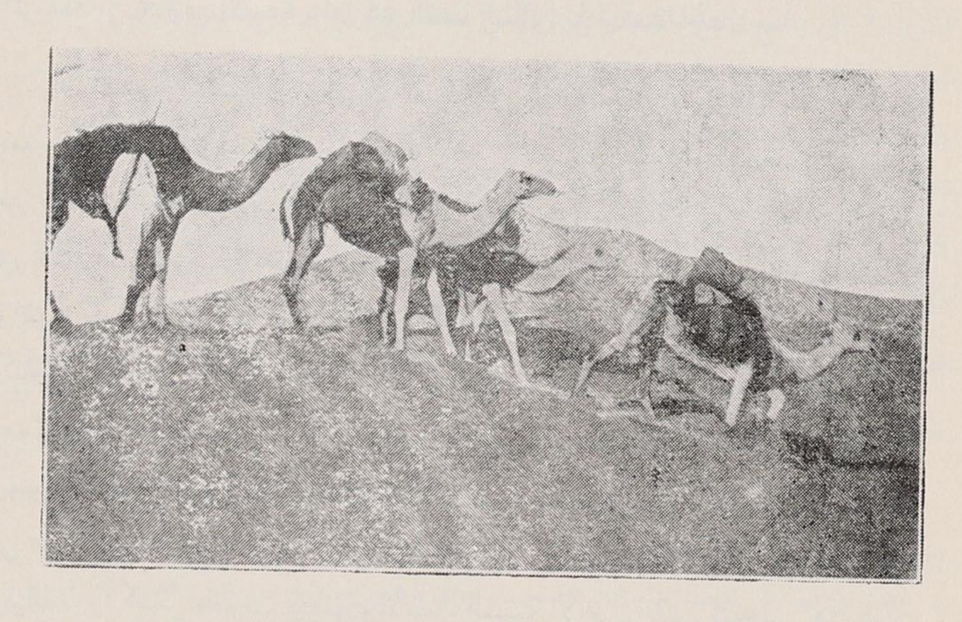
عندما تغرب الشمس بأشعتها الحمراء الداكنة في الأفق الغربي الذي يُرى كسراب بفعل الرياح الجنوبية تبدو طبقات البخار الآتية من الشمال في شكل غيوم تتقدم وتنساب على سطح السهول ونبات السدر ثم تقترب كستار يكسو كل شيء بغطاء باهت مبهم . إن السدرة الخضراء التي أيبسها الريح القبلي الذي استمر بضعة أيام وامتص عصارتها تتوقف إعادة الحياة إليها على ما يجود به هذا الضباب من قطرات الندى التي تسقط بعد منتصف الليل .

ويرجع الفضل لحماية أكوام السدر من هجوم الرياح القبلية المباشر إلى درجة ما للسد العظيم الذي تكونه سلسلة جبال غريان في الجنوب .

وبعد الكدوة (العزيزية) تستمر الأرض بنفس طبيعتها الترابية إلى سفح جبل غريان ، وكلما تقترب الجبال تتباعد أكوام السدر عن بعضها وتعظم نسبياً



بدوي من قبيلة المقارحة



القافلة وهي تقطع كثبان الرمل

وتعلو أحياناً إلى ارتفـــاع ثلاثة أمتار وتظهر كأشجار منفردة للعيان،ثم تبرز الأراضي اللاحقية التي تسترها الحجارة وتبدأ القافلة في مرورهـا خلال هضاب صغيرة .

وطبقات المياه الجوفية في هذا السهل كله في عمق يتراوح ما بين ٥ أمتار إلى ٦٠ متراً ، ويزداد عمقها تدريجياً كلما توغلنا في اتجاه الجنوب ، وتقل الآبار في المنطقة القريبة من الجبال .

يصادف في تلك الجهات بعد عمق ثلاثة أمتار من الطين طبقة صخرية صلبة لذلك يصعب حفر الآبار فيها . توجد صهاريج في مجاري الأودية الصخرية باقية من زمن الرومان تسد بعض احتياجات البدو من الماء صيفاً وتغنيهم عن مشكلة حفر الآبار إلى درجة ما في المنطقة .

كذلك تشاهد بقايا سدود أقامها الأوائل لضبط الماء وجمعه في الجهات الصخرية المرتفعة من مجاري الأودية وبين قمم القسم الشمالي من سلسلة الجبال .

إن مساحة القسم الذي تسكنه قبائل ورشفانة من أراضي هذا السهل الذي يعد من أخصب الأراضي الساحلية والأراضي التي حول الكدوة ـ تقدر بما يقرب من ١٣٠٠ كيلومتر مربع ، وتنتج المزارع ومجاري الأودية التي في هذه الرقعة في السنوات المتوسطة الخصب ٢٤٠٠ طن من الشعير و٣٥٠ طناً من القمح فقط. ومجموع نفوس ورشفانة ١٥ ألف نسمة حيث تبلغ كثافة السكان ١١ ١/٢ في كل كيلومتر مربع. وجميع البدو الساكنين في هذا السهـل رحل ومن سكان الخيام يعيشون في خيم مصنوعـــة من الشعر والوبر ذات العمود الواحد في الوسط ومستطيلة الشكل ولونها أسود على الأكثر وبعضها عسليّ داكن،وتسمى المجموعة من هذه الخيم « نجع » أو « نزلة » وتحتاج كل أسرة إلى جملين لنقل بيت الشعر وتوابعه وأكياس حبوب تموينها والأشياء البيتية الأخرى التي تنحصر في رحى وأواني الأكل الخشبية والقدور النحاسية والملابس والزرابي والوسائد عندمـا

تضطر « النزلة » إلى تغيير موقعها للزراعة في المناطق التي ترويها مياه الأمطار والسيول . في فصل الشتاء يدفن القسم الأعظم من عمود الخيمة في الأرض وتربط أطرافها في أوتاد حتى الأرض . أمـــا في الصيف فترفع أطراف الخيمة بأوتاد طويلة وتحاط من ثلاث جهات بجدران عمودية من الحصر بحيث لا تمنع جريان الهواء وتبقى جهة واحدة مفتوحة من خلالها .

أمضينا قائلة [١] حارة من شهر يوليو في إحدى خيم ورشفانة.والخيمة التي دعينا إليها مقسومة إلى قسمين عند العمود بحاجز ، وهو بساط من الشعر والوبر . ويفهم من أزيز رحاة اليد المتواصل المتزن التي تساهم في إحضار الغذاء وأصوات النساء في هذا القسم بأنه خاص بالحريم . تمددنا على أكيـاس الشعر المفروشة واتكأنا على أكياس الحبوب المرمية على الجدار العمودي.دعانا صاحب البيت إلى طعام الغداء، وانتظاراً لوقت احضاره حاولنا النوم ونحن نسمع ألحان الرحاة المتزنة ولكن صياح الجديان القافزة فوق رؤوسنا وصوت الديك الفخور بالرياسة على بضع دجاجات،والجراء التي تتصارع وتطارد بعضها ما بين أكياس الحبوب قافزة جارية على أرجلنا ـ حالت دون تمتعنا بنوم هادىء، جميع حيوانات صاحب البيت التجأت لحماية نفسهـا من حرارة شمس يوليو إلى ظل الخيمة . الإنسان والحيوان كجمهور مختلط كلنا نحاول الراحة هناك . بعد أن أكلنا البازين[٢] في قصعة خشبية وشربنا اللبن الحامض وضعت أواني الشاي في الوسط: كؤوس زجاجية صغيرة على مائدة خشبية صغيرة وإبريقان صغيران وعلبة من الصفيح ملونة لوضع الشاي والسكر مما يدل على أن صاحب البيت ذو مـال

(١) تعبير محلي يطلق على أحرّ فترة من اليوم تبدأ قبل الزوال بساعتين وتنتهي إلى مـا بعده بساعتين .

(٢) من المآكل المفضلة عند الطرابلسيين : عجين مطبوخ يصنع من دقيق القمح أو الشعير ويوضع في قصعة من خشب في شكل نصف كرة كالقبة ويوضع عليه أدام من مرق اللحم تؤخذ قطعة منه ترفى بالأصابع في الأدام ثم تؤكل.

أو بتعبير أصح إنه تحصل على محصول زراعي وافر في هذه السنة .

البدو في سنوات القحط يهجرون كل شيء حتى زوجاتهم سعياً وراء العيش في أي مكان كان .

إن الشاي الأخضر الذي أدمن أهالي طرابلس على شربه فتاك من الناحية الصحية والمالية وأكثر ضرراً من المشروبات الكحولية التي أدمن على تناولها الأوروبيون . فالشاي الأخضر الذي يلون بأصباغ مضرة يجد سوقاً رائجة عند البدو لأنهم يفضلون الأغمق لوناً على غيره، والشاي بلية انتشرت في شمال افريقيا وآفة عممتها الزوايا السنوسية بين السكان .

ورعاية لمنشأ هذه العادة يشترط أن يراعى في إحضاره وتوزيعه على الضيوف آداب خاصة . فالذي يحضر الشاي يقلد الوضع الذي يتصف بــه شيخ الزاوية أمام تلاميذه . كلف ذلك اليوم أحد رفقائنـا وهو الشيخ أحمد بن علي شيخ قبيلة القوائدة من الشاطىء ومن التجار المعروفين بمهمة إحضار الشاي بعـد الطعام لمعرفته بآدابه وتقاليده .

قام الشيخ المذكور بالمهمة وبعد أن انتهى من توزيع ثلاثة أقداح على جميع الحاضرين أشار على صاحب البيت برفع الأواني من أمامه ولكن بما ان ورشفانة جميعها وسكان وادي المجينين وخاصة بدو ترهونة لا يكتفون بثلاثة أقداح وحتى بتسعة ـ فقد جذب صاحب البيت أواني الشاي لناحيته ،ورعايةً لتقاليد إحضار الشاي مدّ رقبته الطويلة حتى برزت عضلاتها وحملق بعينيه الواسعتين البراقتين وظهرت تقاسيم وجهه المستطيل بأنفه المنقاري وشفتيه الرقيقتين وانتصب برأسه تحت طربوشه التونسي ذي الخصلة الزرقاء المتدلية خلفه واتخـذ وضعاً خاصاً يليق بمهمته وشرع في إحضار الكأس الرابع ...

* * *

كلما تقترب من جبال غريان تشاهد الأخاديد التي تكون السفوح الشماليـة

للجبال والكتل التي تحتها الحاصلة من أثر التصدع والروابي ذات الميل الخفيف التي أحدثتها تلك الكتل ومداخل الأودية التي تشق طريقها بين تلك الأخاديد بكل وضوح . وتمر الطريق بين هضاب مبعثرة ومن جوانب روابي الأنقـاض ومن مجاري السيول الصخرية إلى تلك الأودية ثم تستمر في التوائهـا على أرض صخرية صلبة إلى الجبال وتنتهي إلى الثنية الحلزونية المتصاعدة (ثنية ابي غيلان) .

إن المسافرين في قافلة في يوم من أيام يوليو حيث متوسط درجة الحرارة في الظـل تصل إلى ٣٨° وتتضاعف بانعكاسات الشمس على الروابي الصخرية التي بطرفي الطريق وعلى الحجارة البيضاء التي طرحتها السيول على المجاري وتـأثير أشعة الشمس على الأبصار يزيد في قلقهم وتبدو عليهم آثار الكسل والفتور العام. ويحدث هذا المنظر القاحل رغم وجود بعض جذور السدر في مجـاري هـذه السيول فارقاً مضاداً بينه وبين الأجنة وغابات الزيتون الجميلة التي تزين جبل غريان .

وعندما تقتحم الطريق الصاعدة المنتصبة التي تسمى عند السكان بالثنية وتصبح في أعالي جبال غريان ونفوسة وعلى خط تقسيم المياه الذي يربط قابس بخليج سرت فمعناه أنك وصلت العمود الفقري للقسم الشمالي من إقليم طرابلس الغرب الخصيب الآهل بالسكان . سأقف هنا قليلاً لمشاهدة تشكلات هذه الجبال نظراً لأهميتها في حياة طرابلس من الناحيــة الزراعية والمنحدرات التي بين الخليجين (خليج قابس وخليج سرت) .

إن فروع جبال الأطلس الممتدة إلى جنوب تونس والتي تبتدىء من حوالي نالوت إلى غريان باسم جبل نفوسة وتستمر في امتدادها في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي لتتصل بالحمادة من جهة ، وتمتد من غريان الى الشرق والشرق الشمالي من جهة أخرى مكونة بذلك هضاب ترهونة ومسلاتة ـ إن هذه الجبال التي تشكل العمود الفقري وأضلاع القسم الشمالي من ولاية طرابلس الغرب تكوّن ثلاثة منحدرات :

الأول : المنحدر الشمالي الذي يكوّن الأودية وطرق السيول المنجرة إلى ساحل طرابلس وخليج قابس مباشرة .

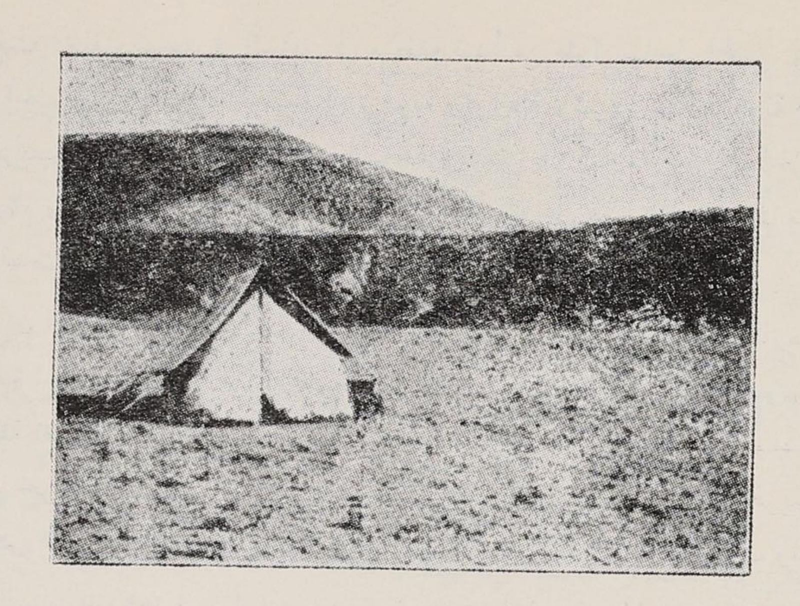
الثاني : المنحدر الشرقي الذي يكوّن أودية بني وليد وسوف الجين وزمزم ونفد التي توصل مياه أمطار الهضاب العالية من جبال يفرن وغريان وترهونة إلى خليج سرت .

الثالث : منحدر الجنوب الغربي في منطقة نالوت من جبل نفوسة ومبدأه من خط اتجاه سيناون ـ غدامس ومنتهاه رمال وادي سوف ، وتكوّن سيوله أودية الصحراء .

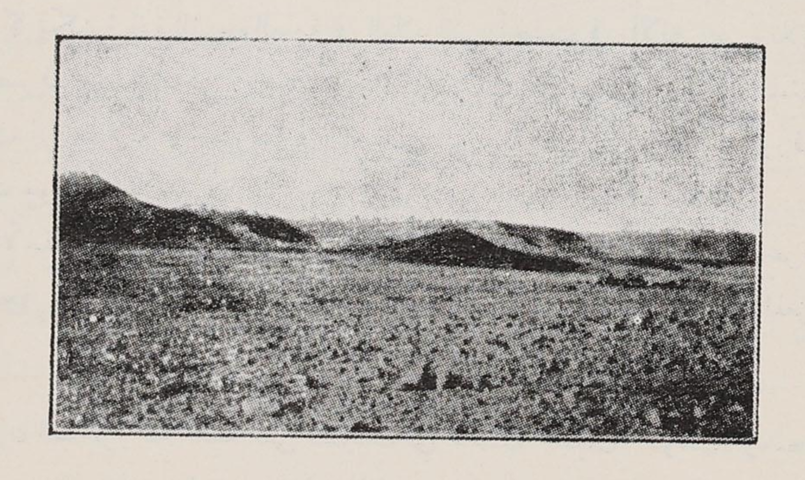
إن منابع المياه الجارية الموجودة بسفوح سلسلة الجبال وفي الهضاب المرتفعة الواقعة في أعالي جبال يفرن وغريان وترهونة ليست لهـا أية فائدة ولا يعول عليها في الزراعة بالسهول .

وتعتمد الحياة الزراعية في طرابلس على نزول الأمطار في السهول وخاصة سهل قطيس والجينين وأودية المنحدر الشرقي الطويلة العريضة التي كانت بمثابة موارد لمخازن التموين عند الرومان التي ترويها سيول الأمطار الغزيرة والسيول المنجرة من هضاب خط تقسيم مياه المنحدرات الثلاثة المارة الذكر .

لا توجد أشجار في المناطق المرتفعة من سلسلة الجبال سوى أشجار الزيتون والتين وبعض الأشجار الأخرى في غريان وفي الأودية ذات السدود الباقية من عهد الرومان وبعض المناطق المحدودة من أودية جبل نفوسة ، ومن جهة أخرى فنظراً للآثار وبقايا السدود والقصور الخربة وأنقاضها في الهضاب الشاسعة التي في أعالي الامتداد الشمالي الشرقي لجبال ترهونة والنجود الخفيفة الميل والأودية المستوية الممتدة إلى أورفلة ـ تدل دلالة قاطعة على ماض عمراني زاهر في هذه المنطقة ، وأن عراءها وتجردها الحالي من الأشجار من الأسباب الرئيسية التي تحول دون نزول أمطار غزيرة نافعة فيها . زد على ذلك أنّ قلع الحلفـاء من جذورها التي تعد من موارد الرزق عند البدو قد ترك تلك الأرض جرداء كليا



وادي سوف الجين بين غريان ومزدة



وادي سوف الجين

وكانت الحلفاء توجد في السابق في منطقة تبدأ من طول ساحل الخمس في اتجاه الدواخل حتى الهضاب المرتفعة في ترهونة وأورفلة وشرقي جبال ترهونة ، ولكن التخريب الذي وقع الآن في هذه الساحة في عمق ٤٥ كيلومتراً من الساحل وعدم الاهتمام والإهمال من جانب الحكومة في المحافظة على هذه الثروة – لم يبق فيها من نبات الحلفاء شيئاً يذكر .

إن الرياح الجنوبية الآتية من الصحراء الكبرى الحارة الجهنمية المارة بنجود الحمادة الجافة لا تبقي أثراً للرطوبة في هضاب جبل نفوسة أثناء هبوبها . إن منطقة تقسيم المياه الجرداء هذه يجففها هذا وتزايد حرارة طبقات الهواء السفلية بفعل حرارة الشمس ـ تحول دون نزول الأمطار : وتستمر الرياح في تخريب سطح الأرض التي لم تحافظ على تماسك تربتها من الانهيار لعدم وجود النبات والشجر.

لنجاح الزراعة في طرابلس يجب إحداث غابات في الهضاب التي على خط تقسيم المياه لتكون عاملا في نزول الأمطار في فصولها أكثر من الاعتماد على حفر الآبار الارتوازية أو الاستفادة من منابع المياه الموجودة بطريقة فنية لأن الآبار والعيون فوائدها محلية ومحدودة .

كما يمكن زيادة الثروة العامة في البلاد التي أخذت في الانقراض وتلافي ذلك بما يصرف من جهد في الاهتمام بإحداث الغابات على سطوح الجبال الممتدة من نالوت الى مسلاتة ،وخصوصاً في الأراضي الواسعة التي بين ترهونة وأورفلة التي كانت موطناً للملايين من الأشجار المثمرة فى العهد الروماني القديم . ولكن مع الأسف الشديد وضع حكومتنا الحالي عاجز حتى عن إنقـاذ ما غرس من الأشجار حديثاً بقرب غابات الزيتون القديمة من فساد وعبث قطعان المعز .

* * *

إن الصخور البركانية التى تصادف في سلسلة الجبال عموماً ومنحدرات وادي سوف الجين والسفوح تدل دلالة واضحة بأن المنطقة الصحراوية التي بإقليم طرابلس قد تعرضت لثورات بركانية فى أزمنة ما قبل التاريخ .

بعد المرور من حافة جبل غريان الشديدة الانحدار إلى الهضاب ترى غابات الزيتون الخضراء في مجاري الأودية وأشجار التين بأوراقها الوارفة والظلال المنعشة الممدودة تحتها تكوّن فارقاً كبيراً بينها وبين قمم الجبال الصخرية الجافة.

مساكن غريان كلها تقريباً تحت الأرض إذا استثنينا بضع الحجرات المسماة بالمربوعة المبعثرة هنا وهناك بين أشجار الزيتون .

أكثر أهالي جبل نفوسة يسكنون بيوتاً تحت سطح الأرض وفي المغارات المنحوتة في الجبال.وتوجد البيوت المبنية في يفرن وغيرها من القرى حيث ترى المساكن على حافة الجروف الشديدة الانحدار وعلى القمم الصلدة وكأنها أعشاش الصقور متصلة ببعض في الجبال الوعرة اتقاء من الغارات التي تعرض لها الشمال الإفريقي في العصور الماضية وتسهيلاً لإمكانية الدفاع . والبربر في جبل نفوسة متعصبون في المحافظة على لغتهم وعاداتهم .

ومساكن غريان تحت سطح الأرض : بئر واسع عمقه خمسة أمتار وحجراته منحوتة في جدرانه ، وهناك خطر السقوط فيها على من يتجول ليلاً خلال هذه الديار من الغرباء .

عندما تدخل إلى حجرة من حجرات البيوت المحفورة من باب ضيق ترى جدرانها غير مستوية وبها آثار خلفتها الفؤوس أثناء النحت . وهي سوداء من دخان نار الحطب الذي يحرق شتاء للتدفئة ، وأبوابها محاطة باطار من النقوش والزخارف الغير المنتظمة ،والدخول لفناء هذه البيوت من الباب الخارجي يتم عن طريق انحدار معوج مغطى يشبه النفق . ويلتجىء السكان إلى هذه الحجرات لتوقي برد رياح الشمال الشديدة التي تلفح سلسلة الجبال شتاء وحرارة رياح الجنوب المحرقة صيفاً. وإذا استمر نزول الأمطار الغزيرة تتجمع المياه في أفنية هذه البيوت وتكتسح الحجرات ويخشى حتى من انهيار بعضها أحياناً .

●

بعد الخروج من ظلال غريان تستمر الطريق بميل جزئي قاطعـة المجاري

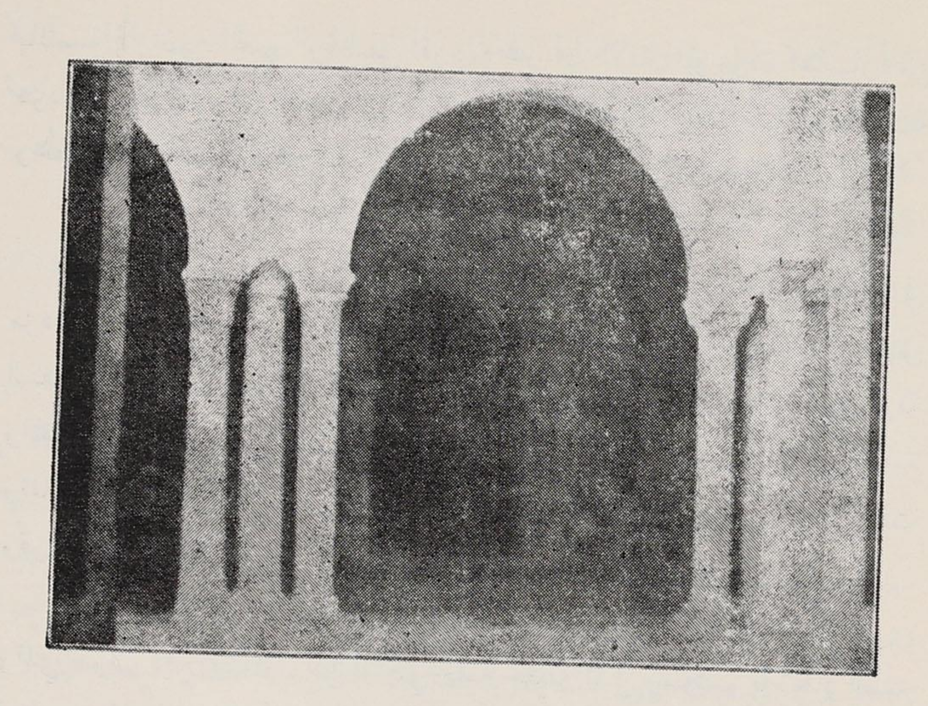
الصخرية لبضعة روافد تصب في وادي سوف الجين إلى أن تصل مزدة . وبعـد هضبة غريان يبدأ الفارق الحراري الذي تختص به الصحراء وهو التفاوت الكبير بين درجة حرارة النهار والليل، إن من ينام في شهر يوليو في هضبة « جندوبة » في المواقع العديمة الاشجار والنبات يضطر إلى غطاء سميك لاتقاء برد الليل .

ان الانحدارات الجبلية نحو وادي سوف الجين انحدارات خفيفة وتدريجية والروابي الواقعة على ضفتيه صخرية وخفيفة الميل حيث توجد قرية مزدة ومجراه متعرج ومكسو بالحجارة وغير صالح للزراعة في هذه المنطقة .

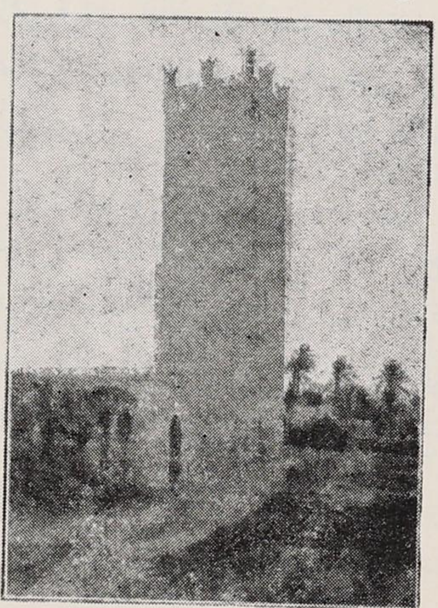
« ومزدة » قرية صغيرة بنيت بين أنقاض آثار رومانية . وبفضل طبقات المياه الجوفية على عمق ٤ إلى ٥ أمتار في مجاري الأودية نمت بضع مئات من النخيل وليس لها أهمية سوى أنها آخر مرحلة على طريق فزان في اقليم طرابلس ، سكانها قليلون ومعيشتهم نصف بدوية يقطنون بيوتاً صغيرة مبنية بالطين والحجارة .

تقل كثافة السكان تدريجياً من غريان إلى مزدة وبينما كثافـــة النفوس المنتشرة حول غابات زيتون غريان ٣ في كل كيلومتر مربع ففي الثلاثة أرباع من الأرض الصخرية غير المسكونة لا تصادف أحداً سوى بعض المسافرين .

وسكان مزدة لا فرق بـــين أحوال معيشتهم ومعيشة عربان شمال اقليم طرابلس بانضمام قبيلة أولاد أبي سيف التي تسكن فروع وادي مزدة وجبال الخدامية . ونظراً لامتداد المناطق الواسعة المعدودة من أراضي هذه الناحية ومساحتها الشاسعة فإن حصة الفرد الواحد من نفوسها أربعة كيلومترات وهكذا تستمر اقلية السكان تدريجياً من طرابلس إلى مزدة . واعتبـاراً من جنوب وادي زمزم وحتى فزان فإن الأراضي كلها غير مسكونة بكاملها وقياساً لكثافة النفوس في جوار مدينة طرابلس والسواحل الغربية والشرقية منها وتضاؤلها كلما نقترب من سرير الحمادة ـ يظهر لنا أن كل النشاط الاقتصادي لإقليم طرابلس يتمركز في سواحله والسهول القريبة منه وفي مناطق الأودية الكبرى .
ان الآبار بعد جبال غريان وإلى مزدة محدودة وقليلة ، لكن طبقات المياه



جامع أحمد باشا القره مانلي بطرابلس



مسجد في واحة طرابلس

بالنسبة لأراضي الجنين وقطيس أقرب، غير أن الآبار الموجودة اعتباراً من
مزدة إلى فروع وادي زمزم وإلى حدود الحمادة ماؤها به أملاح معدنية
وخصوصاً مركبات الكبريت مما يجعل شربها غير صالح إلا للضرورة .

●

ان الطريق التي تتجه من طرابلس إلى غات وفزان في خط واحد تفترق في
مزدة إلى ثلاث شعب وأسهلها الطريق الشرقية التي تمر من وادي بي والتي يتولى
السفر والنقليات فيها جمالة عربان الشاطىء، وهي التي يواظب عليها الحساونة
والمقارحة للمرور على منازلهم ومساكنهم. والطريقان الآخران تمران من الحمادة
وتفترقان بعد وادي الشاطىء في الوادي الغربي فتتجه قوافل السودان إلى غات
وقوافل برنو وشاد إلى المركز التجاري مرزق .

مجرى وادي زمزم محصور بين تلال صخرية منتصبة إلا أنه بالنسبة لمجرى
وادي سوف الجين متكون من أراضي لحقية خفيفة الميل ومكسو بأشجار الطلح
فيظهر بمنظر لطيف جميل . في السنوات التي تنزل فيها أمطار نافعة يغذي
بمراعيه ومزارعه مواشي قبائل أولاد أبي سيف والزنتان وتتكون في مجراه
السفلي مراتع غنية بأعشابها لحيوانات قبائل أورفلة ،ومزارعه تعطي محصولاً
وافراً بفضل المواد العضوية التي تجرها السيول من مسافات تبعد مئات
الكيلومترات .

عندما مررنا بوادي زمزم كانت شعبه وروافده الواسعة مليئة بالأعشاب
الخضراء وكانت قطعان الأغنام والابل منتشرة فيها مكونة لوحة جميلة المنظر
تحت سماء شهر تموز (يوليو) الزرقاء الصافية البراقة وتزيد في جمال المشهد روابي
ومنحدرات الوادي الشمالية الحمراء كستار فاصل بين زرقة السماء واخضرار
البطحاء .

طريق غات التجارية

بعد أن تقطع وادي زمزم تدخل سرير الحمادة الخالي من السكان

خلواً كاملاً قبل دخول الحمادة الحمراء . فالقوافل التي قطعت طرقاً لا
تقل على ٣٠٠ كيلومتر طولاً اجتازت عوارض طبيعية صعبة تحتاج إلى راحة
كافية في بئر الطابونية استعداداً لاقتحام الصحراء القاحلة المعدومة المياه وللتأهب
للسير السريع لقطعها وهذا البئر يقع في حدود الصحراء الشمالية .

توجد قريتان بجوار بئر الطابونية وعلى روافد وادي زمزم تسمى احداهما
القرية الشرقية والاخرى القرية الغربية .

يقطن في هاتين القريتين المبنيتين على أنقاض أثرية رومانية المقارحة من
عربان الشاطىء. ولقد تمكنت من زيارة القرية الغربية: وهي قرية صغيرة تحيط بها
اشجار نخيل كثيفة نمت بفضل طبقة المياه القريبة ونبع ماء صغير حوله
مستنقع يسبب وخامة لهوائها، وبقربها أبراج لنواضير أثرية أقسامها العلوية متهدمة
منهارة . وبينما نجد أكثر القرى في القسم الشمالي من اقليم طرابلس بنيت بجوار
آثار قرى رومانية نرى هذه القرية بمساكنها الكئيبة المنظر أقيمت على الآثار
نفسها . عندما تدخل من باب سور قديم مبني بالحجارة الكبيرة المنحوتة تمر بين
أكوام هذه الحجارة المتساقطة من الأبنية الرومانية الجسيمة ومن انقاض السور
هنا تتراءى لك قرية صغيرة بأزقتها الضيقة .

ان السور الروماني القديم قد تمكن من الاحتفاظ بجماله وانتظامه
وتغمره انقاض من الحجارة ومن بينها صور منقوشة تمثل الملائكة مما يستدل على
أن بناءه كان في العهد الروماني المسيحي .

وهناك سور يعلو ثلاثة أمتار بالنسبة لقواعد السور الروماني مبني بحجارة
صغيرة وبه مزاغل مما يدل على أن القرية الغربية لم تهمل بعد الفتح الإسلامي بل
زيد في تحصينها من قبل الفاتحين العرب من جديد. ان الآثار الرومانية التي ترى
بكثرة اعتباراً من غريان وتستمر إلى القرية الغربية تشاهد في أكثر الأحوال
على حواشي الأودية .

صادفتنا مقبرة قديمة في وادي مرصيت أحد روافد وادي زمزم بجوارها

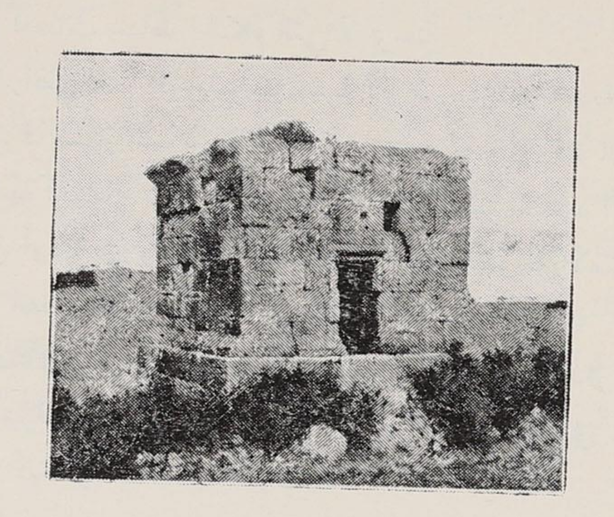
صهريج ردمته الأتربة وبقايا بناء صغير تجعلنا نحكم بأن الطريق التي كانت تسير فيها قوافل تجارة فزان وغات في زمن الرومان هي نفس الطريق اليوم .

زرت انا ورفيقي في الرحلة المستر فيشر هذه الآثار وشاهدنا لوحـــة نقش عليها صورة لنسر يحمل غزالاً في الجو وفي طرفي اللوحة ملائكة بيديها أكاليل مما يدل على أن هذه المباني انشئت في أواخر العهد الروماني. قال المستر «فيشر» وهو يتأمل في اللوحة المنقوشة : (النسور فنيت والغزلان لا زالت في أوطانها) يعني بذلك أن الغزاة انقرضوا وأهل الوطن باقون فيه .

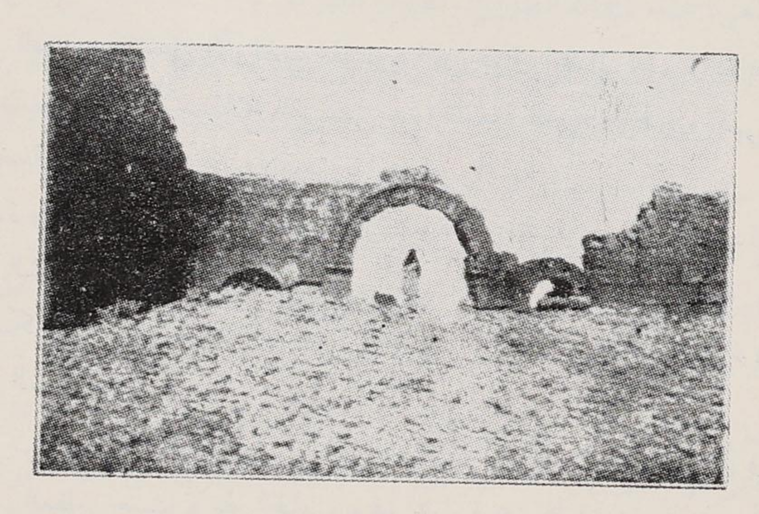
في وادي سوف الجين وزمزم مثل هذه المدافن وآثار القصور كثيرة. ولكن لا يوجد هناك ما يدل على حياة زراعية نشطة وطويلة المدى في هذه الأودية الواسعة كتلك التي تشاهد في مجاري الأودية العلوية على هضاب غريان وترهونـــة وفوق الجبال .

ان السدود المتدرجة التي أنشئت لتوقيف الرواسب الصالحة للزراعة التي تجرها سيول مجاري أودية ورفلة وترهونة وغريان ذات الانحدار الشديد العمودي لاحداث مزارع مستوية لا حاجة لانشائها في مجاري سوف الجـين وزمزم الخفيفة الانحدار .

إذا كانت بقايا المباني الضخمة والأقواس الكبيرة والاعمدة الرخامية العالية الغليظة في آثار المدن والقرى والمستعمرات التي تشاهد على طـول الساحـل الطرابلسي تتناسب مع عظمة الامبراطورية الرومانية التي فرضت على العالم الخضوع لحاكميتها فإن الآثار الزراعية والمزارع الممتدة التي تشاهد في الأودية المحصورة بآلاف السدود ابتداء من الخمس ومسلاتة إلى غريان وعلى سلسلة الجبال الباقية رغم حـوادث الزمـان عبر القـرون الخالية وخصـوصاً تلك التي على هضاب ترهونة وأورفلة ـلتشاهد على قوة ارادة المسئولين في ذلك العهد وعملهم الجبار . إن من يقف أمام المباني العظيمة ويشاهد آثار تلك الاعمال الإنشائية في سبيل الاصلاح الزراعي يستغرق في تخيل الماضي ويتصور آلاف العمـال من الأسرى كيف كانت تزهق أرواحهم في تكوينها تحت شمس إفريقيا المحرقة



من بقايا آثار روما



آثار رومانية في القرية الغربية

وهم يئنون تحت لفحات سياط الحكام التي لا ترحم .

ان أخصب أراضي اقليم طرابلس-بالنسبة لأراضي فزان المجدبة والتي تفصلها شمالاً الحمادة وشرقاً سرير السوداء -هي هضاب ترهونة وأورفلة التي كانت روما القديمة تعتمد عليها كمصدر كبير لإملاء مخازن مؤنها بفضل سدود الأودية المرتفعة وخاصة مجاري أودية بني وليد وسوف الجين السفلي الطويلة الامتداد والتي تجر الكثير من المواد العضوية الحاملة لرواسب قوية نافعة .

يدعي السكان أن الزرع في مجاري هذه الأودية الخفيفة الانحدار التي بالسهول الواقعة جنوب أورفلة تجود بمحصول يبلغ في سنوات الخصب إلى مائة وخمسين كيلة مقابل بذر كيلة واحدة من الحبوب .

الحمادة

إن صحراء الحمادة الحمراء ابتداء من غدامس في اتجاه الشرق طولها ٥٨٠ كيلومتراً وأعرض جهة فيها ٢٥٠ كيلومتراً وهي هضبة مرتفعة تغطيها حجارة صغيرة حمراء .

يطلق الفرنسيون على الأراضي المستوية التي فوق الجبال اسم (بلاطو)فإذا جاز لنا أن نتخذ من الاصطلاح الفرنسي هذا تسمية للحمادة الحمراء فهي كذلك إلا أنها هضبة جافة وكلها مجدبة مستوية جداً وواسعة .

فالحمادة وصحارى سرير بن عفين التي شرقها وسلسلة جبال السوداء ، هذه الصحارى الشاسعة الممتدة من الغرب الى الشرق عقيمة قاحلة بلا ماء وجرداء وصخرية يمكن اعتبارها بحراً جامداً يفصل بين إقليم طرابلس الجنوبي وبين إقليم فزان الشمالي .

إن مركز خط تجارة طرابلس – فزان الرئيسي على طريق وادي بي داخل هذا الفاصل العظيم حيث « بئر الحاد » وهو عبارة عن طبقة ماء موضعية وتجمع لمياه الأمطار بين الصخور في قعر الوادي ، لكن الجفاف الذي دام سنين عطل هذه البئر وأعاد لبحر الصخور طبيعته القاحلة .

وبسبب موقع بئر الحاد على طريق وادي بي فهو أسهل الطرق الرئيسية نحو فزان .

إن كثافة السكان التي تستمر في النقص من طرابلس إلى وادي زمزم تدريجياً تصل هنا إلى درجة الصفر تماماً. فكل الأراضي خالية وغير مسكونة إلى حدود فزان وهي صحراء هجرتها حتى الوحوش .

فالقوافل التي أخذت نصيباً من الراحة على بئر الطابونية وتتوغل في أعماق الحمادة الرهيبة تواجهها آفاق هذا البحر الجامد الذي لا نهاية له ، والسهول الحمراء الممتدة التي تلاحق تلك الآفاق تؤثر على رجال القوافل تأثيراً غريباً فتراهم مبهوتين .

تستمر القافلة في طريقها بعد بئر الطابونية بين شجيرات السدر لمسافة عشرة كيلومترات ثم تدخل صحراء شاسعة فتبدو كأنها سفينة في أحد البحار المحيطة.

عندما يكون القمر بدراً ينير الحمادة بنور خاص بها مسترق كلون الصدف اللامع ، ولقد قطعناها بسير حثيث متواصل في خمس ليال مقمرة من ليالي شهر يوليو يسامرنا غناء الجمالة الطويل كطول الطريق .

إن الإبل التي تسير تارة مجتمعة وأخرى متفرقة تحت أشعة النور المرتعش نحو آفاق الحمادة الملاصقة للسماء كآفاق المحيطات المشبعة بالأبخرة ترى من بعد وكأنها جزة سوداء رسمت على لوحة معدنية باهتة .

تسير الإبل صابرة لا تكترث بالمصاعب وتقلبات الطبيعة وتنظر لمن حولها نظرة هادئة تصوبها يمنة ويسرة وكأنها تلقي بنظرها الفلسفي هذا عليهم درساً في التجلد والقناعة وتحمل مشاق أسفار الصحراء .

بفضل المسالك التي تتجاوز العشرين والتي تارة تقترب وتارة تتباعد التي كونتها القوافل ذهاباً وإياباً عبر القرون لا تضل الطريق في ليلة مقمرة ، أما في الليالي المظلمة فإن النجوم المشعة المضيئة في سماء جافة صافية خاصة بالحمادة تساعد على تعيين الجهات بسهولة. ولكن من يتباعد عن هذه المسالك نحو الشرق

أو الغرب في النهار أكثر من الليل – وخصوصاً عندما تكون الشمس في قبة السماء– يكون عرضة لخطر الهلاك المحقق .

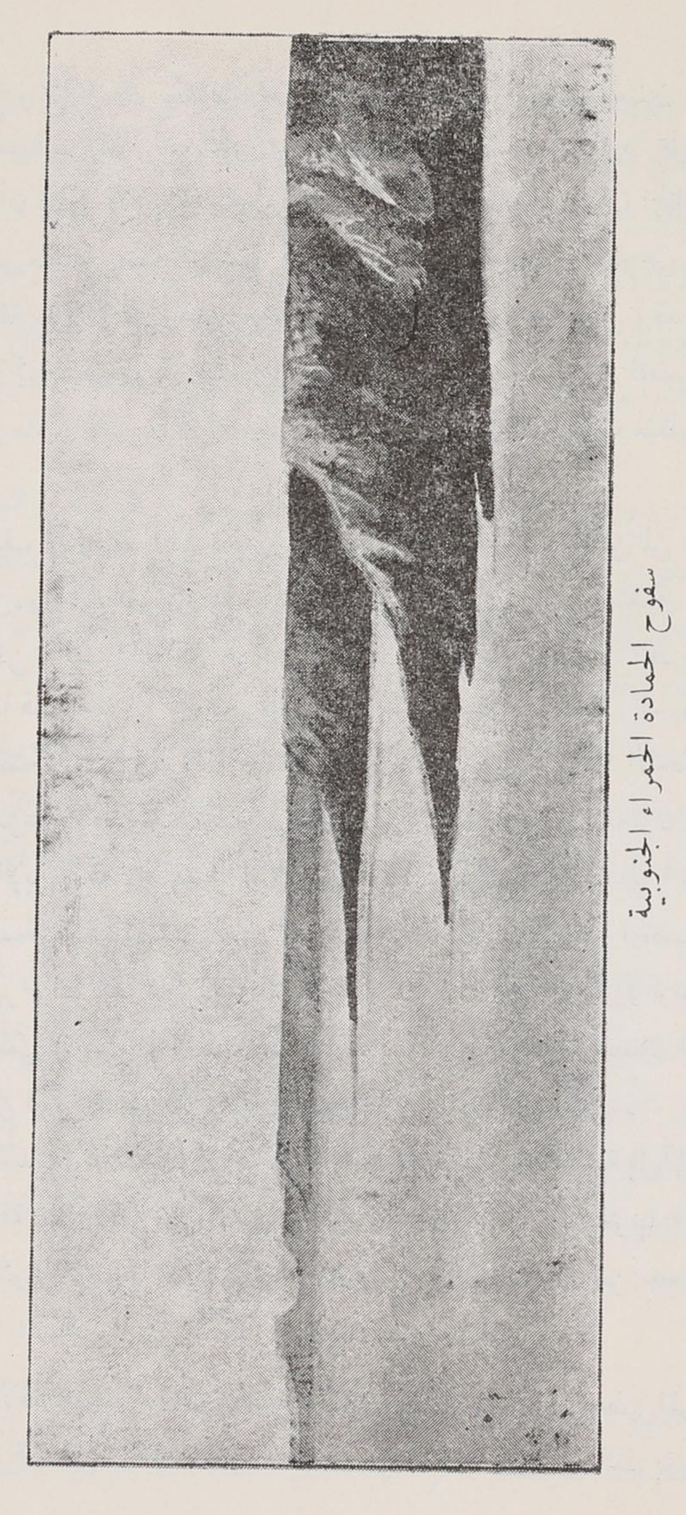
طرق الحمادة بعضها مستوية وبعض الجهات مرتفعة ارتفاعاً جزئياً حسب تموج سطحها .

تبدأ قافلتنا المسير قبل الغروب وتستمر حتى الفجر . إن تراب السرير الخشن والحجارة التي أحمتها حرارة الشمس نهاراً تبدأ في نشر حرارتها بسرعة فتتخلص منها نهائياً عند منتصف الليل وتبرد إلى آخر درجة من البرودة .

إن الذين يقطعون الطريق مشياً على الأقدام عقب الغروب يحسون بحرارة منبعثة من الأرض تصهر وجوههم ، ولكن بعد منتصف الليل حيث يفقد سطح الأرض حرارته فمن أراد أن يمتد على الرمال هنيهة لإراحة عضلاته وأعصابه المرهقة من سير الصحراء المديد لا يمكنه ذلك لشدة برودتها . إن هذه الظاهرة الطبيعية تشمل جميع الصحارى وذلك لجفاف طقسها وسرعة انتشار الحرارة من ذرات الرمال والحجارة ذات الزوايا المتعددة . ولأجل ذلك بعد سير متعب يقرب من ١١ إلى ١٢ ساعة ومع أشعة الفجر الأولى التي تتغلب على ضوء القمر تعمد القافلة إلى إناخة الإبل وفك حمولتها والإسراع في نصب الخيم قبل أن يحمى وجه الأرض بحرارة الشمس .

إن ظهور قرص الشمس وغيابه على خط الأفق المحمر الحاد يقع بسرعة وتقريباً بصورة مفاجئة ويكوّن هذا الشروق والغروب المفاجىء منظراً مهيباً غريباً .

إن منظر الحمادة الذي لا يتغير يرى نهاراً كدائرة حمراء واسعة ترسم محيطها الآفاق المتصلة بالسماء ، والسراب الواسع المستور بحجارة سوداء وأخرى حمراء والذي ليس فيه ما يجلب النظر يتعب الأعصاب ويؤثر على حاسة البصر لعدم وجود ما يستحق المشاهدة، ويسبب ثورتها أحياناً . ولكي يتخلص الإنسان من رؤية هذه المناظر القاسية يعمد لإغماض عينيه أو يستغرق في استعراض تخيلات



سفوح الحمادة الحمراء الجنوبية

من الماضي ويحاول أن يكون أعمى لا يرى شيئاً وهو مفتوح العينين .
من خصائص السراب الذي في هذه الصحراء الشاسعة وأثره على طبيعة الأبصار أن تظهر الأشياء أكبر من أصلها. وعلى سبيل المثال ان الجمل الذي يبعد عن الناظر مسافة خمسة أو ستة كيلومترات يرى حجمه و كأنه على بعد ثلاثمائة أو أربعمائة متر فقط؛ وهذه حالة يختص بها النهار وترى الإبل وقد امتد طولها وطول راكبيها فتبدو أرجلها طويلة رقيقة كخطوط منكسرة لقضيب منصوب على سطح ماء راكد يطول اعوجاجها إلى أسفل مشكلة بذلك منظراً سحرياً .

●

تصادف في وسط الحمادة قبور حزينة منفردة ، إنها مسكن لمن هلك عطشاً من العابرين. وتخشى القوافل هذه المنطقة المقفرة الظمأى والتي يستغرق قطعها خمسة أيام ولكن أكثر الهالكين هم الذين يفارقون القوافل ويضلون الطريق .

عندما قص علينا الجمالون ونحن نقطع هذه الفيافي أن هذه السهول الجرداء والتلال الصخرية ترى مزدانة بطبقة خضراء مزهرة في فصول الأمطار الغزيرة وتصبح مرعى لإبل عربان الشاطىء وينصبون خيامهم ويستغنون عن شرب الماء بلبن الإبل فيمضون فصل الربيع في هذه السهول بأكمله – لم أكد أصدق أن هذه الصحراء التي تصليها شمس الصيف المحرقة يكون بها هذا الخصب الربيعي .

في شهر يوليو كنا لا نجد ما يشبع إبلنا من الكلأ في الحمادة إلا نوعاً من العشب اليابس يسمى (نصي) ونطبخ طعامنا والشاي على بعض الأغصان اليابسة التي جمعناها من الأودية التي بقرب بئر الطابونية وحملناها على الإبل .

لا توجد أية علامة تذكر في هذا البحر المتجمد من الطابونية إلى آبار العوينات وهي مسافة ٢٥٠ كيلومتراً سوى أكوام من الحجارة التي يسمونها (الرجم) ، وهذه الأكوام المتقاربة التي يرتفع أعظمها إلى مترين تتكون من حجارة وضعها على بعضها المسافرون على شكل أهرامات غير منتظمة .

عند الاقتراب من حافة الحمادة الجنوبية تظهر في الأفق بعض المرتفعات في وسط السراب على شكل خطوط سوداء مرتعشة ، وتستمر الطريق في أرض

مستوية إلى الجنوب ثم تنحدر في أخاديد ملتوية إلى وادي العوينة . وطبقات المياه الجوفية في آبار العوينة كطبقات مياه زمزم وفروعه تحتوي على كميات كبيرة من الكبريت والأملاح الأخرى .

فمياه هذه الآبار لكثرة أملاحها ولقرب أفواهها من سطح الأرض تختلط بها الأتربة وروث الحيوانات وغيرها من المواد العضوية فتسبب لشاربها مغصاً في المعدة والامعاء، وخاصة إذا كان ممن لم يتعود على شربها . لذلك يجب غلي الماء وتصفيته .

بعد أن نودع حافة الحمادة الجنوبية تنقسم الطريق إلى فرعين : الغربي رملي والشرقي صخري وبالنسبة إلى الحمادة أصعب . وبعد قطع سرير امتداده ١٥٠ كيلومتراً نصل إلى وادي الشاطىء فالطريق الغربية توصل إلى أدري والشرقية إلى ونزريك وبرغن .

إن أجسامنا المتعبة من السير عبر الصحراء التي لا توجد فيها معمورة يشاهد فيها وجه إنسان ، وإبلنا التي فقدت طاقاتها بعد قطع آخر الطريق الصخري يعمهما انتعاش ونحن ندخل أرضاً رملية خفيفة الانحدار تنورها أشعة الفجر الصفراء .

عندما دخلنا نخيل قرية ونزريك وسمعنا صياح الديوك الآتي من القرية كان هذا الصوت مسلياً ومطرباً لا يمكن أن يتصور لحن ألطف منه وأجمل .

وبظهور الشمس من وراء الهضاب الرملية بكل عظمتها من بين أغصان النخيل الخضراء ملمعة بأشعتها الذهبية البلح الأصفر – ترى جميع أهل القافلة استولت عليهم علامات الانبساط والشوق وترى على وجوههم بشاشة كتلك التي ترى على وجوه من رجعوا إلى أوطانهم بعد فراق طويل .

★ ★ ★

يمتد وادي الشاطىء من الشرق إلى الغرب وجانباه محاطان بروابٍ قليلة الارتفاع جداً، والقسم الذي تزينه قرى عامرة مسكونة يمتد في طول قدره

١٦٠ كيلومتراً . ووجود واحـات وادي الشاطىء التي تبتدىء جنوب سفوح الحمادة مباشرة يرجع إلى المياه الجوفية التي توجد على عمق ضئيل جداً والينابيع الجارية القوية التي تروي الواحات ونخيلها . يقع هذا الوادي جنوب المنطقـة القاحلة التي بين إقليمي طرابلس وفزان ولا يعد من المنحدرات الجنوبية – أي منحدر السودان – لكنه يعود لا شك إلى الأمطار الغزيرة الطوفانية التي كانت الصحراء العقيمة المقفرة اليوم تنعم بها في أزمنة ما قبل التاريخ . وهو من أودية المنحدر الشمال الشرقي الذي ينتهي في خليج سرت .

وتقطن عربان الشاطىء في واحات حـــول الوادي كجزر متسلسلة على الوجه الآتي :

قرية ادري	عربان الزوائد	٩٠٠	نسمة
ونزريك	« القوايده	٥٠٠	«
برغن	« الحطمان والسهكة	١٣٠٠	«
الغوطة والقرضة	« الحساونة	١٢٠٠	«
براك والقرى المجاورة	« المقارحة	٣٠٠٠	«

هؤلاء هم عربان الشاطىء الذين يعدون عنصراً مهماً في صحراء ولاية طرابلس الغرب ، وجملة نفوسهم سبعة آلاف حسب أصح التقديرات .

من بين هذه الواحات المسكونة بخليط من العرب والأهالي المحليين واحـة أدري ، وهي قرية شهيرة بمياهها الجارية الغزيرة ، إلا أن الملاريا متوطنة فيها من المستنقعات التي أحدثتها العيون الكثيرة بها . في ونزريك وفي الواحات الأخرى الممتدة شرقها يوجد أكثر من خمسين عيناً جارية وخاصة في مركز قضاء الشاطىء « براك » حيث يوجد منبع يسمى العين الكبيرة ، والحقيقة أنها من أكبر عيون المياه في وادي الشاطىء .

كل مياه فزان وخاصة مياه العيون الجارية صالحة للشرب ، إلا أن الميـــاه المتجمعة في الأحواض الواسعة التي بقرب العيون تصبح غير صحيـة إذا بقيت



واحة في فزان

مدة طويلة فيها .

وأهالي الشاطىء يسكنون بيوتاً مبنية بعضها بالجير وبعضها بالطين وأكثر العربان يسكنون هذه البيوت إلا أنهم يعدون نصف بلديين لأنهم يقضون بضعة أشهر من السنة رعاة يرعون حيواناتهم في المراعي .

عندما مررنا بقرية ونزريك كان الفصل صيفاً والقسم الأعظم من سكانها مجتمعون في القرية . أهل ونزريك يقضون زمن الحر من النهار في بيوتهم أما في الليل فانهم يهجرونها خوفاً من العقارب الشديدة السم التي تجعل أعشاشاً لها في جحور الجدران وينامون في أكواخ من أغصان النخيل ، والبعض ينام في العراء فوق الرمال .

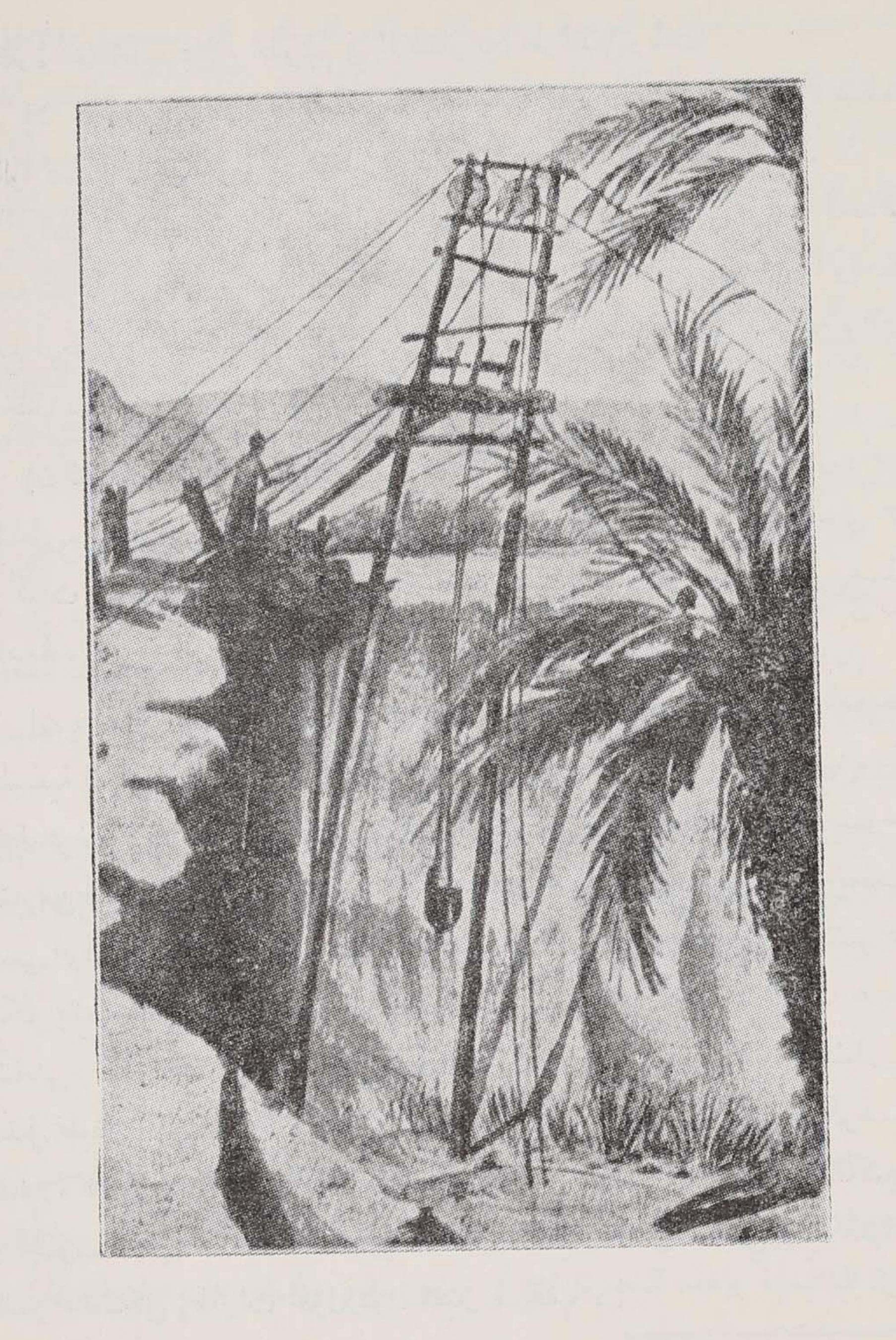
أكثر هذه القبائل نفوساً قبيلة المقارحة التي يقطن ثلاثة أرباعها الخيم بصورة مستديمة وهذه القبائل منذ أن دخل اقليم فزان تحت الحكم العثماني الثاني الفعلي صارت من الكول أوغلية وقبلوا الانخراط في الخدمة بناء على نفير عام واعتبروا من الجيش الأهلي المعاون الصحراوي ، وهم يقولون إنهم من أصل عربي أصيل جاؤوا من الشرق ويؤيدون ذلك بما تثبته شجرات الانساب التي لديهم .

ان الكول أوغلية الذين كانوا يشكلون القوة الدفاعية عن طرابلس في العهد العثماني الأول والذين كانوا أعواناً للقره مانليين يستنفرهم يوسف باشا واسلافه ويعتمدون عليهم في الدفاع ، أكثرهم خليط من الأتراك والعرب . وهذا الصنف من الأهالي الذي بقي في القسم الساحلي من ولاية طرابلس بصورة غير منتظمة وفي حالة فوضى ألغي في سنة ١٣١٨ ولكن كول أوغلية الشاطىء يختلفون عن كول أوغلية سواحل طرابلس حيث لم يعدوا من هذه الطائفة إلا بعد انضمامهم للقوة التأديبية التي كانت تحت قيادة حسن باشا البلغزي المكلف بالقضاء على زعيم قبيلة أولاد سليمان عبد الجليل الذي استولى على فزان واستقل بها ونهب أموالها. لذلك اعتبروا من الكول أوغلية . . خاصون بفزان ، واعفوا من التكاليف الأميرية (الضرائب) لكنهم من ذلك الوقت لم يقوموا بالخدمات التي

تعهدوا بتقديمها لحكومة فزان ولو مرة واحدة ، وبقوا مهملين . وإن التراخي الظاهر في إدارتنا واتباع المسلك القديم العقيم وهو تجنب القيل والقال ـ كان السبب لطغيان حفنة من الذين لا أهمية لهم من حيث القوة والمقدرة فصاروا لا يصغون لأوامر الحكومة ، حتى إنهم شرعوا في الاستهزاء والاستخفاف بالدولة واضعاف نفوذها كما استعملوا السلاح ضد العساكر بكل جرأة مرات عديدة .

وإن واقعة « التبو » التي حدثت سنة ١٣١٤ تبين ميلهم هذا بكل وضوح ، لقد أسندت لهؤلاء الكول أوغلية مهمة تأديب قبائل « التبو » الذين كانوا يتسلطون على القوافل ويقطعون الطرق ، فقاموا بمهاجمتهم في ديارهم واعتدوا على النساء والعجزة ونهبوا المواشي وسبوا الرجال والنساء رقيقاً ورجعوا إلى أوطانهم بهذه الغنائم ! ولاسترداد هذه المنهوبات منهم إلى أهلها اضطرت إدارة فزان أن تجرد قوة ضدهم في حملة أخرى .

وعموم عربان الشاطىء تقريباً جمالة يتولون نقل البضائع بين طرابلس ومراكز تجارة الصحراء مرزق وغات ومنها إلى برنو وكانو ، ذهاباً وإياباً .
ان الامتعة التجارية التي ترد إلى مرزق وغات أو تأتي منها باستثناء طريق غدامس ـ يتولون نقلها عربان الشاطىء الشرقي وخاصة المقارحة على طريق وادي بي التي تنفصل اعتباراً من شمال مزدة وغات ، وعلى طريق الحمادة الغربية يتولى النقل فيها عربان الشاطىء الغربي . فالمقارحة يتولون النقل من طرابلس إلى فزان وعربان الغرب يقومون بالنقل إلى غات . وحيث أن هذا السفر مسافاته طويلة فالتقليل من مشاقه يجعل زمنه خاضعاً للفصول ، فالبدوي لا يرغب في أسفار أيام الشتاء القصيرة لأنه في فصل الشتاء يتطلع إلى السحب فإذا نزلت الأمطار في أي مكان يسرع إليه بجماله ويترك حيواناته في المرعى إلى أن تهب رياح ابريل الساخنة . . وحينئذ تكون قد تقوت وسمنت فيشرع في البحث عن ما ينقله من الأشياء ليتحصل على اجرة يؤمن بها احتياجاته البيتية ويشتري الهدايا لأسرته من أسواق طرابلس ومرزق وغات .



أصول جذب الماء من الآبار في فزان

البدوي يرجح مشي الليل في فصل الصيف ويعبر عنه بـ(السروة) حتى يتسنى له رعي جمله في وقت القائلة نهاراً ويفضل ذلك على المشي في أيام الشتاء . وبناء على ذلك فان النقليات التي تبتـدىء اعتباراً من شهر ابريل تنتهي في أواسط الخريف ، وكل القوافل التي تسير ذهاباً وايابا بين طرابلس ومرزق وغات تقع أسفارها في هذه الفترة . وبهذه الطريقة فان الابل لا تقدر إلا على رحلة واحدة ذهاباً وإياباً أي انها تقطع الفي كيلومتر. لذلك فإن عربان الشاطىء الذين يصلون إلى طرابلس ويحملون الأمتعة التجارية منها يغيرون إبلهم التي أضعفتها الطريق عندما يصلون إلى أوطانهم بإبل أخرى ليقطعوا بها القسم الجنوبي من الطريق . والبدوي يفضل نقل أحمال الأمتعة التجارية المتعادلة في ثقلها والمربوطة بإحـكام على حمل المسافرين ، ذلك لأن اناخة الإبل ونهوضها لنزول المسافر وركوبـه في الطريق متعبة وتزعج الجمالين . وعربان الشاطىء يعتبرون متمدنين .

أما عربان الشاطىء الغربيون فهم أصحاب ثروة وبلديون وبالنسبة لغيرهم أذكى ويتصفون بالأخلاق الطيبة والسيرة الحسنة . وبما أنهم يتولون نقل البضائـع التجارية على طريق غات فقد عرفوا مكاسب تجارة السودان منذ عهد بعيد فبدأوا أولاً بالتجارة في غات ثم وسعوا محيط نشاطهم التجاري تدريجياً وفعلاً شرعوا في التجارة السودانية إلى «كانو». إن عربان الشاطىء الغربيين وخاصة القوائدة والحطمان يسافر الكثير منهم إلى السودان في كل سنة أو ينتدبون غيرهم لحمل البضائع إليها .

وعربان الشاطىء من ناحية الحياة والمعاشرة لا يختلفون عن عربان طرابلس الآخرين من حيث تشابه خيامهم المصنوعة من الشعر وقصاعهم الخشبية « وبازينهم » وملابس رجالهم وزي نسائهم ومواكب أعراسهم وألحان غنائهم وطرز احتفالاتهم مشابهة تماماً. وأنا آسف جداً لعدم تمكني من الإقامة لمدة طويلة في الشاطىء لاجراء تدقيقات وافية عن هؤلاء البدو إلا ان ما لاحظتـه عنهم أنهم كرماء ويستأنس بمعاشرتهم وانهم أكثر استعداداً من غيرهم للتمدن، وذلك

لكثرة اختلاطهم بمن يرافقونهم في الأسفار بين طرابلس وغات .

إن عربان الشاطىء وخاصة الحطمان والقوائدة إذا أُسعفوا بإدارة منظمة ونالوا قسطاً مما يحتاجونه من التعليم لا شك انهم سيصبحون أكثر تنوراً .

والطرق التجارية التي تقطع وادي الشاطىء تنقسم إلى فرعين أحدهما يتجه شرقاً إلى سبهة ومنها إلى مركز فزان: مرزق ، والثاني يتجه غرباً وبعد قطع أرض رملية شاسعة يصل إلى مرزق أيضاً ، ومنها طريق آخر من وادي الآجال يتجه غرباً إلى غات .

إن القوافل بعد أن تشق طريقها خلال السهول الرملية الشاسعة في وادي الشاطىء تستمر في سيرها في محاذاة انحدارات خفيفة حمراء داكنة تحتوي على مركبات حديدية وافرة وتمر بين تلال صغيرة من نفس اللون ثم تدخل رمالاً شاسعة .

إن هذه الرمال تتكون من أنقاض سلسلة جبال طحنتها تأثيرات العوامل الطبيعية الكونية التي لا تعرف الفتور في أزمنة ما قبل التاريخ فجعلتها رمالاً ناعمة عرضها ١٥٠ كيلومتر . في شمال حدود هذه الرمال كثبان رملية متموجة تمتد من الشرق إلى الغرب وموازية لوادي الشاطىء ما بينها أراض منخفضة سمى الوادي ..منبتة .وفي بعض أمكنة منها نجد نخيل « زلاّف » ينتشر على شكل بقع خضراء وسط الرمال الصفراء . وهذا النخيل الذي يملكه عربان الشاطىء عبارة عن أشجار حافظت على حياتها وسط الرمال وبين الكثبان بفضل طبقات المياه الجوفية القريبة جداً من سطح الأرض . إن أكوام الرمال الصغيرة التي ترى داخل زلاف وقبل الوصول إلى منطقة كثبان الرمال الكبيرة في الجنوب – ثابتة ، لأن أعشاش شتلات النخيل المتلاصقة التي تشبه القباب الخضراء تشكل إطارات تحول دون تغيير مواقعها .

بعد زلاف تتجه الطريق إلى الجنوب بين سلسلة من المرتفعات الرملية يزداد حجمها تدريجياً راسمة اعوجاجات وانحناءات ، حتى لا يمكن توجيه القافلة في

اتجاه معين باستعمال « البوصلة » أو تتبع آثار القوافل التي يستحيل بقاؤها في الرمال،فيتحتم على القوافل المرور من هذه المنطقة في ضوء النهار أو على نور القمر البراق الخاص بهذه النواحي . ويقص الجمالون بأن المغامرين الذين يصرون على قطع هذه المسافة في الليالي المظلمة لوحدهم وحتى لو كانوا من أهل الإقليم يتيهون في الرمال ويضلون الطريق بين التواءاتها وانحناءاتها ويفقدون حياتهم ثمناً لتهورهم ومجازفتهم .

للأراضي الرملية حالتان مختلفتان فالليل فيها له جمال سحري مليء بالأسرار. أما النهار فهو ممل وخاصة عندما تكون الشمس في قبة الفلك. ان اشعتها تتعب الأعصاب وتؤثر على جهاز الرؤية .

تمتد التلال الرملية في تسلسل ،منتظمة من الشرق إلى الغرب مما يدل على أن الرياح في هذه المنطقة تهب بانتظام من جهتي الشمال والجنوب بالتناوب .

إن سلسلة مرتفعات الرمال التي تكون ميلا خفيفاً وبتعبير أصح إن السفوح الشمالية لأكوام الرمال العظيمة منتصبة عمودياً وذات مهاوي عميقة ويقل انحدارها جنوباً بالتدريج لأن الرياح الجنوبية عامل قوي في ذلك .

وطبقات المياه الجوفية قريبة جداً في الأراضي الرملية كما ذكرت سابقاً ،حتى إن البحيرات : نطرونة وفردغة ونشنوشة وماندرة وغبروان ما هي إلا أقسام من تلك الطبقات الظاهرة على وجه الأرض.

بحيرة النطرون

وصلنا إلى بحيرة « نطرونة » ونخيلها بعد غروب الشمس وهي إحدى البحيرات التي يستخرج منها معدن النطرون [1] الذي يعد من أهم صادرات فزان الرئيسية وهذه البحيرة تقع في أسفل سفح سلسلة رمال عظيمة ترتفع من

(١) تحليل معدن النطرون (الطرونة) كما جاء في تقرير مأمور التحليل ببلدية طرابلس الغرب أحمد بن حسن بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٠٧

٨٠ إلى ١٠٠ متر. أما مساكن القرية فهي أكواخ من جريد النخل مصطفة في أعلى سفح الهضاب المنتصبة عمودياً. والأهالي القاطنون في الجهات الوعرة من الرمال والأكثر كثافة أي الرمال الممتدة من نطرونة إلى وادي الآجال — هم قبائل «الدوّادة».

هؤلاء يأكلون الدود المائي الأحمر الذي يستخرجونه من بحيرة غبروان التي هي أكبر البحيرات الخمس فيعجنونه مع التمور الخالية من النواة كما يبيعون هذا النوع من الدود المائي الجاف في أسواق مرزق حيث انه مرغوب لديهم ولذلك سموا بالدوادة. ان الدوّادة قوم معتدون إلى درجة التصدي لقتل المسافر إذا وجدوه وحده واستضعفوه، ومبتلون بشرب «اللاقبي». وبفعل غابات النخيل التي يملكونها، وتجارة «الدود»، فهم أغنى من قبائل فزان الأخرى.

بعد بحيرة النطرون تبدأ الطريق مارة بين سلسلة من كثبان الرمال التي تأخذ في الارتفاع وتغوص أرجل الابل والمشاة إلى الركبة في هذه الرمال راسمة خطوطاً منحنية في اتجاهها نحو الهضاب التي تعلو في أكثر الأمكنة من ٦٠-٨٠ متراً. وانحداراتها في الضفتين عمودية مكونة مهاوي وممرات عميقة فيضطر الجمالون في القافلة إلى المشي أمام الإبل التي تتبع بعضها مثنى وثلاث كنظام سير الجنود في الطابور. وبذلك يمهدون سطحاً مستوياً أفقياً يسهل مرور الإبل المتخلفة عليه. ثم تصبح الطريق في بعض الامكنة متسعة ومنتظمة بين ضفتين من الروابي مصانة من الرياح أرضها صلبة يسهل فيها السير. وفي هذه الممرات حفر عظيمة

بوتاس	٢٥ غرام و ٥٠ سانتغرام		في المائة غرام
حامض الازوت (آزوتيك)	٢٩ غرام و ٥٠ »		
آزوت	٩ » و ٣٠ »		
نترات البوتاس	١٥ » و ١٠ »		
كبريت البوتاس	٧ » و ٤٠ »		

المترجم

على شكل «محقن» أو فوهة بركان.

إن الهضبة الرملية المرتفعة التي في الجنوب ترى الجهة المواجهة منها في وقت العصر لامعة بأشعة الشمس كلون الذهب والجهة الأخرى لها ظل وارف في شكل هرم يطل بذروته على بحيرة «ماندارة» وعلى النخيل المتكاثف حولها فيظهر منظر البحيرة كمرآة براقة في اطار أخضر.

تمر الطريق في انحدار خفيف صلب نسبياً إلى أن تصل إلى سفوح الرمال الكائنة جنوبها، وإن قطع المسافة الباقية بين هذه الرمال لم يعد شاقاً بالنسبة للرحلة التي دامت ستة أيام بين الرمال واتعابها.

إن الهضاب العظيمة الرملية الواقعة جنوب البحيرة المشرفة عليها بانحدار عمودي تعلو في بعض الجهات إلى ١٥٠ متراً.

إن أشجار النخيل تغمرها رمال الصحراء برداء كثيف ولكثرة مهاجمة الرمال يغيب بعضها فلا تبقى إلا أغصانها ظاهرة فتبدو وكأنها بقع خضراء تغير لون الصحراء الرملي الموحد.

ترى مساكن الدوادة المصنوعة من أغصان النخيل على المهاوي في ارتفاع ٥٠ متر تقريباً من سطح البحيرة.

والدوادة كي لا يقدموا خدمة للقوافل التي يخشونها يختفون بين كثبان الرمال. عندما وصلنا إلى ماندارة لم نر أحداً من السكان، ثم لمحنا بضعة أشخاص بين النخيل، أما شيخ القرية فقد غاص في ماء البحيرة إلى رقبته.

ولقرب المياه الجوفية من سطح الأرض جداً في وادي الآجال بالنسبة لباقي أودية فزان فإن واحاته كثيرة وآباره متعددة. واعتباراً من ماندارة تبدأ منطقة موبوءة بمرض الملاريا فيظهر البعوض الذي ينقل جراثيم هذا المرض مما يحتم علينا اعتباراً من هنا وإلى مرزق تناول الشاي والقهوة من المنبهات بكثرة والدوام على بلع أقراص الكنين كل صباح.

بعد «ماندارة» وقطع الطريق القليلة الرمل والاعوجاج والصلبة تقريباً

وعندما تتسلل القافلة بين آخر الهضاب – تشاهد وادي الآجال وواحة «تكرتيبا» والمهاوي الصخرية التي تكون ضفة الوادي الجنوبية. كما تظهر للعيان الرمال المتجمعة على سفوح الصخور التي بالضفة الشمالية منه. ونظراً لهذه الطبقات الصخرية التي تغمر بعضها الرمال يتبين أن علو كثبان الرمال المتسلسلة التي مررنا بها بجوار نطرونة وماندارة ما هي إلا هضاب صخرية تكدست عليها الرمال. ويمكن الحكم بأن ارتفاع كثبان الرمال في فزان بالنسبة للرمال التي بجوار طرابلس يرجع إلى هذه الظاهرة. وان ارتفاع الرمال الشاسعة التي صادفتها في فزان وحوالي غات التي لا يتجاوز علو قممها الـ ٤٠ – ٥٠ متراً يؤيد الاعتقاد بأن كثبان رمال وادي الشاطىء التي تعلو إلى ١٥٠ متراً أحياناً هضاب صخرية ثابتة غطتها طبقة رملية جلبتها الرياح .

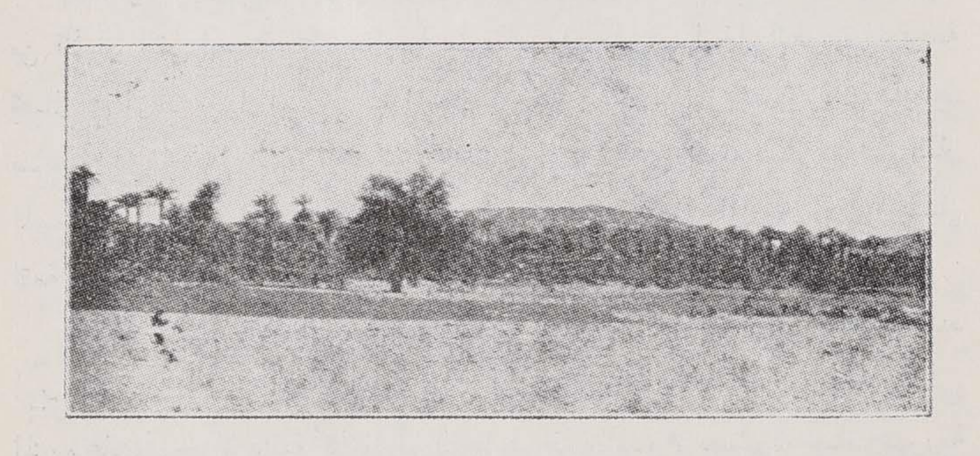
إن المسافرين الذين يهابون السير في أول الأمر في صحراء فزان وفي هذه الرمال الشاسعة يتبين لهم فيما بعد أن قطعها ليس شاقاً كقطع السرير الصخري والحمادة الحمراء غير أن ذرات الرمال التى تطيرها الرياح الصحراوية نهاراً مزعجة جداً ، وأحياناً ما تحول دون سير القافلة فتضطر إلى الوقوف تماماً في انتظار سكون العاصفة .

يوجد الماء والعشب لسد ما تتقوت به الإبل إن الأعشاب التي تنمو في المنخفضات وبين كثبان الرمال يمكنها القيام بواجب الضيافة لحيوانات القافلة المتعبة .

إن تسلط الرمال على منابع المياه الجارية وسطوح المياه كيفية تختص بها الصحراء، فأحواض عيون المياه والبحيرات المفتوحة تتراكم عليها الرمال. وحسب ثقلها تترسب في قعر البحيرات والأحواض فتصبح أكواماً فتملأها حتى تستوي بسطح الأرض. وبما أن الرمال التي استمدت الرطوبة من الطبقات السفلية المائية تصبح ثابتة لا تحركها الرياح فان ظهور بعض النباتات فوقها يزيد في قدرتها على الثبات. وهكذا تتغلب الرمال على المياه نهائياً فيتسلل الماء إلى منافذ أخرى في



وادي أبرجوش داخل حمادة مرزق وتارقيان



قرية تكرتيبا

الطبقات الأرضية الجانبية .

وادي الآجال الذي يقع بين كثبان الرمال شمالاً وهضبة حمادة مرزق جنوباً واسع وخصب جداً ومعمور بقراه المتعددة ونخيله الممتد إلى الشمال الشرقي .

وينقسم وادي الآجال من الناحية الادارية إلى مديريتين هما: مديرية الوادي الشرقي ومديرية الوادي الغربي. وبوجود طبقات المياه الجوفية على عمق أدناه متر وأقصاه أربعة أمتار تنتج مزارعه المتركبة تربتها من المواد الرسوبية محصولاً وافراً من القمح والذرة والقافولي (نوع من الذرة البيضاء).وهذه المزارع يقوم باعمارها الملاك صاحب الأرض والجباد وهو الفلاح. وحسب العرف والقاعدة المتبعتين بفزان في العمل وتقسيم المحصول ، فالجباد الذي لديه حيوان يخرج الماء بواسطته والفقراء الذين لا يملكون حيواناً يعتمدون على طاقاتهم البشرية رجالاً ونساء في إخراج الماء من الآبار..وبهذا الجهد والعناء يكون الوادي مستودعاً هاماً تعتمد عليه فزان في تموينها .

•

إن صوت غناءجبادة فزان الموزون وإخراجهم الماء مع النساء والأطفال من الآبار التي نصبت على جانبيها ساريتان من جذوع النخل الطويلة المربوطة بحبال في أوتاد حول البئر و كأنهما ساريتا سفينة كبيرة.. ومنظرهم وهم هابطين صاعدين فى الخندق ذي الانحدار الخفيف السهل الذي طوله يساوي عمق البئر المسمى « المرجع » أو « المجر » لمنظر يمثل العناء والكد بكل معانيه في سبيل لقمة العيش .

إن سكان وادي الآجال معروفون بتعدد الزوجات بين الفزانيين ،فلكل جباد أربع زوجات يعملن مع زوجهن من الصباح إلى المساء في إخراج الماء وسقي المزروعات في حركة دائبة كالنمل أو النحل في انسجام.وهم يعيشون حياة جمهورية لا خصام ولا نزاع .

إن المنظر العام للمساكن الواطية الخربة المبنية بالطين ومن حولها الأكواخ

المصنوعة من جريد النخل حزين وموحش .

قبل منع تجارة الرقيق كان وادي الآجال ممراً للقوافل التي ترد من مصر والتي تتوجه إلى أسواق نيجيريا وتومبوكتو ،كما كانت قوافل حجاج القبائل الإسلامية المتوطنة غربي الصحراء الكبرى تنهج نفس الطريق وهي متجهة إلى الأراضي المقدسة براً عن طريق مصر .

وبما أن تجارة الرقيق قد منعت تماماً والحجاج وجدوا لهم طرقاً بحرية سهلة أضحت هذه الطريق متروكة وخالية من الحركة .

إن القوافل التي تستريح في قرية تكرتيبا بوادي الآجال تقطع الوادي عرضاً في طريقها إلى مرزق فتصل إلى سفوح حمادة مرزق وتواصل سيرها في محاذاة مجاري السيول ثم تقطع « الثنية » ذات الميل الخفيف نسبياً إلى أن تصعد إلى سطح الحمادة .

هذه الحمادة الصغيرة بالنسبة إلى الحمادة الحمراء امتدادها أقل ومنظرها جميل بأشجار الاثل والطلح التي تصادف في مجاري الأودية ، وبانحداراتها السهلة وبمراعي أوديتها الواسعة التي تساعد في علف إبل القوافل .

بدأنا السير في الوادي في جو حار محصور بين ضفتيه اللتين أصلتهما شمس عشية حارة من شهر أغوسطو في الساعة الثامنة وبعد قطع « الثنية » الحلزونية الملتوية صادفتنا جذوع أشجار كبيرة متحجرة في طول ٨ إلى ١٠ متر وقطر متر ملقاة في أكوام جامدة على سفوح الهضاب . وتدل جذوع هذه الأشجار المتحجرة على ان هذه الصحاري القاحلة كانت قبل التحول الكبير الذي غير طبيعتها تغيراً كلياً وأودعها الآن لتصرف تخريب الرياح متنعمة بكثرة الأمطار والخصوبة وكان لها عهد سعادة في أزمنة ما قبل التاريخ . ومن حسن الصدف تمكنت فيما بعد من تعيين حدود هذه الغابات الشرقية والغربية تقريباً .فنظراً لبقايا آثار الأشجار المتحجرةالتي صادفتني جنوب تكرتيبا والانقاض والقطع المتحجرة التي في بعض مجاري الأودية إن هذه الغابات كانت تحتل مساحات من طرابلس

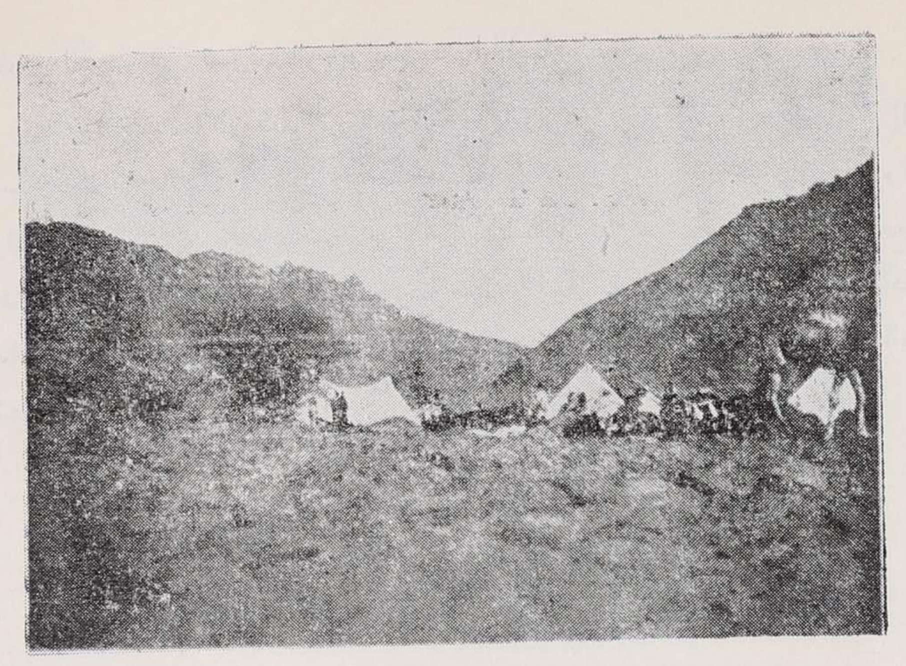
في امتداد ٣٥٠ كيلومتراً وأنها كانت تغطي منطقـة من سفوح حمادة مرزق الشمالية في امتداد غربي إلى سلسلة جبـال « مساق » وشرقاً إلى « سرير المعلا » .

بعد الصعود إلى سطح حمادة مرزق تستمر الطريق في اتجاهها نحو الجنوب الشرقي فتقطع مجرى وادي « انجارن » الواسع المغطى بأشجار الطلح الشائكة تعقبه أراض متموجة شاسعة تتعب الأنظار مشاهدتها مسافة ٣٠ كيلومتراً حيث تصل إلى نخيل « وادي عتبة » . وأثناء قطع تلك الأراضي المتموجـة ذات الانخفاض والارتفاع يشاهد نخيل وادي عتبة فجأة عند صعود المرتفعات كلوحة خيالية وسط سراب ، ثم تختفي فجأة عندما تكون القافلة هابطـة إلى المنخفضات .

يمتد نخيل وادي عتبة إلى مسافة غير قليلة بفضل مياه « ابرجوش » التى تنصب من السفوح الشرقية لسلسلة جبال مساق وفيضانها شرقـاً في السنوات الغزيرة الأمطار حيث تمتصها تربة مجرى الوادي فتكوّن طبقة مياه جوفيـة قريبة بعد أن تستقر المياه فوق طبقة صخرية .

يسكن هذه الواحة ويملك نخيلها فزانيون وبعض التوارق من قبيلة « كلاتين الكوم » قراصنة الصحراء ، وقد التقت قافلتنا بهؤلاء ذوي الخمارات السوداء لأول مرة في هذه الواحة .

إن وادي الشاطىء ووادي الآجال اللذين قطعناهما عرضاً نحو الجنوب بعد الحمادة الحمراء ووادي عتبة المتكون من امتداد وادي « ابرجوش » هي أودية عريضة كانت في الماضي مجرى لسيول الأمطار الكثيرة المتوالية تتجة كلها نحو منحدر خليج سرت.ويمكن الحكم بأن جميع الاودية التي تتجه إلى الشمال الشرقي وتمر شرقي جبال السوداء وتنتهي في خليج سرت كانت في الماضي البعيد مشتركة مشكـلة نهراً كبيراً . ويصعب الآن تعيين المجاري ولو تقريباً في بعض المناطق بفعل تقلبات الصحراء وتغلب الجفاف على الرطوبة وضياع المياه بالتبخر وامتلاء



داخل وادي مساق



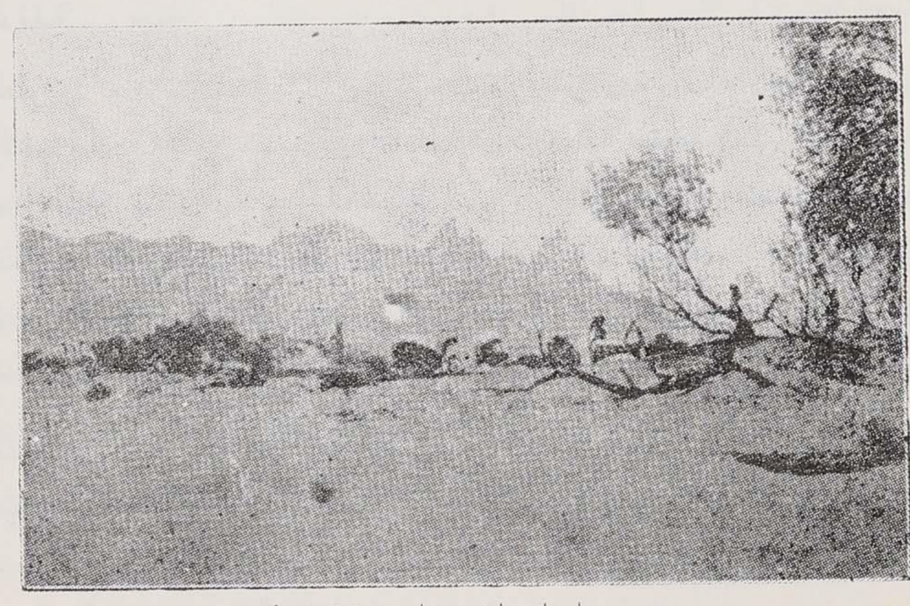
منابع العوينات

مجاري الأودية التي تسوقها الرياح الشديدة الخاصة بالصحراء .

بعد وادي عتبة تمر الطريق خلال رمال ومجموعات من النخيل فتدخل إلى واحة « أم الزرغان» الصغيرة، وبعدها بمسير ساعتين تصل إلى نخيل مركز لواء فزان– مرزق الذي يحيط بالبلدة من الشمال والشمال الشرقي على شكل هلال واسع . بعد قطع غابة النخيل هذه تظهر مدينة مرزق فوق ساحة رملية بمبانيها الرمادية الداكنة وقصر حكومتها العالي الباقي من عهد حكم أولاد محمد وسارية العلم المنصوبة على أعلى أبراجه .



ممر ايلاغلاغان في سلسلة جبال تادرارت



جبل اودان ووادي تينيزوفت

الطريق العامرة

كانت قوافل تجارة بورنو وتشاد تسير من القديم على طريق أورفلة ــ سوكنة وعلى خط المواصلات المارة من بلدة زويلة الواقعة شرقي فزان . وهـذه الطريق التي اتخذت لإيصال البريد إلى فزان منذ أن انتقل هذا الاقليم إلى الحكم العثماني الثاني المباشر ــ معروفة لدى السكان المحليين بالطريق العامرة .

وللقيام برحلة سريعة على هذه الطريق التي لها أهمية من ناحية أحوال فزان الطبيعية والادارية والتاريخيـــة أرجو قرائي أن يرجعوا معي بأنظارهم إلى الوراء قليلاً .

الطريق العامرة تبدأ اعتباراً من جنوب طرابلس وبعد قطع رمال الجفارة التي يشقها وادي المجينين تستمر في محاذاتها لأرض لحقية خفيفة الميل إلى سفوح جبال ترهونة . وتشاهد نفس المناظر في الطريق الجنوبية في ورشفانة وقطيس إلى جبل غريان عندما يصعد إلى جبال ترهونة والمرتفعات المشرفة على السهول ومجاري الأودية . والهضاب الواسعة ترى مشابهة لجبل نفوسة إلا أن صلاحية هضبة ترهونة لغرس الأشجار أعظم ومساحتها أكثر امتداداً .

تنبع من سفوح جبال ترهونة خمس عيون كبيرة فتقطع مياههـــا مجاري الأودية الصخرية ذات الانحدار العمودي المحصورة بين ضفتين من المرتفعـات ، وعند وصولها إلى سطح السهـــل تترسب فتغيب في التربة وتجري تحت سطح الأرض في اتجاه الرمال مكوّنة وادي الرمل وتصب في البحر .

وأكبر مثال سيىء مؤلم للاهمال خلو هذه الأراضي بروابيها المستوية وأوديتها الواسعة من العمران .

وترينا الآثار الرومانية التي نصادفها في كل خطوة وبقايا السدود في الأودية أن الأراضي الخصبة التي كانت تعتمد عليها مخازن التموين الرومانية تبدأ من هنا وتستمر في اتجاه الجنوب الشرقي .

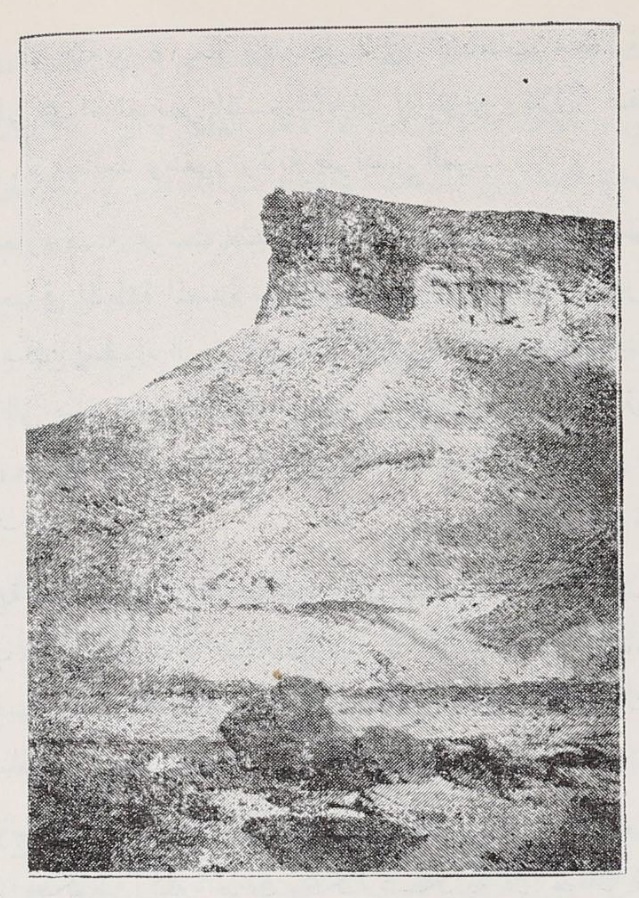
ويحكي المواطنون فيما يحكون ــ نقـلاً عن أجدادهم ــ أن القوافل في زمن « الجاهلية »[١] كان لا يفارقها الظل وهي تقطع الطريق في هضاب ترهونـة وأورفلة وما بينهما من القرى العامرة .

هذه المناطق التي كانت مغطاة بغابات الزيتون لا يوجد فيهـا اليوم سوى بعض مجموعات صغيرة من أشجار الزيتون واللوز المبعثرة هنا وهناك. وحتى هذه الأشجار تعجز حكومتنا في المحافظة عليها من تسلط قطعان المعز مما يزيد في عدم تشجيع الأهالي على الغرس الجديد .

محاصيل هضبة ترهونة في الحالة الحاضرة القمح والشعير، وهي أكثر المحلات إنتاجاً للعنب في القطر الطرابلسي ، وسكانها بدو يقطنون الخيام ويعتمدون في معيشتهم على تربية المواشي ونقل نبات الحلفاء وبيعها في طرابلس .

والطريق العامرة بعد الصعود الى هضبة ترهونة تستمر ما بين سفوح الجبال الشديدة الانحدار الملتوية وشعاب الأودية الضيقة الصخرية ثم خلال تلال مبعثرة منفردة في اتجاه وادي بني وليد، فتقطع مجاري وادي غاسلة الواسعة حيث تلتقي ثلاث طرق تصل طرابلس ببني وليد وتمر موحدة مـا بين هضاب مستوية فتصل إلى وادي ووكرة . وإلى هنا لا تفارقنا آثار القصور وبقايا السدود في الأودية وترع المياه . وينبت بهذه الهضاب المستوية القمم نبات الحلفاء . وبعـد الخروج من وادي ووكرة وقطعه وسرير قصير تدخل إلى وادي غلبون ثم وادي دينار .

(١) زمن الجاهلية : قبل ظهور الاسلام .



طرز تشكل جبال الصحراء



الجبل الجنوبي ايدينين

تبقى سلسلة جبال ترهونة خلفنا كستار أزرق كثيف يحجب الآفاق، وبعد أن تسير الطريق في وادي دينار العريض الخفيف الانحدار المتدرج في كل مائة متر درجة .. تمتد إلى ٢٠ كيلومتراً تشق الطريق اتجاهها بين صفتين صخريتين وتقطع واديين صغيرين كائنين في هذه الأراضي الوعرة هما قصراوة وتاوتانت وتدخل إلى وادي بني وليد الكبير .

إن الأراضي خصبة جداً على طول وادي دينار بفضل بقايا السدود الباقية من العهد الروماني وما تجلبه السيول من المواد الرسوبية ، ولكن لم نشاهد في هذه المنطقة غير بعض الأشجار المبعثرة هنا وهناك ونبات السدر ونبات الحلفاء التي آلت إلى الانقراض لقلعها من جذورها .

إن خراب البلاد وإهمال الأراضي لا يرجع إلى العهد العثماني . لقد شاهدت هذه البلاد منذ عهد القرطاجيين محتلين عديدين ومرت عليها عهود انقلابات وثورات رهيبة كثيرة ، وحلها الخراب أخيراً تحت حكم وظلم ملوك الطوائف وجبروتهم وضغطهم . ولقد وجدت الدولة العثمانية هذه الممالك على هذا الحال ، وذنبها مع الأسف هو إبقاؤها على حالها الخرابي طيلة ثلاثة قرون وربع .

هذه الطريق بعد هبوطها من منحنيات آخر السفوح الصخرية تمر تحت أشجار زيتون وادي بني وليد المتكاثفة قاطعة مهاوي السفوح الشرقية وتدخل قرية بني وليد الخربة المنظر من طريق معوجة واسعة . وهذه الطريق تسهل لسكان البلدة الصعود والنزول حتى الوادي للتزود بما يحتاجونه من الماء . يقول الورفليون انها من آثار حسنات « مادموازيل تيني » إحدى رحالي الصحراء[١].

وادي بني وليد محاط بمرتفعات عمودية الانحدار وأقصى اتساع له في الموقع

---

(١) مادموازيل تيني رحالة هولندية قتلت مع من كان معها من رفاق ونهبت قافلتها من طرف التوارق في ١ أغسطس ١٨٦٩ في وادي ارجوش على مسير يومين غربي مرزق .

المبني فيه قصر أورفلة ١٥٠٠ متر ويمتد طوله في اتجاهات منحنية إلى عشرين كيلومتراً تغطي مجراه العريض المتسع أشجار الزيتون وتلال ضفتيه المزينتين قرى صغيرة . وهو يعد بوسفور ولاية طرابلس الغرب .

أكثر أشجاره قديمة غرست منذ قرون في ساحات تتخللها جسور متدرجة . وبما أنه لا توجد في المنطقة الممتدة من ترهونة إلى أورفلة مياه جارية ولا حتى آبار فإنه لا يمكن إسقاء الزيتون في وادي بني وليد بواسطة الآبار القليلة الموجودة فيه التي يبلغ عمقها ٧٥ متراً. لهذه الأسباب فإن أشجار زيتون الوادي التي تعتمد على سيول الأمطار الآتية من هضاب ترهونة ينقص محصولها في سنوات الجفاف .

إن الأودية الداخلة في منطقة الانحدارات الشمالية الشرقية التي تكون أغنى وأخصب منطقة في ولاية طرابلس الغرب تحتاج إلى فيضانات المياه ، والشرط الرئيسي لجلب الأمطار إليها هو التشجير وإحداث الغابات في جوارها وفي جميع هضاب جبل نفوسة .

بعد الخروج من قرية أورفلة التي هي عبارة عن بيوت صغيرة مبنية بالحجارة السوداء وقصر حكومي كبير خرب وثكنة عسكرية هي مركز قضاء أورفلة المترامي الأطراف – تمر الطريق العامرة أولاً من مرتفعات عريضة صخرية محاذية لمنقلب ماء ذي انحدار عمودي في وادي « غوبين » ، وبعده تشق روابي ممتدة وتدخل وادي « ميمون » . هذان الواديان لا يخلوان من الأشجار ومزارعها شاسعة وتوجد فيها آثار قديمة كثيرة . بعد وادي ميمون تستمر الطريق وسط سهل صلب وتهبط في انحدارات خفيفة إلى وادي «سوف الجين» وبما أن هذا القسم الأسفل منه عريض جداً في اتساع يبلغ خمسة كيلومترات ومجراه مستو – فإن السيول التي تجلب المواد الرسوبية القوية جداً تنتشر فيه وتعمه بكل سهولة . وبعد نزوح السيول تتهافت القبائل للحرث فيه .

تشاهد على طول ضفتي هذا الوادي أشجار السدر والجداري كخطوط

خضراء مرتعشة من بعد بتأثير السراب ثم تغيب في زرقة الأفق الشمالي .

بعد وادي « سوف » تترك الطريق قمة « القلعة » التي يرشح ماء منبع القطار من سفحها الصخري المنتصب وتقطع مسافة عشرين كيلومتراً في ساحات مستوية عريضة فتصل إلى سلسلة جبال « دور الواعر » .

إن الانحدارات الشمالية الشرقية لهذه الجبال تكوّن وادي « نفد » ، وانحداراتها الجنوبية الشرقية تكوّن شعب وادي « زمزم » ، ومما يثبت أن وادي « نفد » كان إحدى نواحي طرابلس الأكثر عمراناً وجود الآثار المتعددة التي أمكنها البقاء حتى الآن، وهو بآباره الكثيرة ومزارعه الواسعة أكثر عمراناً وسكاناً بالنسبة للأودية الأخرى .

من وادي نفد وإلى وادي زمزم تبدو الروابي والهضاب الخفيفة الانحدار وشعب ضفتي أودية الجهتين والظلال الوارفة التي تأوي إليها قطعان الغزلان في امتداد ٥٠ كيلومتراً في منظر لطيف للغاية يسر الناظرين .

وللنزول إلى وادي زمزم تنطلق الطريق من هذه الشعب محاذية «وادي بلم».

وادي زمزم كوادي سوف الجين معروف بمزارعه ومراعيه الشاسعة وتسكنه قبائل أورفلة، وتقطع الطريق المجرى السفلي لهذا الوادي مارة بجوار بئر «طويلة العسل» الذي عمقه ٥٠ متراً الباقي من العهد الروماني . إن الآبار التي تصادف اعتباراً من أورفلة ذات عمق كبير يخرج منها الماء بواسطة الإبل .

إن منظر شباب البدو وهم يخرجون الماء بواسطة الإبل نازلين صاعدين ببطء في خندق خفيف الانحدار ، والكهول والشيوخ الغارقين في أحاديثهم حول البئر ، والإبل التي تركض وتتزاحم متدافعة نحو الأحواض الطويلة العريضة للشرب ، وقطعان الغنم من المعز والضأن المنتشرة من بعد في واد واسع بصحراء ساكنة هادئة – يجلب النظر . إن الآبار في الصحراء أو في بلدانها تشكل مراكز تجمع عند البدو ومنبعاً لنشر وإعلان الأخبار ونقلها .

ووادي زمزم جميل وكثير الاخضرار ومزارعه شاسعة ومن أخصب أودية

تتغير مناظر الطريق العامرة بعد وادي زمزم بلون الصحراء الجرداء . بعد بئر « طويلة العسل » الكائن في سفح تل منفرد تسير القافلة مسافة عشرة كيلومترات في سهول جرداء مستوية ثم تقطع عوارض « جبل الدخلة » وتمر من وادي « سبيط » و « أم الغربال » المستورين بشجيرات السدر الضعيفة ثم تدخل وادي بي الكبير الذي يكوّن مجرى عرضه سبعة كيلومترات في الجهة التي تشقها الطريق العامرة . إن وادي بي المحروم من رطوبة الطقس التي تتمتع بها الأراضي القريبة من الساحل مجاريه عارية وأشجاره قليلة ومتباعدة.. ومع هذا يعد من المزارع الهامة في سنوات الفيضانات التي تسببها أمطار الجنوب النادرة الهطول وتأتي تربته بمحاصيل وافرة .

اعتباراً من زمزم توجد الأملاح المعدنية في مياه الآبار فتزداد ملوحتها باستمرار إلى أن تدخل القافلة إقليم فزان .

إن الآبار في طريق الحمادة الحمراء أو في الطريق العامرة التي في منطقة البركانية-أي قبل دخول المنطقة القاحلة الجافة-طبقاتها المعدنية من جنس واحد . لذلك فإن طبقات المياه الجوفية الممتدة من الغرب إلى الشرق مشبعة بالكبريت والمنغنيز ولا تشرب إلا بصعوبة . بعد أن تقطع القافلة في اتجاهها نحو الجنوب أراضي « بي الخائب » الجرداء القاحلة مسافة ٤٠ كيلومتراً تصل إلى قرية « أبي نجيم » آخر قرية عامرة لقبائل أورفلة في الجنوب . ويزعم الوطنيون أن وادي « بي الخائب » مجمع لجمع سيول الأمطار اعتباراً من « برنو » في أقصى الجنوب . والحال أن « بي الخائب » ليس إلا وادياً واسعاً وجافاً يوصل مياه الأمطار التي تصب نادراً في منطقة في حدود ٥٠ كيلومتراً إلى وادي بي الكبير .

* * *

أبو نجيم

قرية أبي نجيم قرية صغيرة وسط سهل شاسع تضم ما يقارب المائة نخلة وثلاثين بيتاً ويتكون سوقها من حانوت بقال واحد كل رأسماله صندوق كبير من الشاي الأخضر و كيس من سكر الرؤوس وبضع علب من الشمع ومثلها من الكبريت . وحيث أن هذه حالة جميع حوانيت القرى على الطريق فإن الرحالين في الصحراء يتحتم عليهم وهم يتجهون نحو الجنوب حمل جميع لوازمهم السفرية معهم .

إن قرية أبي نجيم بأكواخها التي أحدثت لتكون موقعاً لتبادل البريد الآتي من فزان والمرسل إليها - ليست مكاناً لائقاً لاستراحة القوافل ، ومع هذا فإن القوافل التي قطعت مسافة خمسة أيام من قرية أورفلة في أودية ، مقتحمة مرتفعات الأودية الصخرية - تدخلها مسرورة ولا تنكر ترحيبها بمائها المالح جزئياً ونخيلها وصياح ديوكها .

بعد الخروج من قرية أبي نجيم التي هي آخر حدود أورفلة الجنوبية تدخل القافلة إلى الصحارى التي تسكنها قبيلة أولاد سليمان التي اضطرت الدولة العثمانية في حكمها الثاني إلى التنكيل بهم وعربان سوكنة ورياح ، ثم تتذوق القافلة ماء بئر الكلايا المنزوي بين كثبان رمال مبعثرة وتقطع ٦٠ كيلومتراً ما بين الكثبان المنفردة والأودية الصغيرة ومجاريها إلى أن تصل إلى ممر جبال توزيست الضيق في الجنوب . ثم تدخل سريراً واسعاً مجمعاً لمياه الوادي المسمى « زمام » الذي ينتهي في خليج سرت . إن ارتفاع سلسلة جبال توزيست وهضبتي خرمة المحلة والخيمة وغيرهما من الهضاب المنفردة لا يتجاوز ٥٠ متراً إلا أن أعاليها مستوية تشبه الحمادة ، وخصوصاً منظر جبال توزيست بسفوحه الحادة وأخاديده وجوانب خطوط انقلاب مياهه التي تشبه صفحة صخرية قطعت بصورة غير منتظمة . بعد قطع هذه الجبال تشاهد جبال أخرى أقل ارتفاعاً تسمى جبال


منظر عام لجبال تادرارت

(شعب غورد) . أما في الغرب فتقترب الطريق في اتجاهها نحو الجنوب الشرقي إلى جبل « أبي طبل » وتستمر في السرير الذي يجمع مياه وادي زمام ووادي الحاد فتغوص داخل سلاسل صخرية متقاربة . بعد وادي الحاد يتغير وضع جبل أبي طبل إلى رواب منفردة تمر الطريق خلالها وتصل إلى بئرين معروفين بثمد المالح وثمد القطار ماؤهما مرّ لا يستسيغه الفم .

إن الأملاح المعدنية الكثيرة جداً في هذه الآبار تجعل مياهها غير صالحة للشرب ومع حالتها هذه لا تؤثر في البدو المتعودين على شربها ولا تسبب لهم الإسهال .

بعد أن تخلف القافلة وراءها هذين البئرين تحاذي الطريق أودية ضيقة خضراء بالمراعي وأشجار الطلح ، وأخيراً من الموقع الذي تكون فيه جبال هون مضيقاً وتدخل إلى سهل الجفرة . وهذا السهل المحاط جانباه بجبال ، تشاهد في اتجاهه الجنوبي منبع عين الحمام وأكوام الرمال التي بجواره ومجموعات من أشجار النخيل المتباعد وبلدة سوكنة ، وفي أقصاها شبح جبال « السوداء » التي تحجب الأفق الجنوبي بستار أزرق داكن كثيف .

وعين الحمام أبرز مثال لتسلط الرمال على مناهل المياه الجارية في الصحراء ، إن هذه العين التي ينبع ماؤها في الوقت الحاضر في دائرة قطرها متر وينفذ من كثيب رمل يعلو على سطح السهل بخمسة عشر متراً ويجري قدر ثلاثين متراً ويغيب بين الرمال لا شك أن نبعانها قبل أن تهاجمها الرمال وتغلبها كان أقوى وأشد وكان جريانها لمسافات أبعد .

تتراكم الرمال فوق العين بفعل الرياح ويزداد ثقلها عندما تبتل بالماء وتتماسك ذراتها فتصبح ثابتة لا تحركها الرياح بل تضيف إليها طبقات أخرى من الرمال فتحاصر منبع الماء وتتغلب على نفوذه. ورغماً عن أن منابع المياه التي صادفتها في أقصى الجنوب قد تغلبت عليها الرمال الثابتة كلياً بما نبت فوقها من أعشاب فإن عين الحمام استطاعت قهر طبقات الرمال التي تراكمت عليها ونفذ ماؤها

وسال إلى مسافة ٣٠ متراً .

لا يمكن إلا أن أبدي أسفي لعدم الاستفادة من هذه العين الغزيرة الماء ومحافظتها بالوسائل الفنية لإحداث جنان وبساتين حولها حتى تكون واحة خضراء تغير منظر المنطقة الحالي القاحل .

سوكنة

تقع هذه البلدة وسط سهل واسع متشكل من رمال طينية يعرف بسهل الجفرة الذى يمتد شرقاً وجهاته الثلاث الأخرى محاطة بجبال .

هذا السهل بما فيه سوكنة وواحتا هون وودان التي كانت في إبان دخول ولاية طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني المباشر ميداناً لصولات عبد الجليل الذي دمر نواحي فزان . ولكن أهالي سوكنة امتنعوا من تقديم الطاعة إليه حينئذ فحاصرها مع أتباعه. وبما أنه لم يقدر على احتلال البلدة فقد عمد على تدمير كل النخيل الذي يملكه أهالي سوكنة في واحات الجفرة وكان أول مسبب في حالتها الحاضرة من الخراب .

إن بلدة سوكنة التي عدّت استسلامها لهذا الطاغية كبلدان فزان الأخرى عاراً ، بلدة في وسط السهل يحيط بها سور به سبعة أبواب محصن بثلاثة وثلاثين برجاً على شكل هندسي ذي سبعة أضلاع وتضم في الحالة الحاضرة ألفي نسمة . ولوقوعها على طريق تجارة برنو في القرون الأولى الذى يمر على خط زويله — القطرون — فلا بد أن تكون معروفة منذ ذلك العهد البعيد . كما كانت عامرة في الوقت الذي كانت فيه التجارة بين فزان وبرنو زاهرة .

أهالي سوكنة معروفون بالنشاط والذكاء والعمل، يحترفون التجارة ،وأكثر تجار السودان أنجبتهم هذه البلدة ، وإلى الآن يتنافس أهالي سوكنة مع أهالي هون في تجارة برنو .

إن وجود خمسة مساجد ومدرستين ابتدائيتين داخل أسوارها دلالة قاطعة

على أن أهلها كانوا حائزين على نصيب من التمدن من القديم ويتمتعون بمستوى لا بأس به من السعادة وقسط من الثقافة . ولسوكنة صناعتها التقليدية الخاصة بها فأحذيتها المزركشة بالحرير والفضة وأرديتها الصوفية الرفيعة تنافس بها غيرها من البلدان الليبية .

بعد زوال تجارة برنو استولى عليها الفتور كبلدان فزان الأخرى ، وبقاؤها اليوم يعتمد على نخيلها الذي خارج البلدة وعلى التجارة المحلية المحدودة بين مدن الساحل وفزان والقرى الصحراوية المجاورة . وبما أن سقوط الأمطار في هذه الجهات نادر فيعتمد في فلاحة البساتين على ماء الآبار . إن ماء الجفرة على عمق ٣ إلى ٥ أمتار وتسقى بساتينها على الطريقة الطرابلسية وتنمو فيها كل أنواع الخضر وأشجار النخيل الكثيرة وبعض أشجار الفواكه .

إن قلة عدد البساتين لا يرجع إلى كسل السكان ، بل السبب الرئيسي في ذلك هو انقطاع مرور قوافل التجار التي كانت أحد العوامل في وجود بلدان الصحراء وعمرانها . ويؤيد هذه النظرية كل سكان سوكنة . إن منظر البلدة بأبواب سورها الكبيرة المصنوعة من خشب النخيل وأزقتها الضيقة يشبه بلدان فزان، إلا أن أبنيتها على طراز متوسط بين نمط المدن الساحلية والقرى الفزانية فبيوتها مبنية بحجارة منحوتة ومطلية وسقفها من خشب النخيل .

أصل أهالي سوكنة بربر كسكان جبل نفوسة وغدامس وإلى الآن يتكلمون بلهجة بها كثير من المفردات التي ينطق بها التوارق التي يرجع أصلها إلى اللغة البربرية القديمة المسماة « تاماهاغ » أو « تاماجاك » .

بعد التوجه من سوكنة نحو الجنوب وإلى الوصول إلى « جبال السوداء » تقطع الطريق وسط نخيل سوكنة الجنوبي ثم تترك « حطية [1] تين زيكار » في

(١) الحطية هي الواحات أو غابات النخيل غير المسكونة .

يمينها وتحاذي سهلاً مسافة ١٥ كيلومتراً وتدخل لوادي « قطيفة » وتستمر في انحناءات لا تحصى مسافة ٢٠ كيلومتراً في صعود تدريجي حتى تنتهي إلى بئر القطيفي وهو البئر الذي يقع في الحدود الشمالية لمنطقة عديمة المياه تمتد مسافة ١٩٠ كيلومتراً . بعد هذا البئر الذي يقع على ارتفاع ٢٠٠ متر من سهل الجفرة تستمر الطريق في اعوجاجاتها محاذية لمجرى وادي « غويرة رياح » الصخري فتصل إلى « ظهرة المؤمن » في أعالي « جبل السوداء » .

ورغماً على أن المنظر العمومي لهذه الأودية بالمهاوي والتشكلات الطينية التي على السفوح ذات الانحدار العمودي والصخور السوداء البركانية التي على المرتفعات والحجارة الكبيرة والصغيرة المنتشرة في مجاري السيول – موحش ، فإن أشجار الطلح وبعض الحشائش تزيل قسماً من وحشته .

إن «ظهرة المؤمن» ارتفاعها ٤٠٠ متر عن سطح الجفرة ، وهذا المرتفع الذي عرضه ثلاثة كيلومترات يمتد إلى الشرق وإلى الجنوب الغربي إلى أقصى ما يصل إليه البصر ، وهو بقممه العمودية التي على شكل مخروط ناقص مثل « غارة تاسكو » و « وركان » وجبل« الكحلة » ويشبه منظر براكين منطفية. وكل هذا السطح المرتفع مغطى بطبقة من الحجارة البركانيـة السوداء جداً ، وتحت هذه الحجارة المتناثرة من الصخور بفعل العوامل الطبيعية طبقة طينيـة حمراء ، وفي بعض الأماكن تشاهد طبقات كلسية بيضاء تجلب النظر في ساحات سوداء .

عند النزول إلى وادي « المزيرعات » من سفوح ظهرة المؤمن ، وهو الواد الجاف الذي لا يسقط فيه المطر إلا نادراً – تشاهد أكوام من الحجارة السوداء التي تدحرجت من سفوح جبال السوداء . لقد حاولت إدارة فزان حفر بئر في هذا الوادي للتهوين على الذين يقطعون هذه المنطقة العديمة المياه فلم يلق تشبثها نجاحاً واستمر الحفر إلى عمق ٦٠ متراً فلم يعثر على الماء وترك المشروع .

بعد أن تقطع الطريق آخر سفوح جبال السوداء تمر بين تلين : القاف الشرقي



وادي تامليت في سلسلة جبال مساق

والقاف الغربي [١] ثم تتركهما وراءهـا وتدخل إلى صحراء « سرير بن عفين » الذي هو نظراً لصحراء الحمادة متعب ، وتستمر الطريق وسط سرير بن عفين الذي هو كبحر جامد إلى الرملة الكبيرة .

وأما القسم الثاني وحتى الرملة الصغيرة التي تشكل الحد الجنوبي من السرير فهو متسع ورماله خفيفة الى أن ينتهي في بئر (قنير). وهذه الصحراء المستوية استواء الماء الراكد بها محطات للقوافل وضعت لها أسماء حسب الوقائع التي وقعت فيها ولكن في الحقيقة لم يوجد فيها ما يستحق الذكر . إن الجهة التي بهـا بئر قنير لجفافها في كثير من فصول السنة منطقة قاحلة ، وهي عبـارة عن واد شاسع تحده جنوباً قرية أم العبيد التي كانت في العهود القديمة محطة لتجار الرقيق ،وأصل القرى العامرة تبتدىء من « زيغان » الواقعة ٢٠ كيلومتراً جنوب أم العبيد ولا تنقطع إلى سبهة وتمر الطريق في قرى وحطايا . وهذه القرى بيوتها مبنية بالطين وهي زيغان وسمنو وتمنهند وسبهة إلا أن سبهة أهمهـا حيث كانت في الماضي مركزاً لحكم عبد الجليل وقاوم فيها العساكر العثمانية وسببت الحروب خرابها وهي إلى الآن محتفظة بآثاره .

ومن جهة أخرى فإن سبهة لها أهمية تاريخية لوقوعها على طريق القوافـل الواردة من مصر عن طريق جالو وأوجلة وزلة القاصدة السودان الغربي . بعد هذا المنزل تمر الطريق بين هضاب منفردة محاذية لوادي البيبان وتقطع سرير المعلا وتدخل آخر مرحلة للوصول إلى مركز فزان – مرزق ، وهي نخيل قرية غدوة . وبعد المرور جنوب النخيل الذى يحيط بالقرية التي لا يتجاوز عدد بيوتها المبنية بالطين الخمسين . وإلى حدود بساتين مرزق تقطع القافلة سريراً صخرياً في امتداد ٧٠ كيلومتراً وعندما تصل إلى قرية (شكوه) الضعيف يشاهد النخيل الذى يحيط بالقسم الشمالي من مدينة مرزق في نصف دائرة كخط كثيف في الأفق .

(١) ربما تحريف من كلمة كهف .

مناظر فزان عامة والفزانيون

إن القسم الجنوبي من المنطقة القاحلة الممتدة من الغرب اعتباراً من تونس في اتجاه الشرق إلى ساحل خليج سرت يعرف بفزان، ويختلف هـذا الإقليم عن إقليم طرابلس الشمالي في تشكلاته الطبيعية ومناخه وجنس وأصل سكانه .

إن المنحدرات المائية لسلسلة جبال الأطلس المحاذية لساحـل تونس تتجه جنوباً وتدخل أراضي طرابلس، وتنخفض منحدراتها تدريجياً في اتجاه الجنوب الشرقي وتمتد على شكل هضبة شاسعة . وتستمر في اتساعها بانحراف قليل نحو الجنوب اعتباراً من غدامس مكونة الحمادة الحمراء التي طولها ٥٨٠ كيلومتراً ، والمنطقة التي يطلق عليها اسم فزان تقع جنوبها وجنوب سلسلة جبال السوداء . وتعتبر الحمادة عند السكان منطقة محايدة بين الاقليمين (طرابلس – فزان) .

إن الهضاب المرتفعـة الصلبة المغطاة بقطع الحجارة ، والسرير الواسع المليء بقطع الحجارة والصخور و كثبان الرمال الكثيفة المتجمعة في مناطق معينـة المتنقلة ببطء،والساحات الشاسعة الرملية.. وبين ذلك كله آثار الأودية الواسعة الباقية التي أحدثتها الأمطار الطوفانية في عهود ما قبل التاريخ ، والواحات التي خصبها يحير العقول في الأماكن التي طبقات مياهها الجوفية قريبة-تشكل المنظر العام لإقليم فزان .

إن الرياح والعواصف التي تعد من عوامـل وجود الصحارى تهب بشدة مستمرة، لدرجة أنها تحمل حتى الحصباء المنتشرة على سطح الحمادة والسرير مع ذرات الرمال فتشاهد وهي تتراكض وتتدحرج إلى حيث تدفعهـا التيارات فتتجمع حول أول عارضة من العوارض التي تصادفها .

وتعتبر الرياح السريعة والعواصف الشديدة التي تهب يومياً في فصل الصيف والتي يتغير اتجاهها بضع مرات أحياناً ـ من أكبر أسباب وجود الصحراء الكبرى والموجبة لاتساعها .

والرياح الشديدة في فصل الصيف شيء تختص به الصحارى ، ذلك لأنه عندما تبتدىء الشمس بصهر الأرض وتتفاوت درجة الحرارة بانعكاس أشعتها ـ تسبب انبساطاً في طبقات الهواء وبالتالي هبوب الرياح الشديدة والتيارات المزعجة ولكنها تسكن مساء عند حلول الليل .

والأمطار في فزان نادرة جداً ولا تهطل بغزارة إلا مرة كل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة وتنحصر في منطقة محدودة إلا أنها إذا حل ميعادها نزلت بشدة وفي ظرف بضع دقائق ، فيتجمع الماء بسرعة على سطح الحمادة الصخري مكوّناً سيولاً جارية نحو الأودية الواسعة وبعد برهة تفيض وتطغى . وتقلع كل ما تصادفه في طريقها وتنتهي إلى أراضي السرير وينتشر الماء كبحيرة شاسعة يملأ الأراضي المنحطة . وماء هذه الأمطار الغزيرة تمتصه الطبقات الترابية بسرعة ويتجمع تحت سطح الأرض عندما تصادفه الطبقات الصلبة فيكوّن المياه الجوفية التي تستمد منها واحات فزان الخضراء حياتها ونمو نخيلها المرتفع نحو السماء .

إن الأودية الثلاثة الكبيرة الواقعة بين منحدرات الحمادة الحمراء الجنوبية وحمادة مرزق الواقعة جنوب سلسلة جبال السوداء وغربي سلسلة تادارات وبين جبال تاسيلي التي تسكنها توارق « آزغر » تتجه الأودية المذكورة أولاً إلى الشرق ثم تأخذ اتجاهاً نحو الشمال الشرقي ومجموع السهول التي تكونها تشكل القسم الصالح للزراعة في إقليم فزان .

وهذه الأودية كما ذكرنا في البحث الأول هي من أودية منحدرات مياه البحر الأبيض المتوسط وتنتهي في خليج سرت . أما الأودية التي هي غربي سلسلة تادارات حيث أراضي التوارق فهي تتجه للشمال الغربي ثم إلى الشمال وهي روافد وادي إيغار غار الكبير ومن منحدرات مياه البحر المتوسط أيضاً وتصب في خليج قابس .

إن المجموعة الجبلية التي تقع في جنوب فزان تتحد في أقصى الجنوب وتنتهي في جبال « تومّو » وهكذا تفرق بين منحدر البحر الأبيض المتوسط وبـين منحدر السودان .

أهم أودية فزان وادي الشاطىء حيث توجد قرى مسكونة على طوله البالغ ١٦٠ كيلومتراً مسكونة وبه من النخيل بما في ذلك نخيل رمال زلاف ١٨٠ ألف نخلة . ولكن وادي الآجال الذي لم يزرع بما يناسب قدرته الإنباتية لا توجد فيه إلا ١٦٠ ألف نخلة . وفي قريتي الجفرة والشرقية ٢٠٠ ألف نخلة وحوالي مدينة مرزق ٦٠ ألف نخلة وفي سبهة ٧٥ ألفاً وفي سمنو ٤٠ ألفاً وفي وادي عتبـة ٦٠ ألفاً وناحية القطرون ١٠٠ ألف ومجموعها ٨٧٥ ألف نخلة .

وفي الجفرة التابعة لمتصرفية فزان « هون وودان وسوكنة » ١٣٠ ألف نخلة وفي ناحية زلة وحدها ١٢٠ ألف وفي بلدة غات وتوابعها ٥٠ ألف نخلة وهذا ثابت بموجب الاحصاء والتعداد الواقع أخيراً .

ولأسباب تناقص السكان الذي سيوضح فيما بعد أهمـل الكثير من الأشجار كما أن أودية كثيرة يمكنها أن تستوعب ثلاثة أضعاف العدد المذكور من النخيل لا زالت خالية .

إن هذه الشجرة المباركة الثمينة التي هي زينة الصحراء تؤدي واجباً مدنياً مهماً في حياة فزان الاجتماعية ، ففضلاً عن ثمارها لا يوجد فيها قسم لا يصلح لشيء : من جذوعها تصنع الأعمدة والقناطر ومن خشبها يصنع ما يصنع من الأخشاب في البلاد الأخرى كالأبواب والشبابيك ، ومن أغصانها « الجريد » زيادة عن استعمالها كالحطب تقام بها الأكواخ والحواجز في الأجنة والبساتين ، ومن سعفها الزنابيل

والسلال والمراوح ومن ليفها الحبال .

والرطب يؤكل طرياً ويخزن في مطامير تحت الرمال سنة أو سنتين أو أكثر ويبقى جافاً لا يتغير . والنوى علف للحيوانات .

وغير هذه الفوائد يستخرج منها نوع من المشروبات اللذيذة تسمى « لاقبي » إذا تخمرت تصبح مسكرة .

إن فصل نضوج البلح في فزان يختلف حسب أنواعه ويمكن تحديده من ابتداء شهر يوليو إلى شهر سبتمبر . وتتعدد أنواع الرطب في فزان والجفرة بالنسبة إلى زمن نضوجه أو كمية المواد السكرية التي يحتوي عليها أو شكله الخارجي وحق تفاوت المدة التي يمكن الاحتفاظ به جافاً ـ وباعتبار هذه الفوارق في الأوصاف يوجد ٧٥ نوعاً من النخيل لمحصول كل منها اسم خاص .

ولادخار التمر في المطامير يطرح على أرض رملية نظيفة في الشمس حتى يجف.

والتمر رغماً عن أنه عنصر غذائي مفيد إلا أنه وحده لا يمكن أن يعوض الجسم بما يلزمه من عناصر ، لذلك فإن أهل القرى يضيفون إلى غذائهم الحبوب والخضر أما البوادي فيستعينون بلبن الإبل واللحم . والتمر يسبب تسوس الأسنان وخرابها لذلك ترى الأسنان الطاحنة عند عموم الفزانيين تقريباً مفقودة .

بفضل مياه الآبار القليلة العمق وتحت ظلال النخيل ينمو القمح والشعير والقافولي (الذرة البيضاء) والقافولي الأصفر (الذرة الصفراء) والقرعة والبدنجال والملوخية وجميع الخضر والعنب وغيره من الفواكه ، كما تصادف بعض الأشجار التي جلبت من السودان .

ونظراً لسجلات الأعشار التي بين أيدينا فإن حاصلات الحبوب السنوية هي على الوجه الآتي تقريباً :

١٠٨٤٠ كيلة قمح[١]

(١) كيلة القمح الاسطنبولية = ٣٢ كيلوغرام .

٤٦٤٠ كيلة شعير[١]

٨٨٢٠ » قافولي (ذرة)[٢]

إن هذه الأرقام القريبة جداً من كميات المحصول تدل دلالة واضحة على أن محصول القمح يفوق محصول الشعير بعكس مزارع إقليم طرابلس التي محصولها من الشعير يفوق محصول القمح أضعافاً مضاعفة .

القسم الأعظم من سكان فزان بدو يسكنون الخيام ونفوسها غير مسجلة ويقدر عدد سكان القرى والواحات بخمسة وعشرين ألف نسمة وبالنظر إلى محصول الحبوب فان مايصيب الشخص الواحد من الحبوب دون الكيلة الواحدة في السنة (أي عشرين أقة) ما يعادل ٣٠ كيلوغراماً، وهذا دلالة على درجة فقر البلاد. ولولا محاصيل التمور التي تجود بها نخيل فزان الذي يزين واحاته لما أمكن إدامة الحياة البشرية في ذلك الإقليم الشاسع الأطراف .

بغض النظر عن الفارق الكلي والجزئي بين بعض الأودية فإن نباتها الذي يتحمل جفاف الصحراء ويمكنه الحياة من كل النواحي من جنس واحد . تنمو في أودية فزان الأشجار الضعيفة مثل الطلح والاثل والسبط[٣] والآفول[٤] والحاد[٥] والصويد[٦] والنباتات التي تعلفها الإبل والرتم[٧] والجداري[٨]

(١) كيلة الشعير الاسطنبولية ٢٤ كيلوغراماً

(٢) » القافولي » ٢٨ »

(٣) Arthratherum Pugeus

(٤) Alhagi Maurorum

(٥) Cornulea Manacantha

(٦) Sualda Fruticosa

(٧) Retma

(٨) Colatrapis Procera

وهي ولو انها تتجدد حياتها بقليل أو كثير من المطر فلا تحافظ على اخضرارها إلا في فصل الربيع ، أما في شهور الصيف الحارة المحرقة فلا تشاهد إلا جذورها اليابسة . ولا يوجد في أودية فزان النبات المسمّى آفالالا (فالزلز) الشديد السموم الذي يوجد في أودية جبال تاسيلي وخاصة في جوار غات. وهناك شجرة تسمى (كرد) خشبها صلب متين وترى نادراً في المناطق التي طبقات مياهها الجوفية قريبة .

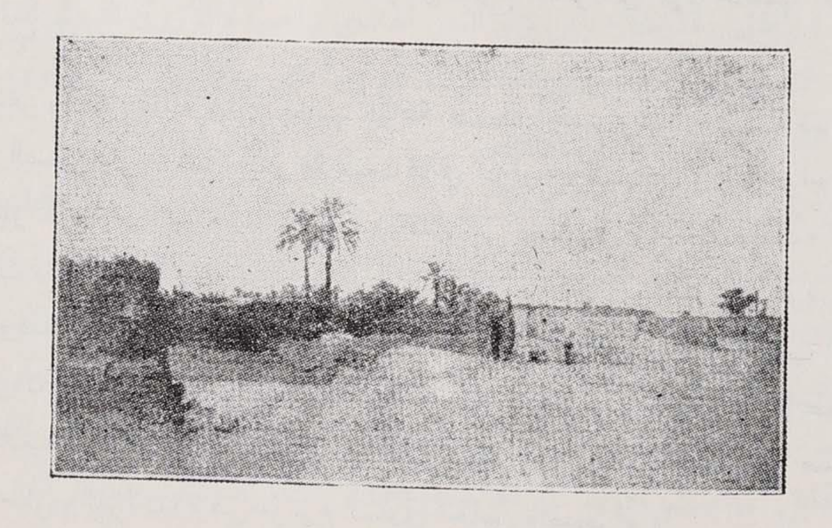
الحيوانات المتوحشة في فزان محدودة النوع وقليلة العدد ، ومن هـذا النوع الغزال والريم التي لا تحتاج في حياتها إلى الماء بل تستمده من عصارة العشب وأغصان الأشجار ، وبقر الوحش وغيرها تعيش في الأراضي الرمليـة وفي الأراضي المنخفضة بين سلاسل الجبال .ويوجد الودان (معز الجبال) في وهاد جبال مساق وتاسيلي المرتفعة وبين صخور الأودية ، أما النعام والزرافة والفيلة التي كانت في الأزمنة التاريخية الأولى تعيش في شمال إفريقيا فقد انقرضت وليس لها وجود . ويوجد في فزان الثعلب العادي وثعلب الرمال (فينك) ولا توجد حيوانات مفترسة مثل الأسود والنمور . وتوجـد الأفاعي ذات السم الشديد والعقارب وتشاهد في الأودية وفي الأراضي الرملية .

الحيوانات الأهلية في فزان محدودة باستثناء المراعي التي بين جبال السوداء والهاروج ، فلعدم وجود مراعي واسعة يمكنها إعاشة أعداد كبيرة من الإبل فلا تشاهد في إقليم فزان قطعان الإبل . وتوجد الجمال والهجين لدى التجار وأصحاب المصالح فقط، والضأن قليل أما المعز والدجاج فهو يفوق عدده على جميع الحيوانات الأهلية .

الإبل في فزان نوعان، نوع يختص به الشمال وآخر يختص به الجنوب، جمال الشمال ارتفاعها قليل رقبتها قصيرة وغليظة ورأسها كبير ووبرها طويل يستر جلدها شتاء . أما إبل الجنوب فأطرافها رقيقة وطويلة ورأسها صغير .وقطعان الإبل التي يملكها التوارق الذين يسكنون أودية جبال تاسيلي وتادرارت كلها من



قافلة السودان



سور مرزق ومدخل باب الكبير

هذا الجنس . إلا أن الإبل التي من نوع « كلاوي » وتعيش في المناطـــق التي في أقصى الجنوب جلدها مجرد من الوبر كليا ولا يمكنها مقاومة برد الشتاء في فزان وغات وهذا النوع من الإبل إذا عاش في فزان سنة أو أكثر ينبت على جـــلده الوبر ويمكنه مقاومة الطقس الشتائي .

التوارق يختارون من الإبل لحمل الأثقال ما كانت قصيرة القامة وضيقـــة الصدر ويسمونها (باهول)، وأما الهجين الخاص للركوب فهو أيضاً من نفس الجنس إلا أنها تروض على الركوب ويختار منها التي تتصف بطول قوائمهـــا وتناسب أعضائها وطول الفخذ عن الساق وسعة الصـدر. ولا فرق يذكر بين هجين التوارقوهجين قبائل التبو.الهجن أحسن مركوب في الأراضي الصحراوية صبرها وتحملها وذكائهاوهي أرقى من الخيل في تعيين الاتجاهاتومعرفة الطرق.

الأغنام التي بفزان وغات نوعان كما في الإبل أحدهما النوع الشمـالي الذي يوجد في الشمال ومنطقة وادي الشاطىء صوفها طويل وناعم والجنس الجنوبي من الأغنام السودانية أصوافها قصيرة وخشنة ،ذيلها وقوائمها نحيفة وطويلة.وغير هذين الجنسين جنس ثالث هو أغنام التبو التي تعيش في جبال تيبستي أصوافها سوداء وخشنة وليست قصيرة أما المعز من النوع السوداني فإن حجمها صغير وليس بها شعر .

البقر والخيل قليلة وترى بعضها هزيلة ضعيفة الجسم وهي حـــالة تناسب الإقليم الصحراوي . أما الحمير فلاستعمالها في المزارع والبساتين وفي إخراج الماء من الآبار كثيرة، وأعلى جنس من الحمير تلك التي تعيش في واحة «جانت» فهي مرغوب فيها جسمها صغير ولكنها قوية . والكلاب التي تشاهد عند عربان فزان وقبائل التوارق والتبو وفي القرى والواحات ثلاثة أنواع: الكلاب التي عند عربان فزان شكلها مثل كلاب سواحل طرابلس لونها أبيض ووبرها طويل وهي كلاب حراسة والتي عند قبائل التبو والتوارق برية وتستعمل في صيـد بقر الوحش والغزلان، وهي من نوع السلوقي الخاص بالصحراء .

القوافل ومراكز التجارة

فزان لوقوعها في منطقة ذات واحات عديـدة ومناهلها العديدة الكثـيرة المنتشرة جنوباً حتى السودان مركز تجاري من القديم. والسكان الذين تساعدهم أحوالهم المالية يحترفون التجارة.والتجارة فيها نشطة من العهد الروماني والعلاقة بينها وبين أواسط إفريقيا علاقة طيبة وخاصة بعد أن تأسست حكومـات إسلامية فيها وازدهرت تجارتها . فكل منتوجـات البلاد الشمالية الإفريقيـة بطرابلس وتونس ومصر الصناعية والزراعية التي كانت تشحن إلى الجنوب وقوافل التجار التي كانت تحمل مصنوعات ومحصولات الجنوب إلى الشمال ـ تمر كلها بفزان ـ وحتى طرق التجارة التي بين تومبوكتو ومصر والسودان تمر أيضاً بفزان عبر طريق أوجلة وجالو فسبهة ثم غات .

وأكثر المواد التجارية التي كانت تصدرها إفريقيا مقابل ما يرد إليها من بضائع الشمال هي جلود المعز المدبوغة والمصبوغة الحمراء والصفراء التي تنتجها مصانع الهاوسا وسقوطو، وقِرَب الماء، والمنسوجات القطنية والحشيشة (الصباغ الأزرق النباتي) وطيور الببغاء، ومن برنو التمر الهندي والصباغ الأزرق النباتي الداكن وجلود النمور والأسود ومن مقاطعات كانم ووادي وباغرمي العاج وقرون وحيد القرن وريش النعام والرقيق .

إن هذه القوافل التجارية المستمرة منذ عشرين قرناً مضت كانت تجلب من أواسط نيجيريا تراب الذهب وسبائكه إلى أسواق مرزق ،وإلى قرن مضى فقط كان التعامل في التجارة في فزان وغات وغدامس على أساس مثقـال الذهب وأجزائه. وكان الآلاف من الحجاج القادمين من تومبوكتو في طريقهم إلى مصر وقوافل التجار التي تمر من واحات فزان إياباً وذهاباً يخلفون الذهب فيها مقابل ما يستهلكونه من المحاصيل المحلية أثناء إقامتهم . أما الريال (أبو

طيرة)[1] وغيره من المسكوكات الفضية الأوروبية والنقود العثمانيـة لم تَرُجْ في أسواق مرزق إلا في القرن الماضي الميلادي [2] وكان تداول النقود الذهبية أمر جديد فيها وفي أسواق غات لا يقبلون التوارق في بيعهم وشرائهم السبيكـة الذهبية إلى الآن .

وهكذا تشاهدون فزان وهي تتوسط طرق القوافل الآتية من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب وبالعكس كمركز مهم لتبادل البضائع وسوقاً تتداول فيه كل المسكوكات وكانت عامرة بفضل موقعها وتسهيلاتها .

وقد طرأ على تجارة فزان ركود واختل ميزانها للتذبذب الذي ساد إدارة بلدان السواحل الشمالية وانقلابات الحكومات الإسلامية والثورات المتتالية في حكومات أواسط إفريقيا في القرون الأخيرة فبدأت تفقد ازدهارها وعمرانها. ومن الأسباب التي عجلت في القضاء على فزان اتصال إفريقيا الوسطى باوروبا عن طريق مصادر أخرى مباشرة في غربي إفريقيا والجنوب الغربي. وهناك سبب رئيسي ساهم في ركود أسواق فزان هو منع تجارة الرقيق أولاً وهبوط ثمن ريش النعام في أسواق أوروبا حيث أصبح من صادرات مدينـة الكاب (جنوب إفريقيا) لاعتنائها بتربية النعام وتفريخه باعداد كبيرة .

ومن جهة أخرى منافسة غدامس لمرزق في تحويل التجـارة بين « كانو » وطرابلس عن طريق غات إلى غدامس مباشرة واتجاه القوافل التي تحمل ناب الفيل (العاج) من باغرمي ووادي عن طريق أوجلة وجالة إلى بنغازي .

وهكذا تضاءل ورود القوافل إلى مرزق وقلت أسباب عمرانها. وأخـيراً

---

(١) «تللار» مارية تاريزة يعادل ٢١ قرشاً .

(٢) القوافل التي تقدم إلى فزان من الجهات الاربع قد أوصلوا إلى أسواقها جميع النقود الأروبية في القرن الماضي. ومن أدوات الزينة عند نساء فزان التحلي بهذه النقود كقلائـد وعقود فيشاهدن في أيام الأعياد وحفلات الأعراس يتزين بنقود فضية من كل جنس وعليهـا صور ملوك أوروبا بما فيهم البابا .

انقرضت تجارتها وتوقفت تماماً وخلت أسواقها عندما احتل « رابح » إقليم بحيرة تشاد سنة ١٨٩٣م. ووقعت القلاقل في تلك المناطق والتغيرات التي طرأت عليها. لم يبق لفزان مجال واسع لمبادلة محصولاتها كالتمور وغيرهـا ، كما حرمت أسواقها من المحاصيل التي كانت ترد اليها من برنو وهاوسا وسقوطـو والآن لا يباع في حوانيت مرزق سوى الأقمشة والشاي والسكر والشمع وغيرهـا من البضائع المستهلكة التي تأتي من طرابلس وبدأت الثروة النقدية المتداولة التي اكتسبت في عهد الرفاهية والازدهار تنتقل إلى المدن الساحلية تدريجياً .

ولأسباب فقدان النقود المتداولة من جهة وضغط الحكومة على الأهالي لتحصل التكاليف الأميرية (الضرائب) - اضطر السكان إلى الهجرة لتونس وطرابلس وبنغاري سعياً وراء كسب العيش. إن الفزانيين معروفون بالإخلاص والأمانة وبذل الجهد في العمل وهم يجدون العمل المناسب لهم في المهجر بسهولة. وبعد توفير نصيب كلي أو جزئي من المال يرجعون إلى وطنهم بعد بضع سنوات لما تربطهم به من محبة وذكريات عزيزة لديهم .

●

ان طقس فزان لشدة جفاف الصحراء صحي جداً إلا أن المستنقعات التي حول مـرزق وفي بعض الواحات الأخرى ،لقرب المياه الجوفيـة من سطح الأرض، تسبب انتشار الملاريا. وتستمر موجة هذا المرض من الخريف إلى فصل الربيع بكل شدتها ولا تترك في أجسام المبتلين بهذه الآفة طاقة للعمل .

إن الذين يقيمون مدة طويلة في مرزق وفي وادي الشاطىء والجفرة الشرقية تشاهد آثار هذا المرض الفتاك بادية عليهم .

وغـير الملاريا هناك أمراض كثيرة وأكثرها سبباً في الوفيات الجدري والعدوى بهذا المرض تأتي عن طريق برنو والسودان .

وفي بعض القرى الآهلة كمرزق متمكنة فيها الأمراض الزهـروية التي لا شك إن سرايتها هي الأخرى عن طريق برنو. والسكان يعالجون هـذا المرض

بأكل الحنظل [١] ويدهن قروحه بعصارة (تنفافية) ويعتقدون نجاح هـذه الطريقة في علاجه ولكن من كانوا ضحية لهذه الطريقة من العلاج ليسوا قليلين .

والأمراض الصدرية في قرى فزان ليست مجهولة فإن مرض الرئة المسمى (أبو جنب) ومرض الرقيق (التدرن الرئوي والسل) يصادف بكثرة، إلا أن هذا المرض لا يوجد إلا في الواحات المسدودة الأطراف ولكنه في سبهة وغات وغيرهما من البلاد الصحراوية المحاطة بالرمال والصخور لا وجود له لجودة هوائها وجفافه حتى إن الجروح تلتئم وحدها بلا تقيح .

أما القبائل الرحل فهي مصانة من تلك الأمراض السارية .

والتوارق الذين هم من هذا النوع باعتبار المسكن والملبس لا تتفشى بينهم الأمراض السارية ولكنهم يخافون الأمراض المعديـة إذا انتشرت في القرى وخاصة الانفلونزا التي يسمونها (تاغاراوت) . إن التارقي يهرب ويتباعد عن المحل الذي فيه تاغاراوت كهروبه وفراره من الموت .

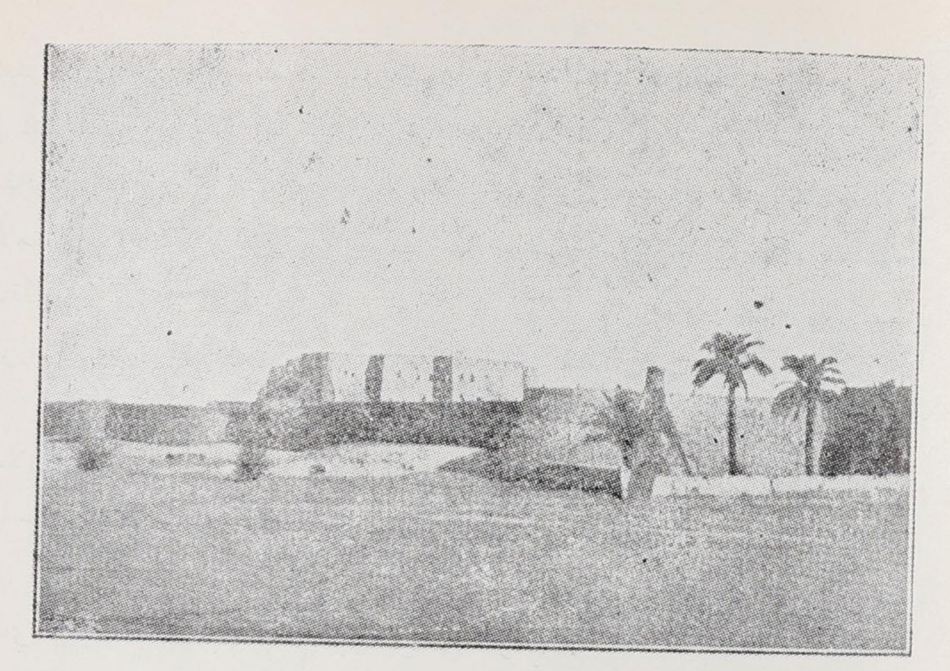
إن المعلومات الطبية عند أقوام الصحراء بدائية لذلك تراهم يعتمـدون في معالجة الأمراض على (طب العجائز) ويحاولون تخفيف الآلام بالأدوية النسائية وما عدا ذلك يتركونه إلى قوة العقيدة ! أي الرجوع للتمائم والنسخ والخرافات والأساطير .

فزان في التاريخ

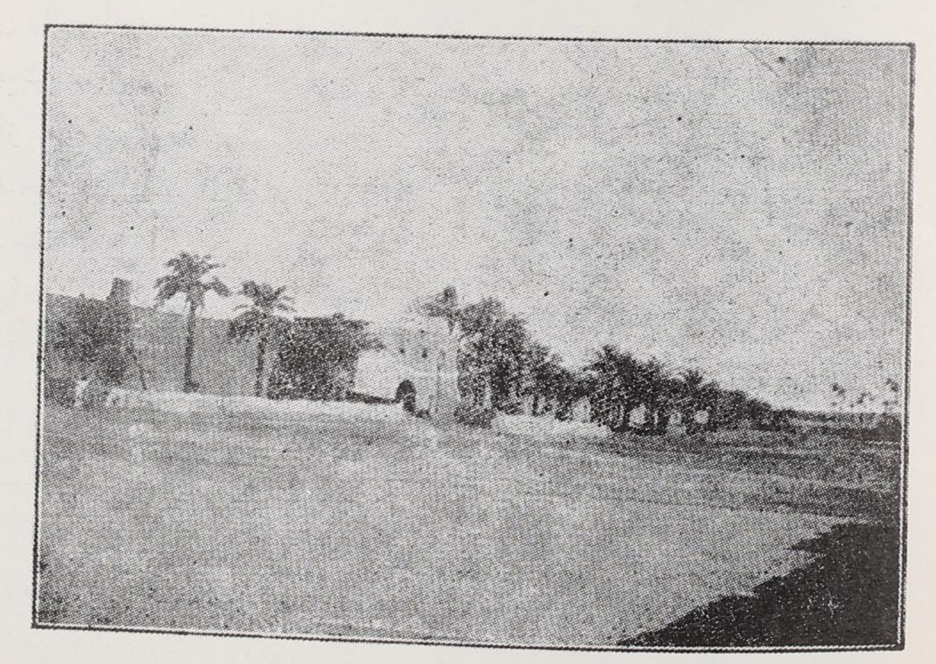
فزان اليوم هي المنطقة التي كانت معروفة معرفة محدودة في ظلمات القرون التاريخية الأولى والتي أطلق عليها الرومان فازانيا (Phasania) . عندما بحث أحد مؤرخي اللاتين « بليني» عن حملة القائد كورنيليوس بالبـوس (Cornelus Balbus) جنوب إقليم طرابلس قال : دخلت فازانيا التي تقع

---

(١) الحنظل يوجد في أودية الصحراء بكثرة Cucumis Colocynthis



قصر الحكومة في مرزق



باب الشريعة في مرزق

بعد سرت في اتجاه الصحراء وتضم بلدتي (Aldella) آلديــلا وجلاّبا (Giallaba) وكذلك سيد آموس (Cidamus) [1] التي تقع في حدود مقاطعة صبراته [2] تحت الحكم الروماني – ثم يقول: وهناك بعد تقدم قليل إلى الأمام في اتجاه من الشرق إلى الغرب تمتد سلسلة جبال سوداء [3] بعدها توجد ماتلجاس (Matelges) ودبريس (Debris) ومركزه الغرامانتــين غراما [4] هي هذه البلدان التي كان يسكنها الغرامانتيون وعاصمتهم غراما .

بعدما أصبحت مقاطعة فازانيا مستعمرة رومانية أرسل الرومان عــدة حملات اليها لتوسيع نفوذهم وتقويته ومن جملة هذه الحملات الحملة التي قام بها جوليوس ماتريوس إلى ما وراء جنوب فزان .

وتدل الآثار المبنية بالحجارة الكبيرة المنحوتة المقطوعة من جبال مساق الذي قرب جرما على الحكم الروماني في فازانيا .

إن الوقائع التاريخية المهمة التي أعقبت الحكم الروماني فى القرون المسيحية الأولى والتي أدت إلى تغيرات في الشمال الإفريقي لم تؤثر على مصير فزان الخاص بها حيث تفصلها صحارى قاحلة عن الشمال وتغيراته ، لذلك لم يبحث التاريخ عن فزان في هذه الفترة .

فتحت فزان في السنة الخامسة والأربعين من القرن الأول للهجرة من طرف القائد عقبة بن نافع وضمت إلى الممالك الإسلامية .

وأعقب العهد الأول للفتح الاسلامي هجرة بني هلال الذين هم من القبــائل العربية من أرض الجزيرة إلى شمال افريقيا لا شك أن غاراتهم امتدت إلى فزان أيضاً . وفي إقليم فزان كما في إقليم طرابلس لا زال الاعتقاد سائداً بأن بني هلال

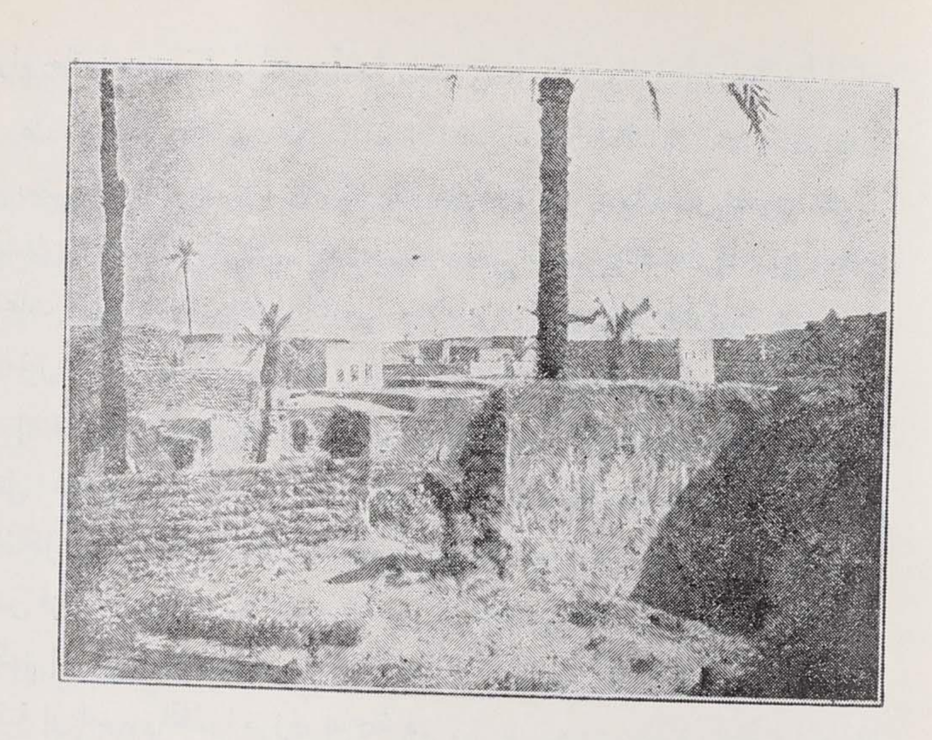
---

(١) غدامس وهي لازالت آهلة بالسكان .

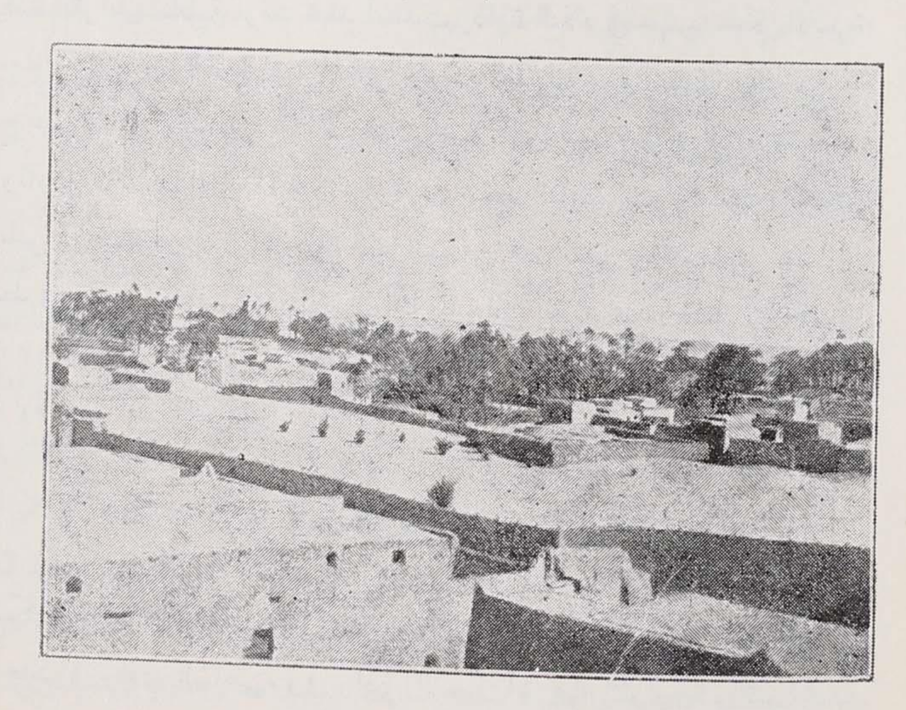
(٢) صبراتة غربي طرابلس مدينة ساحلية آثارها لا زالت باقية .

(٣) هي جبال السوداء المعروفة .

(٤) قرية معروفة بوادي الآجال ،



بلدة مرزق



القسم الجنوبي من بلدة مرزق

أقوام خلقوا بصورة فوق الطبيعة .

عندما يدلك الوطنيون على سلسلة من الحفر الصغيرة القليلة العمق المتباعدة عن بعضها بمسافات متساوية على أنها آثار هجانة أولاد هـلال ويقصون عليك تفصيلات وقائعهم وبطولاتهم الخارقة للعادة تفهم بأنهم يعتقدون بأن بني هلال جماعات أشداء يمتازون بطول القامـة والأطراف وأنهم من المخلوقات التي ليس لها مثيل في البشر .

إن فزان التي بقيت تحت حكم ونفوذ قبائل عربية إلى القرن الخامس الهجري انتقل الحكم فيها إلى حكام برنو وكانم فكانوا يعيّنون لها ولاة يفوض لهم إدارتها في شكل من أشكال الاستقلال الداخلي وكانت بلدة « تراغن » عاصمة لها . ثم خلص فزان من حكام برنو السيد المنتصر ابن محمد من أشراف المغرب حيث دام حكمهم إلى سنة ١٢٢٥هـ وقد بنى أحفاده وهم معروفون بأولاد محمد قلعة مرزق الباقية إلى اليوم واتخذوا مرزق عاصمة لهم .

بعد انقراض سلطنة أولاد محمد أسندت إدارة البلاد في عهـد حكم الأسرة القرهمانلية إلى أحد القادة محمد المكني ، وبعد عشرين سنة استولى على مرزق الشيخ عبد الجليل زعيم قبيلة أولاد سليمان ونهب أموالها وعاث في فزان فساداً .

وتاريخ فزان في العهد الأخير عبارة عن ضغط الباشاوات المستقلين بحكم طرابلس في خصوص فرض وجباية الضرائب من الفزانيين ومقاومتهم لهـذا الضغط في سلسلة من الصراع المستمر . أما المدة التي انفرد عبد الجليل بالحكم في فزان ١٢ سنة ،وفي سنة ١٢٥٧ احتلت الدولة العثمانية فزان كلها وجعلتها متصرفية تابعة لولاية طرابلس الغرب .

سكان فزان

لكي نعطي فكرة عن أصل عموم سكان فزان سواء كانوا من أهل القرى والواحات في وادي الشاطىء وفي وادي الآجال أو عن التوارق والتبو يجب

علينا أن نلقي نظرة عابرة على أصل سكان شمال افريقيا ومـا طرأ عليهم من اختلاطات عنصرية وعرقية .

لا توجد أية معلومات يعول عليها في حق سكان شمال افريقيا في عهود مـا قبل التاريخ إلا أن الأدوات والآلات الحجرية التي جودت في المناطق الصحراوية الممتدة من السواحل الشمالية إلى تومبوكتو في الجنوب العائدة إلى العهود الأولى والأخيرة الحجرية تدل على أن أناساً منسوبين لذلك العهد قد عاشوا هناك كما كان ذلك في أوروبا ، ويمكن الحكم بأن أصل سكان الصحراء أقوام بدائية انتشروا من الجنوب نحو الشمال وكما تحقق أن أقواماً أخرى من الجنس الآري قد انتقلوا من أوروبا إلى الشمال الافريقي أيضاً في الأزمنة التي كانت فيهـا صقلية وايبريا (اسبانيا) متصلة براً بالشمال الافريقي .

كما أن المخطوطات المصرية المنسوبة للعهود التاريخية الأولى التي ما قبل الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة تشير إلى أن سكان شمال افريقيـا أقوام ذوو شعور سوداء من الجنس السامي ثم اختلط بهم جنس آخر من ذوي الشعور الصفراء .

وفي المضبوطات التاريخية المصرية القديمة تسمى أسلاف القبائل البربرية ذوي الشعور الصفراء الذين يقطنون في الوقت الحاضر الأقسام المهمة من سلسلة جبال الأطلس تاهنو Tahennou .

ويسمي المصريون الذين وقعت بينهم وبين الأقوام المذكورة اتصالات عديدة Libou كما يسمونهم بصفة عامة تاماهو Tamahou وماشواشا Machoucha وذكروا في الكتب المقدسة باسم لوبيم Loubim ولا شك أن أصل Libyen التي سمى بها مؤرخو اليونان والرومان القدماء هذه الأقوام مشتقة من لوبيم .

لقد كان للمدنية المصرية القديمة تأثير على البربر إلا أنه بالنظر لما جاء في المراجع المصرية القديمة من استيلاء المصريين في حملاتهم المتعددة التي قاموا بهـا ضد البربر على أسلحة مصنوعـة من البرونز والأقوام والسهام وعربات الهجوم الحربية والمسكوكات الذهبية والفضية يتضح لنا أن الليبيين قد وصلوا إلى مستوى راق

من التمدن وسلكوا منهجاً لا بأس به في التصنيع قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً وقبل أن يؤسس الفينيقيون مستعمرات لهم في سواحل الشمال الافريقي .

ورغماً عن هذه المعلومات فلا زال أصل سكان افريقيا الشمالية يكتنفه الغموض وإلى الآن لم يتحصل على نتيجة قاطعة من دراسة المنحوتات الحجرية ومحتويات المقابر القديمة .

كان يطلق على هؤلاء الأقوام سكان الشمال الافريقي ابتداء من شرقه إلى غربه : ليبيين Lybien ونوميد « Numid » ومور « Maure » . ونظراً لرواية المؤرخ هيرودوت أن سكان القسم الشمالي أي طرابلس الغرب الحالية وعلى طول ساحلها الشرقي البسيليون « Psylle » والماسيون « Mace ». ويسكن المنطقة الممتدة من سواحل سرت إلى أوجلة النزامون « Nasamon » وكلهم « Lybien » ، ويسكن فزان الغرامانتيون Garamante » ، أما الجيتول « Getule » في جنوب الصحراء الكبرى وتفرعت منهم قبيلتا زناتة وصنهاجة وقبائل التوارق .

إن الفينيقيين الذين أسسوا في شمال افريقيا مستعمرات قبل الميلاد بعشرة قرون اتصلوا بهذه القبائل . والقبائل التى تأثرت في تلك الحقبة وما وقع بعدها من اختلاط واندماج بالأقوام المحتلة والمهاجرة هي القبائل التي تسكن في الشمال أما قبائل الجيتول بجنوب الأطلس فقد بقوا خارج هذا الاندماج وظلوا على حالتهم في أزمنة ما قبل التاريخ من البداوة والتوحش .

إن ما وصفه المؤرخون المتقدمون في بحوثهم عن خشونة وتوحش قبائل الجيتول إلى قبائل صنهاجة والتوارق فروع منها نجده مطابقاً تماماً لحالة التوارق في الوقت الحاضر .. أطلق المؤرخون بعد الفتح الإسلامي على الليبيين اسم « البربر » ولم يعرف سبب هذه التسمية بصورة قطعية وربما كان ذلك عندما قام الفاتحون العرب الذين خرجوا من جزيرة العرب لنشر الدين الاسلامي وتوسيع رقعة الحكم واستولوا على مصر والمستعمرات اليونانية والرومانية سموا

جميع سكان الشمال الافريقي بربر لزعمهم أنهم ينتسبون إلى سكان «بربره» أحد أقاليم مصر العليا ، ولكن لوجود قبائل تسكن شواهق جبال الأطلس وسفوحه الجنوبية في المغرب الأقصى يسمون برابرة فإننا نشك في تلك الرواية ونعتقد بأن لهذا الاسم منشأ آخر .

إن المؤرخين المسلمين وابن خلدون خاصة يدعون أن البربر هاجروا من فلسطين واستوطنوا في الشمال الافريقي ويستدلون على ذلك ببعض التشابه في الألفاظ اللغوية ولكن مع الاعتراف بتأثير هجرة القبائل الفلسطينية إلى الشمال الافريقي فإنه لا يمكننا قبول الادعاء القائل ان جميع سكانه من أولئك المهاجرين .

إن سكان الشمال الافريقي الأصليين شعب راسخ له لغته الخاصة ؛ لها حروفها وأشكالها في الكتابة منذ القدم ومتمتعون بالاستقلال التام . ومع هذا لا ننكر ما طرأ على لغتهم من تغيير نتيجة اختلاطهم بالأقوام السامية .

أما الغرامانتيون الذين هم من الشعب البربري فقد اندثروا نتيجة الاختلاط لوجودهم في فزان مركز تقاطع طرق مواصلات الصحراء بكثير من الأجناس وخاصة بالجنس الأسود وصهروا وحل محلهم جنس مخلوط ما بين أقوام الشمال والجنوب وهو يكوّن أجداد الفزانيين .

والفزانيون في الوقت الحاضر لا يمتون إلى أي عنصر من العنصرين المذكورين ويظهر عليهم عدم التجانس وكثرة الاشكال .

إذا نظرنا لقبائل التبو رغماً عن سواد بشرتهم في قوامهم المعتدل وتناسب تقاطيع وجوههم وحجم وشكل رؤوسهم نجدها صفات مطابقة لصفات الجنس الأبيض ، ويمكن الحكم بأنهم ساميون إلا أنهم اسودوا تحت سماء جبال تيبستي المحرقة .

أما التوارق الذين هم كذلك من سكان جنوب فزان فبرابرة الأصل .

وأما العربان من سكان شمال فزان القاطنون على طول وادي الشاطيء

والواحات العديدة في سبهة فإنهم من أحفاد القبائل العربية التي جاءت أثناء الفتوحات الإسلامية. ولكن سكان وادي الآجال ووادي عتبة والحفرة والشرقية وغيرها من الواحات الواقعة في صلب إقليم فزان المحاط بالأجناس التي مر ذكرها رغماً أنهم غرامانتيون أصلاً فإن اندماجهم بغيرهم من الأجناس جعلهم في وضع لا يمكن أن يستدل به على أوصاف هذا الجنس، فهم أي الفزانيون أقرب إلى الجنس الأسود من غيره من الأجناس ويعزى ذلك إلى تعاقب عهود حكم حكام برنو وكانم على إقليم فزان وكنتيجة طبيعية لاستيلاء الأقوام الزنجية على ذلك الإقليم كما أنه من المحقق مساهمة الازدواج بالزنجيات اللاتي يجلبن من السودان له تأثير في ذلك.

ولهذا نجد في عامة سكان فزان خليطاً من الألوان البشرية تتدرج طبقاته من الأبيض الناصع إلى الأسود الحالك.

الفزانيون بالنسبة للقبائل المحاطة بهم معروفون بالنشاط والقناعة والإخلاص والثقة والأمانة في أوطانهم وفي طرابلس وبنغازي وتونس.

الفلاحون الذين هم من أصل فزاني الساكنون في وادي الآجال والواحات الواسعة مثل واحة الحفرة والشرقية وغيرهما يشاهدون وهم في كفاح مستمر مع طبيعة الإقليم القاسية لإنتاج الحبوب والتمور التي يعتمد عليها سكان فزان عموماً في تأمين معيشتهم ويعملون طوال السنة بكل صبر وثبات في القيام بهذا الواجب.

بلدة مرزق

إن هذه البلدة التي أنشئت حول قلعة كبيرة مبنية بالطين قبل الحكم العثماني الثاني بكثير يجب أن يكون اسمها «مرزوق» الكلمة العربية وليس مرزق.
وهذه البلدة النصف خراب التي لا زال الفزانيون يسمونها (مودزوق)

بقيت مركزاً للقطر الفزاني من زمن حكم أولاد محمد.

تقع بلدة مرزق المحاطة بسور في الطرف الشمالي من الصحراء الرملية بين بلدة غات وواحة القطرون التي بقيت مجهولة لدى مكتشفي الصحارى المجاورة لسهل حمادة مرزق التي تكوّنه الانحدارات الجنوبية والجنوبية الشرقية لسلسلة جبال مساق.

عندما أقول بلدة مرزق محاطة بسور لا يخطر على البال أنه سور كأسوار المدن القديمة مرتفع حصين ومبني بحجارة منحوتة. فهو حائط ارتفاعه المتوسط ثلاثة أمتار، وعرضه عشرون سنتيمتراً، أكثر جهاته متهدمة وبعضها شبه منهار به أبراج متعددة يحيط بالبلدة من كل جهاتها ارتفاعه في بعض المحلات خصوصاً الجهة الغربية والشمال الغربي يصل إلى ٥ و٦ أمتار ولكنه بالجهة الجنوبية في الجهة التي بها المستنقعات لا يتجاوز المترين.

للمدينة ثلاثة أبواب: الباب الكبير في الجهة الشرقية والباب البحري أو باب الخير في الشمال وباب المغمغم في الغرب. ويمكن الدخول للبلدة من مداخل أخرى غير هذه الأبواب في الجهات التي أسوارها متهدمة التي لم تبق حاجة لترميمها.

لقد بني سور مرزق بقصد حماية قوافل التجار من غارات أقوام الصحراء لذلك لا يقاس بالأسوار التي شيدت في العهود التاريخية القديمة للدفاع عن المدن.

عند التقرب من أكبر أبواب المدينة المسمى بالباب الكبير تمر الطريق بين سلسلة من كثبان الرمال الممتدة من الشمال إلى الجنوب على طول السور المبني بالطين الرمادي اللون يدخل من باب عرضه متران وارتفاعه خمسة أمتار تقريباً ويشاهد مصراعا الباب المصنوعان من جذوع النخل مسندان على جانبي الجدار وعند الدخول من هذا الباب غير المتناسب بجدار السور القليل الارتفاع والأبراج الصغيرة التي حوله يوجد رواق في عرض ٥ إلى ٦ أمتار يلجأ إليه سكان مرزق في أيام الصيف الحارة. إن المصاطب التي على جانبي هذه

السقيفة[1] وحجرة الحراس والنوافذ الصغيرة والشرفات التي في أعلى الباب وغير ذلك من ترتيبات الدفاع تدل على أنه كانت تقيم في هذا الباب قوة مسلحة للحراسة في الأزمنة التي كانت فيها تجارة برنو وواداي رائجة ومرزق عامرة .

بعد الدخول من هذا الباب الرئيسي ترى أكثر أقسام جهتي السور وأبراجه التي على شكل نصف أسطوانة خالية من كل وسائل الدفاع متقاربة كالمحاريب على طول السور ولا توجد إلا في القليل منها شرفات وكوات .

ابتداء من الباب مباشرة وإلى الميدان الذي أمام المعسكر وقصر الحكومة يمتد شارع « حميدة » الواسع الذي بمثابة الشريان الرئيسي لمرزق .

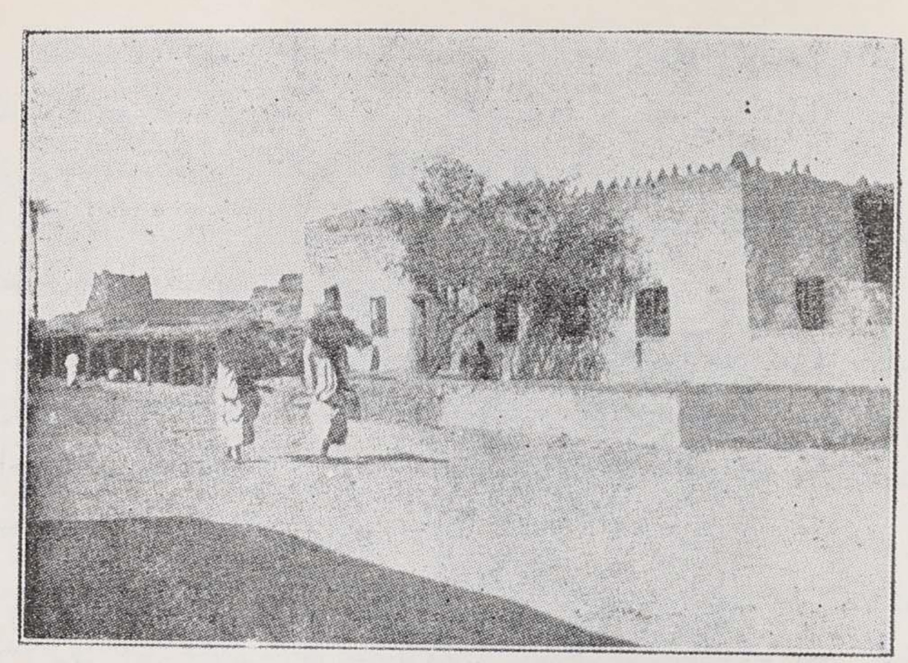
إن ابتداء شارع من مدخل المدينة يشق وسطها وينتهي في ميدان كجادة واسعة يقسم البلدة إلى شطرين تخطيط معمول به في بلدان برنو ولا سبيل للشك أن هذا التخطيط أثر من آثار عهد الولاة الذين حكموا فزان مدة طويلة باسم حكام برنو وكانم .

عندما ينظر من الباب الكبير إلى جادة « حميدة » أول ما يقع عليه النظر سوق النساء وفي الجهة اليسرى دائرة البلدية ومركز الجندرمة (الدرك) ثم بضعة بيوت وفي الجهة اليمنى نقطة حراسة عسكرية وبعدها صف من الحوانيت وأخيراً باب الشريعة المدخل المشترك لدوائر الحكومة .

لا يوجد أي ترتيب في سوق النساء الذي يقع في ميدان وسعه ١٥٠ متراً جانب منه مفتوح للمارة والعابرين وجانبه الثاني تتجمع فيه النساء في ثلاثة أو أربعة صفوف بعد العصر لمدة ثلاث ساعات أو أربع لبيع ما يجلبن من البساتين من الخضر والفواكه . للبعض منهن مظلات في وسط السوق لاتقاء حرارة الشمس مصنوعة من الحصر وأغصان النخيل .

---

(١) في طرابلس وفزان يسمى الممر المسقف بين الباب الخارجي وفناء البيوت سقيفة .



مركز الدرك والحوانيت في شارع حميدة



سوق النساء في مرزق

بعد مركز الدرك تواجه الناظر المظلات القائمة من جذوع النخيل أمام الدكاكين المصطفة على جانبي شارع حميدة منظر ليس بالجميل ؛ كمناظر المظلات التي توجد أمام حوانيت المدن الراقية . بعد مشاهدة الصور التي يحتويها كتاب الرحالة الدكتور ناهينكل لسوق مرزق والنظر إلى هذه الحوانيت الصغيرة المظلمة وجذوع النخل المنصوبة أمامها يزداد تأثره سوءاً .

بعد الخروج من شارع حميدة تشاهد الثكنة العسكرية الممتد بناؤها من الشمال إلى الجنوب ذات النوافذ المتباعدة وأبراج المدافع التي بطرفيها ، وقبالة الطريق تواجهك اللوحة الرخامية التي بها كتابة وطغراء السلطان عبد المجيد ومدخل باب الشريعة ، وهذا القسم من البلدة أجمل أقسامها الأخرى .

ويشكل باب الخير الذي لا يتجاوز المترين بانخفاضه الواقع بين المستشفى العسكري الذي بشمال شرقي الميدان وبين المعسكر وارتفاع باب المغمغم ووسعه الواقع في منتهى الميدان الرملي جنوب المعسكر يكوّنان منظراً متناقضاً. ويوجد جنوب هذا الميدان حي من أزهى أحياء المدينة ببيوته ونخيله غير المتكاثف .

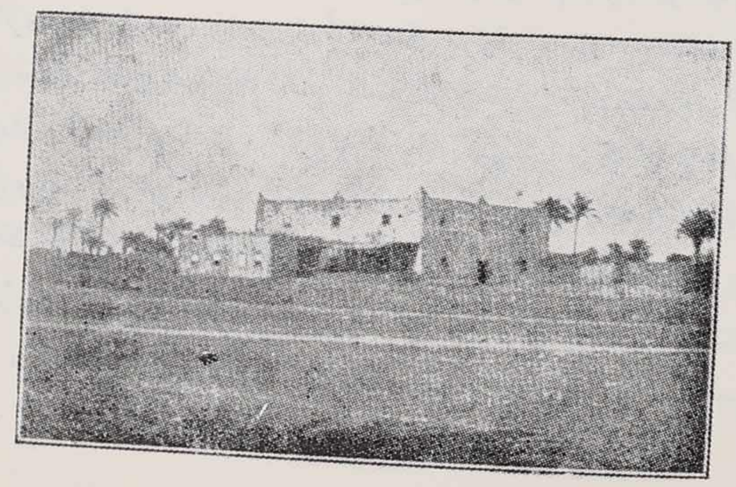
●

عند الدخول من باب الشريعة يصادفك المعسكر بعنابره ومخازنه والمطحن والفرن وأقسامه الأخرى والجامع الكبير وفي الوسط ميدان صغير حيث يوجد في منتهاه قصر الحكومة ، وهذا القصر ارتفاعه ١٢ متراً تقريباً يتكون من ثلاثة طوابق ، الطابق الأرضي مملوء بالتراب وبما أن ارتفاعه كبير بالنسبة لوسائط الإنشاء في فزان فقد دعمت جدرانه وأركانه وزيد في عرض حيطان أساسه إلى المتر والنصف .

وهذا القصر أو بتعبير أصح هذه القلعة هي المبنى الأساسي لبلدة مرزق ، شكلها غير متناسق بانحناءاتها وزواياها الداخلة والخارجة كشكل معين غير منتظم . وهذه القلعة والمعسكر وأقسامه والفرن والمطحن والجامع الكبير كلها



امرأة من مرزق



المستشفى العسكري في مرزق

محاطة بسور بني ليكون خط دفاع ثانٍ داخلي بعد سور البلدة .

يصعد إلى قصر الحكومة بواسطة سلم ارتفاعه متران . عند الدخول من الباب والمرور من دهليز طوله أربعة أمتار تقريباً تقابلك ساحة صغيرة . كل أبواب ونوافذ أقسام القصر مفتوحة على هذه الساحة . بعد السير في ممر مسقف على أعمدة من جذوع النخل تشاهد مقام المتصرف والمجلس الاداري والمحاسبة وغيرها من المكاتب الحكومية ، وعند الصعود إلى أعلى برج في القصر حيث ركزت سارية العلم يمكن مشاهدة بلدة مرزق وما يُحيط بها من بساتين وأراض: شارع حميدة ، والبيوت المبيضة بالجير ، في القسم الشمالي والجنوبي ، وحدائق النخيل التي تتخلل الأزقة ، والبيوت المتناثرة في البساتين بالقسم الشرقي ، ومجموعات الأكواخ المنتشرة شمال باب الخير ، كلها تبدو واضحة للعيان .

إن المستنقعات الواسعة الواقعة جنوب أسوار مرزق بأملاحها البيضاء والرمال الممتدة إلى أقصى الجنوب اللامعة باصفرارها كذرات الذهب وأمواج الرمال المتوالية والنخيل الكثيف على بعد كيلومتر من شمال البلدة الذي يحيط بها على شكل هلال بلونه الأخضر الداكن . هذه المناظر المختلفة ذات الألوان المضادة تحيط بمرزق كالإطار .

على حسب ما يرويه الشيوخ المعمرون الذين أدركوا عهد ازدهار تجارة برنو وواداي والروايات المتواترة في مرزق أن سوق مرزق وشارع حميدة الخاليين اليوم من كل حركة كانا في عهد الازدهار والعمران يزخران من أولهما إلى آخرهما بقوافل التجار والرقيق وكانت مراعي (آكول) التي بجوار البلدة ترعى فيها إبل القوافل ويمضون الليل في الرملة التي أمام باب الشريعة وجنوب المعسكر وتشاهد هناك حركة وحياة نشطة ليلاً ونهاراً .

وهذه الأطلال الصامتة الهادئة اليوم باستثناء صوت أغنية يتردد صداها من بعيد تنطلق من بساتين النخيل كانت في ذلك العهد الزاهر لها وجه مبتسم يهتز طرباً بنغمات الزكرة ودق الطبول والرقص طوال الليل .

وشارع حميدة الذي يعطينا مثالاً لعهد السعادة يقسم مدينة مرزق إلى قسمين كبيرين القسم الشمالي « النزلة » والجنوبي « الزوية » ورغماً على وسع شارع حميدة وطوله فالأزقة الفرعية في الحيين المذكورين ضيقة ومنحنية .

محلة النزلة أكثر عمراناً من محلة الزوية وبها مساكن من طابقين يسكنها السواكنة (أهل سوكنة) الذين لا زالت تجارة فزان بأيديهم بما خلفه لهم أجدادهم من بقايا الثروة وأما منافسوهم الهوانة (أهل هون) فيسكنون محلة الزوية ومن غيرهم جالية أخرى هاجرت قديماً من الأسر المعروفة في جالو . ومحلة الزوية بالنسبة لمحلة النزلة أكثر بيوتها متهدمة وقد غرست في قاعاتها نخيلاً فأصبحت بساتين .

إن المباني التي داخل فزان باستثناء سبهة والشاطىء كلها مبنية بالآجر الطيني وأما أبنية مرزق فمبنية من قطع طينية ملحية صلبة تقطع بالفؤوس من مستنقعات مرزق تسمى « الفردغ » والوحل المستخرج من سطح المستنقعات .

ولقلة مقاومة الوحل المالح ضد الأمطار فيذوب بسرعة إذا هطلت الأمطار وإذا استمر هطولها يبدو على الأبنية خطر الانهيار ولكن في فصول الحر تصبح متينة وتكون كتلة صلبة . القسم الأعظم من مساكن مرزق مبني بالفردغ المرصوف والوحل من غير تبييض فتبدو مظلمة حزينة لأن لون قطع الفردغ رمادي داكن ، وقليل من المساكن مطلية بنوع من التراب الأبيض ترى جميلة المنظر .

والأقسام الخشبية في البيوت كالقناطر والأعمدة والمرتك كلها من جذوع النخل ، أما الأبواب الصغيرة وأجنحة النوافذ وأقفاصها مصنوعة من خشب الصناديق الفارغة التي يأتي بها التجار من طرابلس كصناديق السجائر والشاي والشمع وغيرها من البضائع ، وكل الأبواب والنوافذ تقريباً مطلية باللون الأخضر الداكن .

في مرزق تصادفك الشبابيك الحديدية التي لا ترى في محلات أخرى من فزان .

عند الدخول من باب أحد البيوت الضيق المنخفض يدخل إلى فناء ساحة داخلية وهذا الطراز يشكل أساس الفن المعماري العربي في كل الأقطار .

وبيوت مرزق التي هي عبارة عن حجرات مفتوحة أبوابها إلى هذه الساحة وسلم يصعد بواسطته إلى غرف الطابق العالي . أما المخازن الطويلة التي بالطوابق الأرضية لا شك أنها كانت قد خصصت لوضع البضائع وإسكان الرقيق عندما كانت العلائق التجارية قائمة ، أما اليوم يمكننا القول بأنها خالية بكاملها وقد أهملت ولم يرغب أحد في ترميم ما حل بها من الخراب لعدم الحاجة إليها لذلك ترى ثلثي مباني البلدة في حالة من الانهيار .

ان الناحية التي تجلب الأنظار في الأصول المعماري بفزان التسقيف : توضع قناطر (جوائز) من جذوع النخل وبعد تصفيف المرتك (الروافد) فوقها تفرش عليها أعواد القصب الطويلة التي تنبت في آبار البساتين بكثرة وتضم إلى بعضها بحبال دقيقة فتظل كالحصير المحبوك ثم تطرح عليها طبقة من التراب إلا أن الأمطار القوية الخاصة بالصحراء ولو أن نزولها نادر جداً إذا نزلت على السقف المغطى بشبر أو شبرين من التراب فتنقلب إلى سيل من الوحل يسبب تشويه أثاث المنزل ويفسده .

في المنطقة الجنوبية من فزان اعتباراً من سوكنة لا تعيش البراغيث وقد نجا الفزانيون من إزعاجها إلا أن البق والبعوض يوجد بكثرة وغير هذه الحشرات توجد عقارب الريح التي لا يكاد يخلو منها مسكن وتخرج من أعشاشها التي في السقوف والجدران وخاصة في الليل عندما توقد المصابيح وهي تجري بسرعة وعقارب الريح كبيرة الحجم وهي وان كانت من فصيلة العنكبوت إلا أنها أكبر من العنكبوت العادي بثلاثة أضعاف ؛ لها في القسم الأمامي من رأسها منقاران قويان . ورغماً على ادعاء سكان أودية الصحراء البدو بأنها سامة ويخشونها فلم أسمع بأن أحداً في مرزق تضرر من لسعها مع وجودها في كل بيت .

أول نصيحة يقدمها سكان مرزق للذين يصلونها لأول مرة هي عدم وضع

الأشياء وخاصة الكتب والأوراق قرب الجدران أو على الأرض مباشرة خوفاً من الارضة والنمل الأبيض التي لا توجد في شمال افريقيا ولكنها في فزان آفة للنخر . ان هذه الحشرة التي تصنع مما تحمله من الوحل أقبية تختبىء فيها على جدران البيوت في إمكانها خرق جلد متين لكتاب وتحدث فيه ثقوباً وخروقاً فتجعله كالغربال في ليلة واحدة . وهي حريصة على أكل الورق والمواد النباتية وهوايتها المفضلة خرقها .

في بيوت مرزق غير هذه الحشرة المؤذية هناك إزعاج الذباب الذي يتكاثر في فصلي الربيع والخريف الذي يقلق الإنسان ويسلب راحته . أول وصولي لفزان كان في فصل نضوج الرطب تعرضت لهجوم الذباب الشديد فلأجل تناول لقمة من الطعام أو لكتابة رسالة اضطررت إلى نصب خيمة من الشاش الرقيق وسط الحجرة أركن إليها عند الحاجة . ويجب الاحتراس من دخول الذباب عند فتح الفم للضحك أو للكلام بصوت عال .

ان تجمع هذه الحشرة الكريهة على بشرة الوجه الرقيقة مقلقة جداً . في الأيام الأخيرة لم أجد حيلة لدفع الذباب أثناء الطعام إلا بالالتجاء إلى خادم مهنته طرد الذباب بمروحة أثناء الطعام وأساعده بيدي لرد المهاجمين .

●

في البساتين إلى داخل البلدة وخارجها وفي ظلال أجود أنواع النخيل تصادفكم حفر كبيرة جوانبها عمودية وأكثرها محاطة من الداخل بمدار مرصوف بالحجارة الجافة أو مدعمة ببعض الأخشاب المقطوعة من جذوع النخل انها الآبار . ولكن هذا الترتيب موجود في الآبار الأكثر عمقاً ولا يوجد في التي عمقها قليل ولا يتجاوز الثلاث أمتار .

وهذه الآبار التي تشاهد في وسط بساتين مرزق مفتوحة لقلة الحجارة الكافية وغير مسورة فينبت في أركانها القريبة من سطح الماء القصب الطويل أو السمار

وينمو في ظلاله البعوض الذي يفسد هواء البلدة .

ان الملاريا المنتشرة في مرزق وخاصة في وقت الخريف يعزى سببها إلى المستنقعات خارج السور الواقعة جنوب المدينة . ولكثرة أملاح مياه هذه المستنقعات فهي لا تساعد تكاثر البعوض . وقد تيقنت من ذلك بنفسي ولكن السبب الرئيسي هو البعوض الذي يتكاثر ويعيش في جذور أعواد القصب النامي في آبار البساتين وخاصة المهملة والمتروكة منها وهو الذي ينشر جراثيم الملاريا ويوزعها .

ان الداخلين لمرزوق ولو كانوا من أقوى الناس جسماً بعد شهر أو شهرين من المقاومة تنهار قواهم وتتغلب عليهم شدة وطأة الحمى . ومن أسباب عدم المقاومة وانتشار هذا المرض في فزان عموماً نقص العناصر الغذائية اللازمة إلى الحد الأدنى في وجبات الطعام . فالأجسام المصابة بالملاريا في نوبات تتجاوز درجة الحرارة فيها ٤٠ درجة سانتيغراد ترى عليها آثار الضعف وفقر الدم بادية عليهم. ان اصفرار وجوه الغرباء القاطنين في مرزق من الجنس الأبيض مخيف ومرعب . خصوصاً الاصفرار وعدم الطاقة التي تشاهد عند المبعدين السياسيين والمنفيين المحكوم عليهم بالعيش بما لا يسد الرمق فيؤثر منظرهم الحزين على كل من له شعور إنساني .

سوق مرزق

ان الأجسام المتعبة لا تستريح إلا بعد نصف الليل عندما يهب نسيم بارد خاص بالصحراء فتأخذ نصيبها من النوم المريح وقبل أن تحمى الشمس يخرج كل واحد من فراشه وإلى زمن القائلة تراهم في شارع حميدة مركز الحركة الرئيسي في البلدة تحت المظلات المنصوبة أمام الحوانيت والمقهى المجاور، بعضهم جالس على كراسي من الخشب والبعض على صناديق البترول الفارغة والبعض الآخر على مصاطب مبنية بالحجارة وآخرون جالسون على الحصر المطروحة فوق الأرض .

جميع القوافل وأهل القرى المجاورة الذين قطعوا الطريق أثناء برودة الليل يدخلون البلدة في هذه الفترة . وتبدأ الأخبار المهمة تنتقل من أذن إلى أذن وتدور الاشاعات عن غارة وقعت على إحدى القوافل في مكان كذا ..

ترى هنا امرأة من ساكنات البساتين أمام حانوت منهمكة في مشاحنة مع صاحبه في معاملة بيع أو شراء وهناك تحت مظلات الحوانيت ثلاثة أو أربعة من العرب والتوارق جالسين القرفصاء يتحادثون في سكون وينظرون من خلال أنقبتهم لما يجري حولهم في السوق .

ومنظر توارق قبيلة كيليتينيل وسيرهم الحثيث وهم يجرون جمالهم من أزمتها حاملين عليها ما جمعوه من الحطب من الأودية المجاورة أو أكياس الفحم يضيف نشاطاً آخر لحركة السوق . ويعتبر سوق مرزق سوق لقبائل التبو وعربان الشاطيء أكثر من التوارق .

عندما يصادف عربي أسمر اللون شم الأنف أسود العينين أحداً من التبو الطويل القامة الأسود اللون الذي تقاسيم وجهه تدل على أن أصله من الجنس الأبيض وقد تولاه الغرور ينظران لبعضهما شزراً ولولا بنادق جنود الحراس لقفزوا على بعضهما ولخنق أحدهما الآخر . إذا خرجا من مرزق يتجه أحدهما نحو الشمال والآخر نحو الجنوب ومن غير أن يلتفتا إلى خلفهما يتوجهان إلى الجبال والأودية حيث منازل قبائلهما .

باستثناء بائعي الفحم من توارق قبيلة « كيليتينيل » لا يصادفك من التوارق الخلص إلا القليل جداً . إن هؤلاء ذئاب الصحراء يظهرون في مرزق بمظهر العظمة والكبرياء والنخوة تفوق على ما رأيتهم عليه في غات بكثير فتراهم يتبخترون في مشيهم وهم يهزون رماحهم الحديدية الدقيقة محاولين بذلك إدخال الرعب في قلوب سكان مرزق المسالمين ليعطى لهم قدر كبير من الأهمية .

تشاهد في سوق مرزق التوارق بملابسهم البيضاء الفضفاضة ووراءهم المبعدين



الحاج عبدالله بن علوه

مرزقاوي معروف لدى الرحالة الاوروبيين

السياسيين المختلفي الأديان واللغـات (١) والجنود والضباط مختلطين بالسكان المحليين من بدو وحضر وهم يتجولون في شارع حميدة فيضيفون له مشهداً آخر غير عادي .

وترى تحت حانوت صغير أحد أعضاء مجلس إدارة مرزق وأحد الوجهاء وضابط أو اثنين وأحد موظفي الصحة وغيره من موظفي المتصرفية بملابسهم الافرنجية ومعهم تاجر من مرزق ببرنوسه الطويل جالسين يتحادثون في انسجام.

وعلى بعد من هذا المجتمع ترى بدوياً ماسكاً بقرون كبش يجره إلى السوق مع قطيع من الغنم ، وأقصى منه دلال ينادي لبيع الزيت وحوله زبائن من النساء وهن يتذوقن الزيت لمعرفة جودته .

وبين هذه المناظر تشاهد الدلالين وهم يعدون صائحـين لبيع بضائع السودان والأقمشة والأردية من مصنوعات طرابلس وغيرها لأن زمن نشاط الدلالين في سوق حميدة هي الفترة الصباحية قبل حلول القائلة .

ولما يحمى السوق بحرارة الشمس ينسل الجنود والموظفين نحو باب الشريعة ويلتجىء التجار والدلالون والباعة إلى سقائف بيوتهم الباردة ، وهكذا يتفرق جميع من كانوا في شارع حميدة رويداً رويداً حتى إذا مـا حل وقت الزوال يتحول نشاط السوق وفعاليته إلى سكون تام . فكل واحد بعد تناول غدائه يتحول إلى حجرة مظلمة ليس لها نوافذ ولا يدخلها الذباب ليأخـذ نصيبه من نوم النهار .

وبعد وقت العصر وعندما يميل قرص الشمس نحو الأفق الغربي تبدأ في البلدة حركة جديدة ولكن النشاط في هذه المرة يتحول من شارع حميدة إلى البـاب الكبير حيث سوق النساء .

نسوة يحملن على رؤوسهن أطباقاً عليها البصل أو الطماطم والفلفل وغيرها من

(١) هذا الوصف قبل انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٠٨ .

الخضر والبقول ، وفي جهة أخرى غيرهن من النساء جالسات على الأرض تحت مظلات من الحصير في صفوف يبعن أنواعاً من أدوات الزينة كالخرز الأزرق والأحمر والمرايات الصغيرة وزجاجات الروائح العطرية ؛ وفي جهة أخرى ترى نساء مقبلات من أبواب البلدة وعلى رؤوسهن قفاف الخضر أو حزم الحطب من قرية « حسي حجيل » التي تبعد مسير أربع ساعات عن مرزق أو من غيرها من القرى وهن يهزنّ أيديهن ويحركن أخصارهن في سيرهن مستغرقين في حديث لا ينقطع .

وصف آخر تحت الجدران يبعن نبات القضب لعلف الحيوانات وهكذا يسري النشاط في سوق النساء .

إلا أن هذا السوق بالنسبة لشارع حميدة في الصباح أكثر ازدحاماً وأنشط حركة تختلط فيه أصوات المئات من النساء والرجال من الباعة والزبائن في ضوضاء غريبة .

قبل غروب الشمس بقليل تبدأ جماعات النسوة في الخروج من أبواب البلدة للعودة إلى قراهن وإلى أكواخهن بالضواحي وتستمر عودة رواد السوق رويداً رويداً إلى ما بعد الغروب وبعد صلاة المغرب فلا تشاهد في السوق إلا بعض باعة الخبز ولا تسمع إلا صوت النساء وهن يرسلن الضحكات العالية ويتحادثن بحرارة أو يغنين إلى أن يتباعدن عن البلد .

جميع أخبار مرزق وقيل وقال تتبادله النساء في السوق أو عندما يجتمعن على الآبار لأخذ الماء ولا تخفى عليهن من حوادث البلدة خافية ولا تفوتهن حادثة لا يتحدثن عنها أثناء ملاقتهن .

جميع الذين رجعوا إلى بساتينهم وقراهم من الرجال والنساء بعد البيع والشراء بما قيمته بضع دراهم يدخلون إلى أكواخهم وبيوتهم البسيطة لإراحة أجسامهم المتعبة قانعين بنصيبهم من الحياة بعيدين عن التفكير والمشاكل التي تعكر صفوهم.فيشعلون النار في أكوام من سعف النخل في البساتين ويجتمعون

حولها وعلى ضوئها يغنون ويعزفون إلى نصف الليل .

في الوقت الذي تسمع فيه هذه الأنغام البعيدة من السواني والبساتين إلى خارج السور يسود البلدة سكون عميق ولا يخل بهذا الصمت أي شيء سوى حفلات الأعراس النادرة أو الاحتفالات العامة .

غير أنه في الليالي المقمرة يسمع عزف خاص بزنوج الجنوب يرقصون على نغماته ودقات الطبول رقصة (الصامبا) في المدينة وبعد قليل تختلط موسيقى الصامبا المتزنة المقاطع بنغمات المزامير (الزكرة) ودق الطبول الصادرة من السواني فتكون ألحاناً تؤثر على سامعيها تأثيراً سحرياً. ثم تأخذ أصوات النغمات المطربة في الانخفاض تدريجياً إلى أن يمضي من الليل نصفه فيصمت كل صوت ويعم الأطراف الهدوء ولا يبقى صوت إلا حفيف أغصان النخيل التي تحركها النسمات الباردة وكأنه صوت رثاء حزين على ماضي مرزق الزاهر السعيد،في هذه الفترة تستسلم بلدة مرزق وسكانها لنوم عميق .

إن سكان فزان القدماء المعروفين عند مؤرخي العهود القديمة بالغرامانتيين كانت « جرما » عاصمتهم وعدم وجود أحفاد لهم في مرزق التي أنشئت في أواخر القرون الوسطى في عهد حكم أولاد محمد أمر طبيعي .

وغرامانتيو الجنوب المحدود عددهم قد اندثروا نتيجة ضغط أقوام الصحراء المحيطين بهم والاستيلاءات التي جاءت من الجنوب من برنو وكانم .

أصل سكان مرزق هم الفلاحون في سواني ضواحيها المعبر عنهم بالجبادة . أما سكان البلدة داخل السور أكثرهم تجار وكلهم تقريباً من أهالي سوكنة وهون وبعضهم من أقصى الشرق من جالو وأوجلة سكنوها منذ زمن بعيد لأجل التجارة ، وأوضاع هؤلاء مطابقة ومتشابهة في مرزق وغات لهم أحياء خاصة بهم في كل مراكز التجارة بالجنوب وهذا الوضع لا زال قائماً في برنو وسقوطو أيضاً حتى في كانو بنيجيريا يوجد حي خاص بالغدامسية إلى الآن .

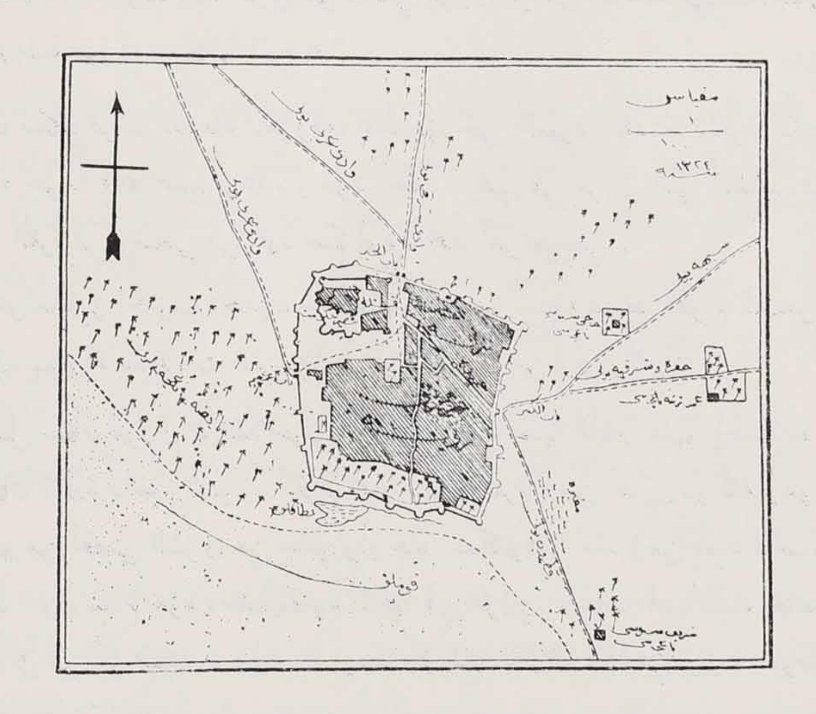
والتجار الذين كانوا يزاولون تجارة الرقيق منذ قرون القاطنون في المراكز

التجارية من إقليم فزان تغلب عليهم وعلى أعقابهم اللون الأسود لكثرة امتزاجهم بالزنوج بواسطة الزواج وتشاهد هذه الظاهرة واضحة في مرزق التي كانت في القرون الأخيرة السوق الرئيسية لتجارة الرقيق .

ونظراً إلى لغة أهالي سوكنة وهون يتضح أنهم من غرامانتي الشمال وتقاسيم وجوههم وألوانهم مطابقة للبربر الآخرين .

أسست كلا الجاليتين حياً خاصاً بها في مرزق ، فحي النزلة يقطنه السواكنة وحي الزوية يسكنه الهوانة ونقل كل منهما ما كان بينهما من منافسة وتطاحن في بلادهما إلى هنا أيضاً .

وبما أنهم صاروا من المرزقيين لمرور بضعة أجيال على انتقالهم إليها فقد تقلدوا بعض المهام الإدارية كأعضاء في مجالس إدارة المتصرفية ومحاكمها بحكم



خريطة بلدة مرزق

مكانتهم الاجتماعية في البلدة واشتد بينهم التنافر بسبب تنافسهم على هذه المناصب . والأسرة المرزقية الأصل العريقة الوحيدة هي أسرة « الكيارى » وأما الأسر الاصلية الأخرى فقد قضى عليها عبد الجليل أثناء احتلاله مرزق بالقتل والسلب .

ملابس التجار والأعيان في مرزق لا يختلف عن ملابس سكان مدن الشمال في ليبيا .

يهاجر المئات من فزان كل سنة إلى تونس بحثاً عن العمل وبرجوعهم إلى أوطانهم ينقلون الزي التونسي إلى هنا أيضاً فالذين يلبسون القمصان الطويلة الكم وذات الأزرار ويرتدون البرانيس الحمراء والصفراء المزركشة كثيرون؛ ولا تتم الظرافة في الملبس إلا بالبلغة السوكنية الصفراء المطرزة بالحرير البديعة اللون والشكل .

وأما لباس الأكثرية وهم الفلاحون (الجبادة) فهي غطاء رأس أبيض (طاقية) وقميص قصير أزرق وحزام والقليل منهم من يلبس في رجليه حذاء . وأثناء عملهم في البساتين يضعون على رؤوسهم قبعة كبيرة مصنوعة من سعف النخيل اتقاء لحرارة الشمس وهذه القبعة الواقية شائع استعمالها في الشمال الافريقي كله .

ولا شك أن قبعات السعف التي يستعملها الأوروبيون مقتبسة منها .

نساء مرزق ينقسمن إلى طبقتين: طبقة نساء أسر الأعيان والوجهاء ويعرفن (بالمحجوبات) لا يخرجن إلى الأسواق والأزقة ولا يختلطن بأحد . والطبقة الثانية بصفتهن يبعن ويشترين في الأسواق يختلطن بمن خارج بيوتهن ويدخلن المجتمعات كالرجال . والطبقة الثالثة تتكون من نساء الفلاحين (الجبادة) الساكنين بالسواني والمعتقات من الرقيق .

وأكثر ما يجلب النظر في نساء الدرجة الثانية أكثر من طرز تلبسهن وزينتهن ، تنظيم وتصفيف شعورهن . يفرق الشعر إلى شطرين ويظفر ضفائر

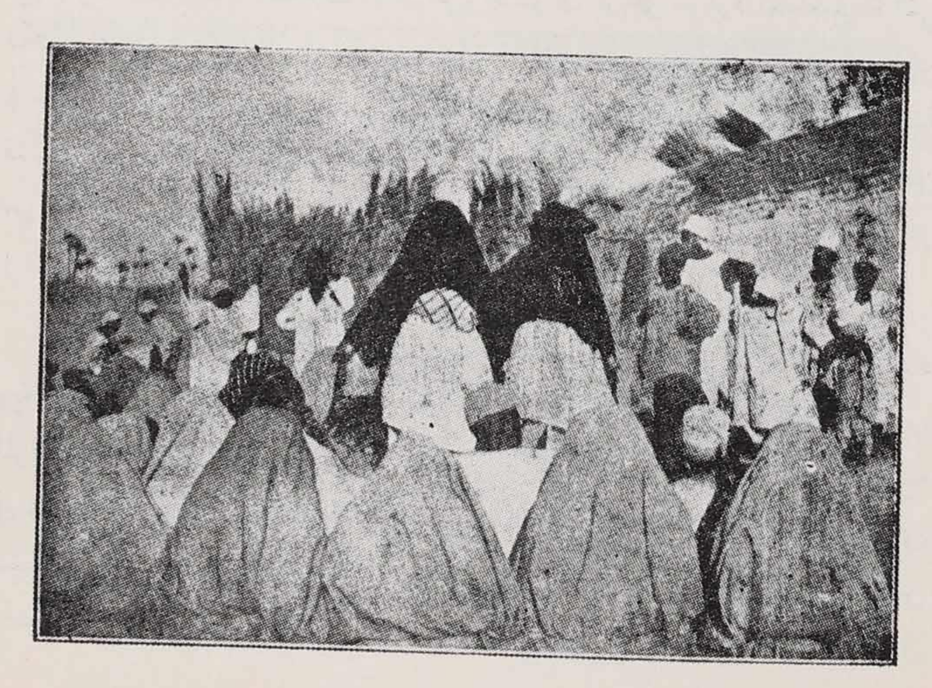
صغيرة في الجانبين حتى مؤخرة الرأس ويبقى شعر القسم الأمامي مسدول على الجبهة ،ويدهن الشعر بمعجون مخلوط بماء الزهر والقرنفل والمحلب وتختص بتنظيم الشعر وتصفيفه « الماشطة » الخبيرة في تنظيم الشعر فتجثو المرأة أمامها ساعات لتنظمه على الوجه المطلوب ومما يجلب النظر بصورة خاصة النقود الفضية المختلفة من كل دولة المنظومة في منتهى ضفائر الرأس الجانبية . ويغطى الرأس الذي صفف شعره بعناية زائدة ودهن بزيت الزيتون بقطعة صوفية حمراء .

ويلبسن قميص زرقاء طويلة حواشيها حريرية ومطرزة تطريزاً بديعاً رقبتها واسعة أكمامها قصيرة وواسعة ويتحزمن بحزام من قماش في أكثر الحالات لونه أحمر أو أبيض وفي أيديهن أسورة من الخرز الملون وفي أرجلهن الخلاخيل وأكثرهن حفاة وبعضهن يلبسن أحذية خاصة بالنساء الفقراء ويلبسن نوعاً من الأحذية المصنوعة من سعف النخل .

ترى في مرزق كما في أسواق تجارة الرقيق – عندما كانت هذه التجارة رائجة في افريقيا الوسطى – حالة من انتشار الرذائل وعدم المبالاة بالقيم الاخلاقية ،ذلك لأن محترفي التجارة الصحراوية يطول غيابهم عن أسرهم وعندما يأوون في ذهابهم وإيابهم إلى مرزق المركز المتوسط على طريقهم مضطرون للترفيه عن أنفسهم مثلهم مثل بحارة السفن الذين يعودون إلى أحد الموانىء بعد رحلة طويلة في المحيطات وعندما يكونوا بعيدين عن بلادهم وعن مراقبة عارفيهم فلا يبالون بما يفعلون ويتلاشى عندهم التقيد بمراعاة العرف وآدابه . لهذا السبب كانت الأخلاق متدهورة في مرزق زد على ذلك الانهاك في تناول المشروبات الكحولية وخصوصاً اللاقبي الإنتاج المحلي المستخرج من النخيل الذي أدمنّ على شربه بعض النسوة فضلاً عن الرجال ، وهؤلاء النسوة المنحرفات لا يرون مانعاً في قبول الرجال لشرب الشاي أو الخمر في بيوتهن ..



الراقصات متقابلات



الراقصات جنباً إلى جنب

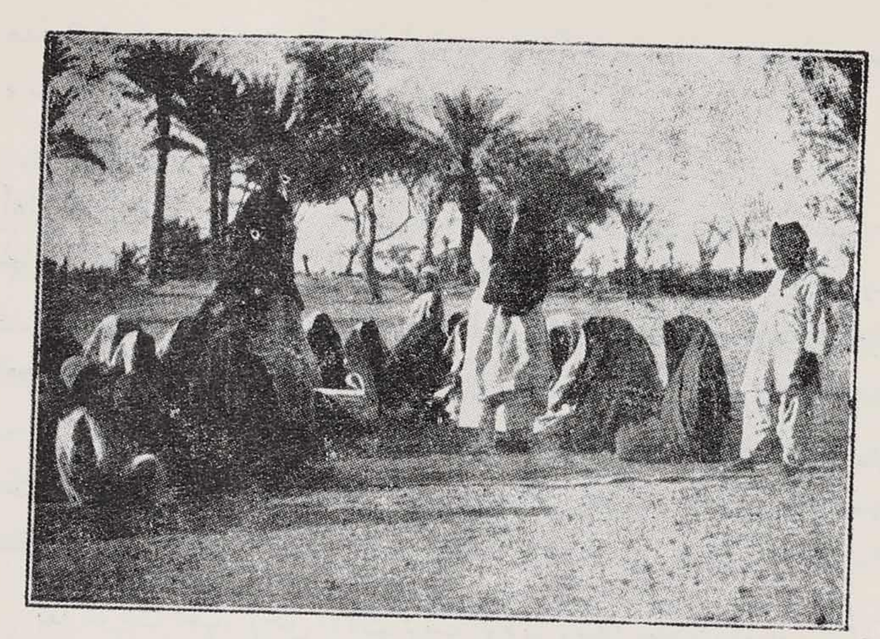
الاضراب

من العادات السائدة بين نساء مرزق الاضراب عن العمل . بما أن الباعة في السوق تكونه النساء وهذا الوضع جعلهن يفكرن في اتخاذ الاضراب عن العمل كسلاح للدفاع عن حقوقهن وشرفهن ويسمى الاضراب « ناو » و « شرماكشي » وربما كان ذلك من عادات البربر القدماء .

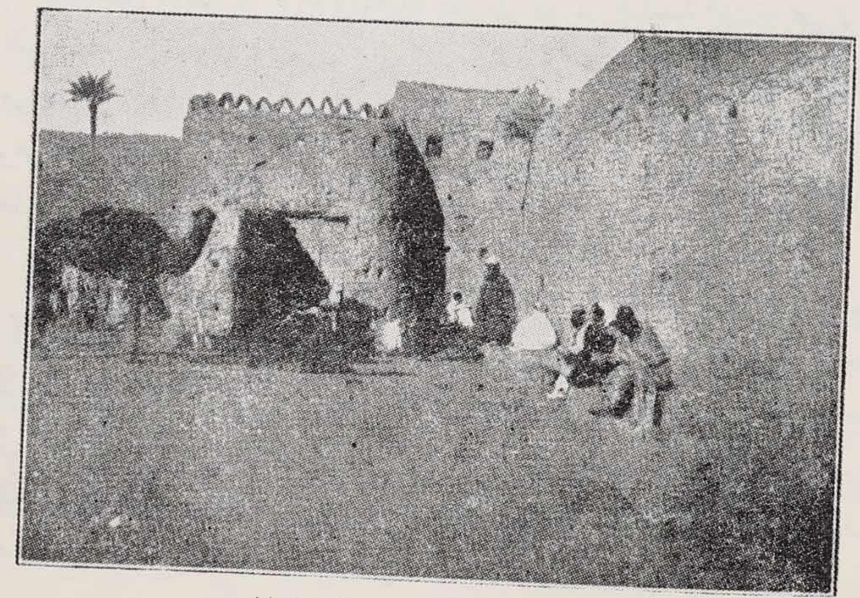
إذا عامل رجل امرأة معاملة تمس شرفها أو حقوقها في مجتمع يقمن جميع النساء بالتوقف عن العمل حالاً احتجاجاً ويجتمعن عند رئيستهن (الشيخة) إلى أن يرد المسيء إليها اعتبارها .

مثلاً إذا عامل رجل امرأة معاملة تراها تحقيراً وإهانة لها في بيع أو شراء أو غير ذلك من المعاملات وأكثر ما تقع هذه الحوادث في الأمكنة التي تلتقي فيها الرجال والنساء كحفلات الأعراس والأسواق أو على موارد الماء فالمرأة التي تكون عرضة لاعتداء أو إهانة من رجل تطلق زغروتة طويلة وتذهب إلى (شيخة النسوان) فتقوم الشيخة بدعوة جميع النسوة بزغروتة خاصة معينة فتستجيب كل نساء الطبقة الثانية الموجودات في السوق لهذا النداء ويجتمعن حولها ساعات وتارة يوماً أو يومين ويغنين وينشدن أناشيد خاصة بالناو (الاضراب) ويمتنعن عن الأكل والشرب .

ان تعطيل العمل في السوق والبيوت والبساتين له خطره على اقتصاد البلدة ويعرض سكانها للجوع فيبادر بعض الرجال للتوسط في حل الأزمة ؛ في بعض المرات تضطر الحكومة للتدخل في حلها . وأخيراً يدخل وكيل المدعى عليه في مفاوضة مع الشيخة وتقدر غرامة حسب حالة المعتدي المالية يدفعها فتشتري الشيخة بالمبلغ بعض العطور والزيت لدهن الشعر وتوزعه على النساء ترضية لهن وتدعوهن إلى مباشرة أعمالهن . أما الرجال الذين يبذلون وساطتهم في مثل



رقص القادة



مدخل بلدة غات الكبير (باب تفاغت)

هذه المنازعات ويحترمون رأي النساء تصبح لهم مكانة مرموقة عندهن فيوصفون « بأولاد الناو » .

ومن الروايات التي طرقت أذني عن هذه الحوادث : ان أحد وجهاء مرزق أهان امرأة من قرية (حسي حجيل) إحدى قرى ضواحي مرزق وعقاباً على تجاسره اجتمع نساء القرية وأنزلوه من دابته وجردوه من ثيابه وأوثقوا يديه ورجليه ودخلوا به إلى المدينة وهو عرياناً وقد تأثر من ذلك واحتجب في بيته خجلاً شهوراً .

في أعراس مرزق يحمل جهاز العروس بالطبل والمزمار وغناء خاص مثل احتفال طرابلس وإضافة إلى ذلك تقع مباراة الفرسان وضرب البارود من البنادق .

بعد موكب الجهاز وحمل الأثاث ترتب الولائم وتبدأ حفلات الغناء والرقص والموسيقى في بيت العروسة وفي بيت العريس وتستمر السهرة إلى نصف الليل .

والرقص في مرزق أنواع ولكنه أقل ظرافة من الناحية الفنية على الرقص الذي شاهدته فيما بعد في غات ، إن الغناء المعروف عند أهل فزان (بالطبيلة) هو اجتماع النساء والرجال حول طبل على شكل نصف كرة يدقونه بالأيدي وهم يغنون بصوت متواصل . أما الدقداقة عبارة عن عدة نفارات صغيرة يدق عليها بقضبان دقيقة دقات متزنة .

إن الأغنية التي يتغنون بها سواء في هذا النوع من أنواع الحفلات الموسيقية أكثرها تدور حول وصف العشق والغرام وقصصه في البلدة ، وتارة تتحول الأغنية من الوقائع الغرامية إلى تبجيل مناقب النبلاء ومدحهم وأخرى تتحول إلى الهجاء . مثلا إذا اشتهر متصرف في مرزق بالظلم والاعتساف فيتعرض للذم في هذه الاجتماعات وتعدد النساء أفعاله السيئة في أغنيتهن حتى في زمن حكمه ولا يخشون بطشه .

أنواع الرقص

ولنتكلم الآن عن الرقص.. من أنواع الرقص رقصة (الكادة) وهي رقصة برناوية تجتمع النساء في نصف دائرة ويقمن للرقص بالمناوبة والتي تخرج إلى وسط الساحة لأداء دورها في الرقص تتابع دقات الطبول وألحان المزمار بأقدامها وتتقدم ثلاث خطوات إلى الأمام وثلاثة أخرى إلى الخلف وتنحني على قفاها إلى أن يلمس شعر رأسها الأرض ثم تنهض قائمة وعندما ترفع رأسها تحرك ذراعيها وساقيها حركات بديعة تجلب الأنظار ، والتي تنتهي من نوبتها تعود فتجلس في الحلقة وتشارك الجالسات في الغناء . وهناك رقصة أخرى تثير الغرائز الجنسية تهز فيها الراقصة أردافها ويرتج القسم السفلي من جسمها وتقوم بهذه الرقصة امرأتان في آن واحد متقابلتان يستران وجهيهما بنقاب أحمر ويرقصان وفقاً لألحان مزامير القرب (الزكرة) ودقات الدرابيك بكل دقة ويسمح للرجال بالحضور في حفلات الأعراس كمشاهدين ولا يشترك الرجال مع النساء في الرقص ولكنهم يدفعون هبة للعازفين فيعلنون اسمهم بالاضافة إلى عبارات التبجيل والمناداة بخصالهم الطيبة وتزغرد النساء على ذلك تحية واستحساناً . وعطية النقود للراقصات والمغنيات يعد إهانة وتكون تارة سبباً لإعلان الاضراب .

من المناظر التي تثير الاستغراب لدى الغرباء منظر بعض النساء وهن يشربن الخمر حتى الثمالة ونظر الناس لهن نظرة عادية لا لوم فيها ولا عتاب .

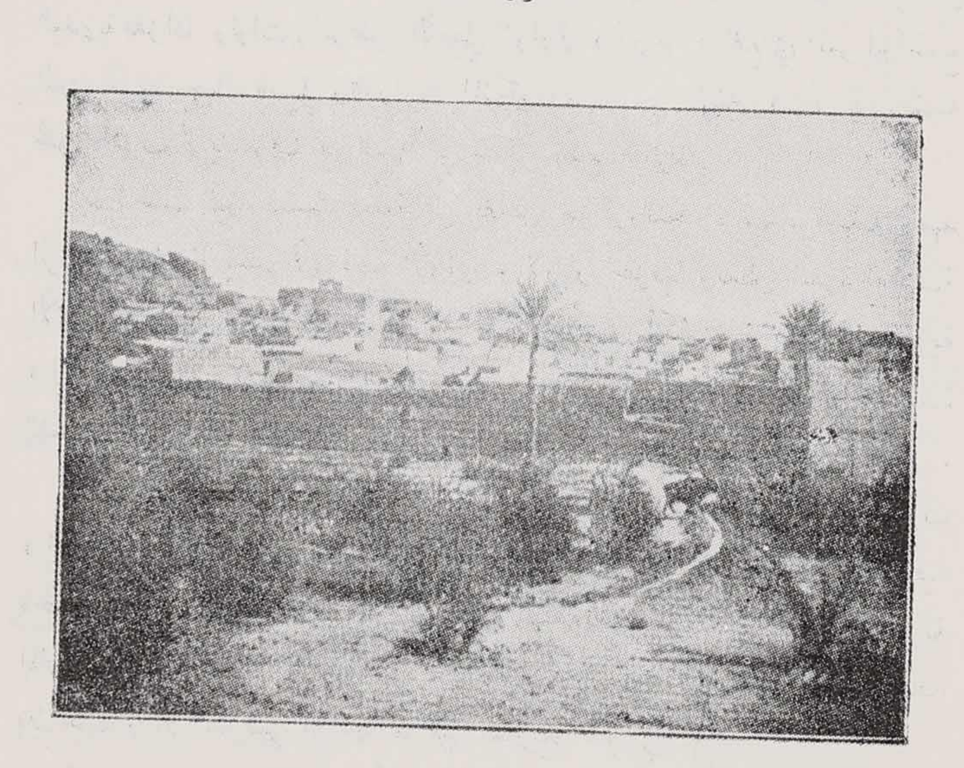
إن هذه البلدة الصحراوية التي ترعرعت في عهد سعادة وعظمة وانحطت فيها القيم الأخلاقية وشاع فيها الترف والعبث فقدت عظمتها ولا زالت محتفظة ولو بجزء من ذكريات الماضي السحيق وألحان لياليه المطربة الصاخبة ...
أصبحت في آخر العهود التاريخية منفى لأصحاب الجرائم العادية ومقبرة منسية تدفن فيها الإرادة الظالمة المستبدةالمجاهدين في سبيل العدل والحق أحياء.

مرات عديدة عندما استغرق في النظر لأزقة مرزق من نافذتي في الليالي المظلمة اتخيل وكأنني أشاهد بين أطلال البلدة الناعسة تحت جريد النخيـــل الطويل الذي يلاحق السماء الزرقاء أشباحاً عديدة تسير وتتحرك ، من الجنس الأبيض والأسود منها البلدي والبدوي والحاكم والمحكوم والحر والعبد وأرواح الكثيرين من المجرمين والمعصومين من الأبرياء اتخيل أشباحهم وكأنها تنسل بجانب جدران الأزقة الكئيبة المحزنة ...

بعد صباح ١٠ تموز ١٣٢٥ (٢٣ يوليو ١٩٠٨) الباهر انطلقت البقية الباقية من المجاهدين الأحرار من منفاهم نحو الشمال كطيور انطلقت من أقفاصها تاركين وراءهم قبور رفاقهم الحزينة المنسية بين أطلال مرزق وتركوا أيضاً بين الأرواح العجيبة المطلة على أسرار ليالي مرزق الصامتة أشباح مئات المنفيين ...



سور غات



بلدة غات

بلدة غات

إن بلدة غات التي تعد من أهم مراكز التجارة الصحراوية والتي هي ملتقى طرق الشمال والجنوب ومحطة لقوافل تجار طرابلس والسودان وسوقاً للقبائل البدوية بفزان وتوات والموطن الأصلي لتوارق « آزغر » تقع في الممر الواسع الذي ما بين جبال تاسيلي وتادرارت المتكون من وادي «تينيزوفت» الذي يتجه نحو الجنوب ثم ينحرف نحو الشمال في شكل نصف دائرة .

بلدة غات اليوم ليست مبنية على أنقاض مركز التجارة الصحراوية في العهد الروماني على ما يبدو لأن قطع الأواني والازيار الخزفية وبعض النقود الفضية الأثرية التي يعثر عليها الفلاحون أثناء فلاحة الأرض أكثر ما توجد قرب قرية « البركت » التي تقع جنوب غات بعشرة كيلومترات مما يدل على أن البلدة القديمة كانت مبنية في المكان الذي به قرية البركت بجوار منبع المياه الكبير .

ومن الآثار التي تشاهد قرية صغيرة على قمة صخرية تقع جنوب « البركت » بكيلومترين اثنين ؛ ويستدل من أبنيتها ذات الأربعة جدران المبنية بالحجارة الجافة وأزقتها الضيقة المتعرجة أنها بقايا قرية من القرى البربرية المتروكة . أما القبور الأثرية التي يسميها التوارق (ايدي بينن) التي تصادف بين غات والبركت فهي من عهد ما قبل التاريخ الحجري .

قبور (ايدي بينين) قبوراً واسعة محفورة من الشرق إلى اتجاه الغرب فوقها

أكوام من الحجارة الصغيرة على شكل قباب أحيطت بدوائر واسعة من الحجارة .

بلدة غات وضاحيتيها (تدرلحت) و (تونين) مبنية في أراضي سهلة لحقبة متكونة من فيضانات وادي (تينيزوفت) وعلى سفوح جبل كوكمين الذي هو عبارة عن ثلاث هضاب تمتد من الجنوب إلى الشمال .

إن الأهالي المحلية والزراع المجاورين قد شيدوا بيوتهم في الأمكنة المرتفعة من تلك الهضاب لحماية أنفسهم وأموالهم ؛ولا زالت بقايا آثار مثل هذه الحصون تشاهد حول بلدة غات .

إن الفلاحين المستفيدين من منابع المياه الجارية المتعددة التي حول جبال كوكمين بنوا بيوتهم على مهاوي سفوح الجبل الجنوبية ذات الانحدار العمودي اتقاء للغارات وهذه البيوت تشكل أساس بلدة غات .

وتشاهد فوق الهضبة التي تقع شمال البلدة بقية آثار منظمة ونظراً لجدران المنازل التي يرى منها قدر المتر والنصف والصهاريج الواسعة المطلية بالجر التي في وسطها يحتمل أنها من الآثار الرومانية وليست بربرية .

إن أصل الأهالي الفلاحين المعتمدين على منبع غات الكبير في أعمالهم الزراعية أكثرهم من مهاجري توات وبناء على تكاثرهم وازدياد حولهم وقوتهم فقد اعتمدوا على أنفسهم في مقاومة الاعتداءات وأسسوا مساكن لهم في سفوح جبل كوكمين الجنوبية التي لا تعلو على سطح السهل إلا ببضع مترات لتكون لهم خط دفاع ثانٍ .

إن قلعة غات القديمة تشكل قلب البلدة ثم توسعت تدريجياً على مر السنين .

وقد تركت هذه القلعة خالية بعد هجوم التوارق عليها ومحاصرة كتيبة عسكرية عثمانية فيها والقضاء عليها .

إن المساكن الجديدة التي كثرت وتشعبت حول القلعة المبنية بالطين والحجارة أحيطت بأسوار .

وبقيت غات القديمة التي هي القلعة وقدر عشرة بيوت حولهـا في وسط المدينة. إن وجود مسجد غات الكبير خارج هذه المنطقة يدل على أن القلعـة والبيوت المحيطة بها بنيت قبل الفتح الإسلامي للمناطق الصحراوية . وأما القسم الثاني من المدينة الذي يحتوي على المسجد والمباني التي أحدثت ويحيط بها سور ثانٍ ، فليس من الشك في أن جميع الأبنية التي داخل السور الثاني قد أنشئت بعد القرن الرابع الهجري أي بعد استيلاء الفاتحين العرب على الصحراء الكبرى.

هذه هي مدينة غات ومساكن أهلها داخل السورين المحيطين بها أمـا المحلات التي خارجها الممتدة نحو الشرق فوق سطح السهل ونحو النخيل انشئت كلها في العهد الأخير وبذلك تكونت مدينة غات الحالية .

إن الحي الذي يسكنه الغدامسيون يقع شرقي السور ويمتد نحو السهل وأما الأحياء الغربية منه يسكنه التجار الطرابلسيون .

وبناء على تأسيس الزاوية السنوسية هنا في القسم منذ ٤٥ سنة يرى أن الحي نفسه قد بني في عهد حديث كما يظهر للعيان من طراز البناء وتناسقه .

إن السور الذي يحيط بالمحلات القديمة والحديثة ليس حصين مبـني لغرض الدفاع ضد المهاجمين ومقاومة المحاصرين إنما متكون بالتصاق جدران المساكن بعضها ببعض ، وسد منتهى الازقة .

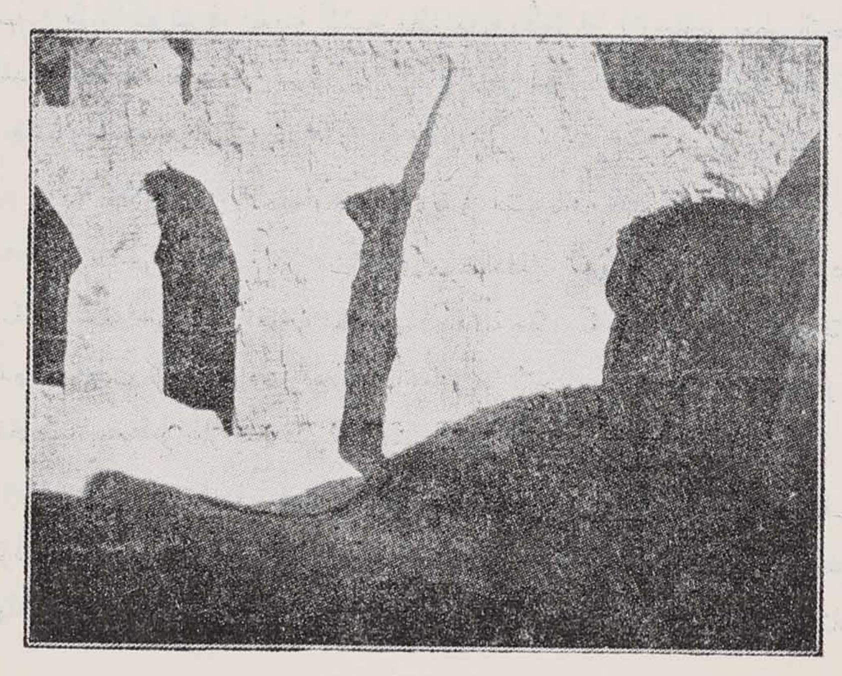
سلسلة من الجدران ذات الإنكسار والاعوجاج ولكنها سد كافٍ ضـد اعتداءات قبائل التبو والتوارق .

إلا أن بعض المحلات وخاصة عند المداخل الكبيرة تصادف أبراجاً بها كوات تدل على أنها بنيت بعد انتشار استعمال الاسلحة النارية وانها من ترتيبات الدفاع التي أضيفت .

يدخل إلى البلدة من أربع جهات من أربعة أبواب ، في الجنـوب باب « تفاغت » وهو أكبر أبوابها. إن هذا الباب الكبير الذي يطل على ميدان واسع بين الحدائق المحاذية للسور على طوله من الناحية الجنوبية يجاوره في الجهـة



منظر بلدة غات من فوق جبل كوكمين



منظر الجامع الكبير من الداخل في غات

اليسرى ميدان صغير تشاهد فيه جمال مربوطة على أعمدة خشبية وقطعان من الضأن والمعز وأناساً مجتمعة حولها : والغاتيين والغدامسيين والطرابلسيين من التجار جالسين على المصاطب المبنية على حافة مدخل الباب .

وترى الزنجيات « العتريات » الداخلات الخارجات من الباب لأجل حمل الماء والتارقيات اللاتي يهزن أرديتهن الطويلة ويتبخترن في مشيهن فبهذه الطريقة في جملتها فإن باب تفاغت أنشط محل في بلدة غات ، فكل ما تحمله القوافل من طرابلس وفزان والسودان وتوات تتكدس أمام هذا الباب ويزيد في منظر باب تفاغت الضعف يوم وصول قافلة كبيرة أو رحيلها فأذاك البضائع التجارية المغلفة بعناية ، وأكياس التمر والزاد وقرب الماء وصناديق الأمتعة (الصحاريات) وخلال هذه الأشياء كلها الوطنيين ووكلاء التجار الآتية لاستقبال وتشييع المسافرين والتجار ، والحمالين الزنوج الذين يتنافسون في تجاذب هذه الأشياء لحملها كل هذه الحالة تضيف رونقاً وجاذبية لمشاهدتها .

بعد باب تفاغت يأتي باب (قلالة) الذي هو مدخل لمحلة الغدامسية يواجهه سهل رملي واسع شرقي المدينة كشبح مظلم مليء بالأسرار . إن جلوس بعض التجار الغدامسيين للاستفادة من نسيم الليل المنعش على مصاطب هذا الباب لا تغير من وحشته وسكونه شيئاً .

وأما باب الخير في الشمال وباب الزاوية في الغرب فخاليان كلياً .

عند الدخول للمدينة من باب تفاغت يصادفك سوق غات وهو عبارة عن ستة أو سبعة حوانيت أمامها مصاطب طويلة مفتوحة إلى ميدان واسع تحتل هذه المصاطب كل يوم وقت العصر جماعات من التجار والوطنيين والتوارق يشتركون يومياً في المزايدة لشراء البضائع المعروضة .

المنسوجات القطنية والبصمة الملونة من منتوجات أوروبا وأردية طرابلس وتونس وتوات الصوفية والجلود السودانية وريش النعام ووسائد الجلد والأحذية كلها تباع بالمزاد في هذا السوق ؛ فأصحاب الحوانيت والدلالون كلهم يبيعون أمتعة

التجار الطرابلسيين والغدامسيين .

ومن جهة أخرى فإن أهم الصفقات التي بالجملة تعقد في مساكن التجار التي هي مخازن لأمتعتهم في نفس الوقت .

عندما تدخل إلى بيت تاجر طرابلسي أو غدامسي ترى في أكثر الأوقات بضعة أشخاص من العرب والتوارق جالسين بين بالات الأقمشة القطنية وتشاهد أحدهم وهو جالس القرفصاء ويتناقش مع التاجر الذي أمامه وقد طرح الدراهم المختلفة الأجناس في كفه ولكي يحل الحسبة المعقدة بالنسبة له يستغرق في محاسبة طويلة مع رفقائه .

إن أحد الشارعين المتفرعين من مكان هذا السوق يتجه إلى الشرق ثم إلى الشمال وينتهي إلى ميدان شيلي الذي يقع شرقي الجامع الكبير والقلعة القديمة .

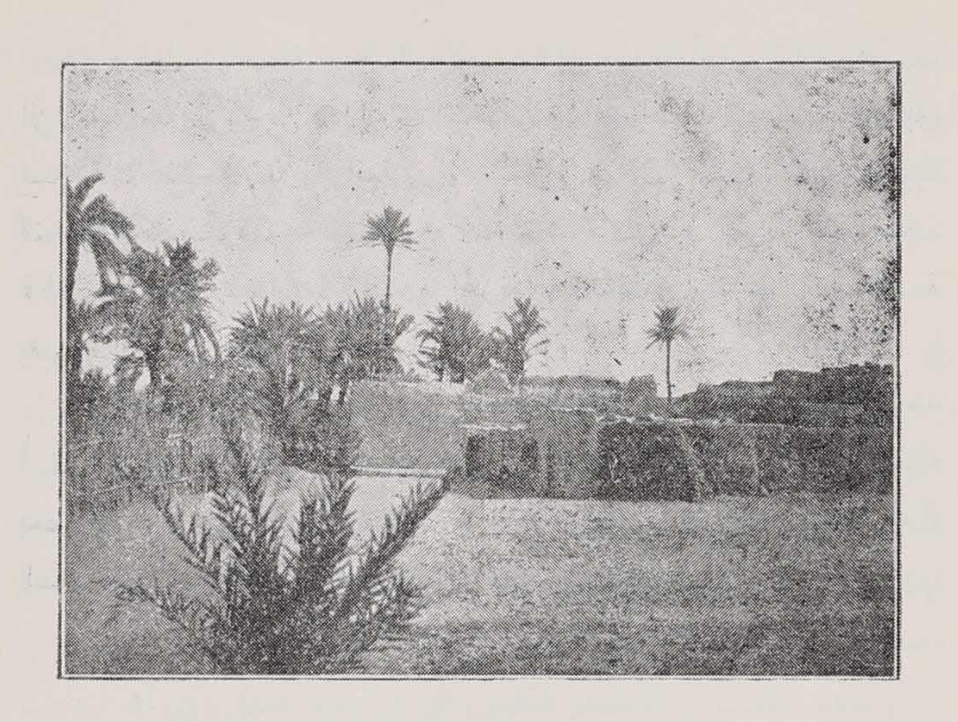
إن ميدان شيلي مجتمع أحرار غات ووجهاء التوارق من القديم .

إن المصالحة في الحروب القديمة التي وقعت بين الغاتيين والتوارق وتسوية خلافاتهم وائتلافهم كلها تمت في الإجتماعات التي عقدت من أعيان الطرفين في هذا الميدان لأجل ذلك له أهمية خاصة عندهم . كما أن الغاتيين والعتارة يجرون أكبر احتفالاتهم وأكثرها دائماً في هذا الميدان .

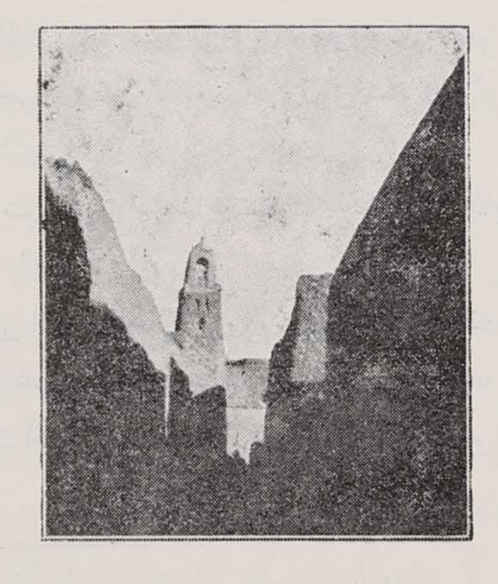
عند الدخول إلى الجامع الكبير المواجه لميدان شيلي تشاهد البئر الذي حفره أهالي غات بآلات الحفر التي جلبوها من تونس بعد اضطرارهم للاستسلام إلى التوارق نتيجة العطش في معركة وقعت بينهم في القرن الماضي ، وإلى جانبه صف طويل من الحفر لأجل الوضوء .

وبعد الساحة والدخول من الباب الثاني يرى داخل المسجد أربعة أقواس غير منتظمة .

مئذنة الجامع على شكل هرم ناقص والمسجد قائم على عشرة أعمدة كبيرة مبنية بالطين والجير وسقفه من شجر الاثل وفي يمين المحراب المنبر الذي هو عبارة عن درجتين . إن بناء الجامع بجدرانه المعوجة وأقواسه الغير متناظرة بمجموعها



الزاوية في غات



محلة تدرمت في غات

منظر عجيب والشارع الثاني الذي يفترق من السوق يتجه نحو الشمال ويصل إلى ميدان مربع أركانه الأربعة محاطة بالمساكن هذا الميدان هو سوق نساء غات .

عندما يبدأ الظل يمتد بعد العصر في الجهة الغربية تشاهد النساء العتريات جالسات بجانب الجدران وهن يبعن الحبوب والبقول كالعدس واللوبيا والبزيليا وبجانب هذه البقول الجافة الخضر الطرية كالقرعة والبطيخ والباميا الموضوعة في قفاف أمامهن وعلى بعد منهن زنجية مسندة حزم الحطب على حائط التي حملتها على رأسها من مسير ثلاث ساعات وهي تتناقش مع الزبائن من الجنود والأهالي. وهناك زنجية سمينة أمامها زنبيل مملوء بالتمر وهي متكئة على المد الذي تكيل به التمر للزبائن مسترسلة في الضحك مع بضع صبايا زنجيات حولها وأسنانهــا البيضاء الناصعة تلمع . ووسط كل هذه الجماعات تشاهد وجوه النساء التارقيات وهن يتبخترن بخطوات رزينة في وقار وسكون.وفي ناحية أخرى غاتي متكىء على عصاه الطويلة مستغرق في حديث مع طرابلسي يرتدي إحرامه، تشكل كل هذه الوجوه الوطنية والغريبة في هيئتها العمومية لوحة ذات منظر خلاب .

وهناك زقاق ضيق قسم منه مسقف يتجـــه من سوق النساء نحو الشمال وينتهي في الزاوية. إن الزاوية المربعة الشكل والتي هي بالنسبة للجامع الكبير أكثر انتظاماً ببابها ذي القوس الصغير وبمئذنتها الطويلة المطليـــة بالجبس ترى وسط المساكن المبنية بالطين السمراء كبقعة من جليد بيضاءوتشاهد بعض التجار والاخوان جالسين أو ممتدين على المصاطب المنخفضة أمام الباب وفي المدخل في انتظار وقت صلاة العصر وهم يتحادثون عن سفر القوافل التجارية أو عن أسعار البلدة أو على غارات وقعت على القوافل .

وتسمع أصوات مئات الأطفال وهم يتلون القرآن بصوت عال داخل الزاوية وتشاهد طفلاً يركض متأبطاً لوحه ليحفظ الآيات القرآنية المكتوبة فيه في ذلك اليوم في بيته .

من هنا طريق ضيقة مستقيمة متجهة إلى باب من أبواب البلدة وهو باب الزاوية وبعد الخروج من هذا الباب المنخفض تشاهد السهل الذي تمر منه طريق تينيزوفت المتجهة شمالاً الواقعة وراء كثبان الرمال غربي البلدة والمارة بين النخيل الكثيف وقمم جبل كوكمين الممتدة شرقاً . في يمين الطريق تقع مقبرة « للا رحمة » السيدة رحمة الكبيرة المحزنة التي تكوّن ارتفاعات متموجة بقبورها تغير من منظر السهل المستوى .

من يدري كم عدد الغرباء الذين تضم رفاتهم هذه المقبرة فقدوا حياتهم بعد أسفار مديدة مضنية في الصحارى ؟ فلا كتابة ولا علامة على قبورهم باستثناء بعض قطع الأواني الخزفية المتكسرة . إلا أن ضريح للا رحمة بقبته البيضاء الصغيرة وببضعة أعلام ملونة يغير هذا المنظر الحزين .

•

غات البلد

باستثناء بعض المباني فإن مساكن غات وضواحيها جميعها مبنية بالآجر . إن مقاومة هذا الآجر للأمطار النادرة النزول في هذه الأقاليم قليلة ولكنها بالنسبة « لفروع »[1] مرزق أكثر متانة .

إن شكل البيوت وطرز انشائها وتقسيماتها الداخلية مطابقة متشابهة لجميع مباني القرى في بلاد البربر .

عند الدخول من الباب الخارجي وهو باب ضيق منخفض والمرور من السقيفة وهي عبارة عن رواق طويل مسقف ينتهي إلى ساحة المنزل الداخلية ، إن السقائف تكون أفضل مكان يمضي فيه سكان البيت حرارة فصل الصيف المختنقة لبرودتها .

---

(١) نوع من الآجر أي طوب يستخرج من المستنقعات المالحة .

أكثر أهل غات والتجار يستقبلون زوارهم في السقيفة المفروشة بالحصر والزرابي على أرض رملية بيضاء نظيفة ويتكئون على وسائد من الجلد من صنع السودان محشوة بالشعر .

إن السقائف عموماً على شكل نفق طويل وضيق ومظلم تقريباً ولكنها مصانة من حملات الذباب المقلقة لذلك فهي أربح وأنظف بقعة في البيت وخاصة في فصل الصيف .

ساحة البيت الوسطى غير مسقفة تضيؤها الشمس في جوانبها الأربعة الحجرات والمطبخ وسائر المنافع وسواء الأبواب الخارجية أو الداخلية جميعها ضيقة وواطية جداً لندرة المواد الخشبية . إذا استثنينا أبواب السور الكبيرة فإن أبواب غات عموماً مصنوعة من ألواح الخشب المعوجة المقطوعة بالفيسان مصففة بين أحزمة من الجريد ومغلفة بجلد جمل .

ويقطع الخشب من الأشجار الكبيرة التي في أودية تاسيلي وإلى أن يتدرب الغرباء على الدخول من أبواب البيوت الواطئة فهم معرضون لضربات على رؤوسهم مدة طويلة .

إذا استثنينا بعض البيوت التي بنوها تجار طرابلس فإن جميع بيوت غات خالية من النوافذ وأكثر نوافذ هذه البيوت الحديثة مصنوعة أبوابها من خشب صناديق الشاي والشمع وغيرها من السلع التي لا زالت محتفظة بعلاماتها وأرقامها وهي ضيقة وبمصراع واحد . وفي الأوقات التي تغلق فيها هذه النوافذ بسبب البرد أو المطر تظل الحجرة مظلمة .

ولعدم وجود الأخشاب المتينة واللجوء إلى خشب النخيل والاثل القليل المتانة والمقاومة في التسقيف فإن الحجرات الطويلة الضيقة التي لا يدخلها النور إلا من باب ضيق واطىء المفروشة بطبقة كثيفة من رمل أبيض والمسقفة بأغصان أشجار الاثل وفروعها لها تأثير يضغط على الإنسان .

يرى في وسط كل حجرة موقداً من طين مدفون في التراب يوقد الغاتيون

النار في هذه المواقد في ليالي الشتاء من المساء حتى الصباح إتقاء البرد الشديد الخاص بالصحراء فيسود السقف من دخان حطب الاثل وجريد النخـل التي يشعل للتدفئة فيزيد في كآبة المنظر ووحشته . في ركن من الحجرة يرى مكان فراش النوم يفرقه عن بقية الحجرة حاجز به طبقة من الرمل أعلى من سطـح الحجرة فيصبح وكأنه سدة طبيعية . وتزين الحجرات بنقوش بربرية بدائية بسيطة .

عندما يصعد من سلم إلى فوق السطوح المغطاة بالطين والمحاطة بجدار يعلو إلى متر ونصف يشاهد بيوت الخلاء مبنية فوق الطبقة الأرضية ذلك لأن سفوح جبال كوكمن الصخرية الصلدة المبنية عليها بيوت البلدة لا يمكن انشاء مجـاري فيها ولا حتى حفر مستورة ولوجـود الجدار الذي يحيط بالساحة العليـا من البيت فإن السكان ينامون فيها في ليالي الصيف ذات النسيم المنعش .

في اكثر المباني الجديدة توجد غرف فوق الطبقة الأرضية ولكن أهل غات يفضلون قضاء النهار في حجرات الطبقة الأرضية ويتخذون الغرف مخازن لمتاعهم .

إن البيوت المبنية بالطين تظل حامية ومحتفظة بحرارتها في أيام الصيف إلى نصف الليل مما يجعل النوم فيها من المحال .

إن العتارة[١] ورجال غات عموماً يفضلون النوم في العراء على الرمال خارج البلدة التي تبرد بسرعة بعد الغروب أما النساء والأعيان ينامون فوق السطوح على أسرّة مصنوعة من جريد النخيل لاتقاء الحشرات السامة ومحاطة بمظلات من الجريد والسعف لأن الأهالي المحلية يعتقدون حسب تجاربهم أن نور القمر الساطع يسبب وجع الرأس .

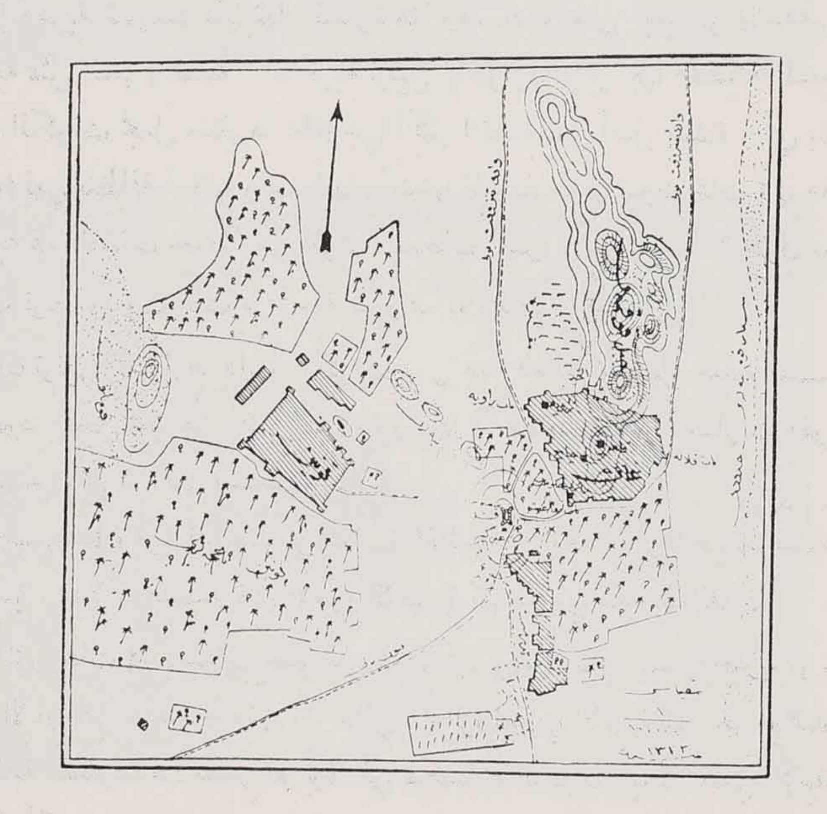
إن جدران ضفتي الأزقة الضيقة المعوجة التي تحميها حرارة شمس الصيف

(١) العتري أو العترية يطلق على العتقاء من الزنوج والجالية النيجيرية وغيرهـا من سكان الجنوب .

المحرقة تنشر حرارة مخنقة كذلك مهاوي جبال كوكمن الجنوبية تكون سداً حائلاً بين البلدة وبين هبوب نسيم الرياح الشمالية المنعشة .

عندما تكون درجة الحرارة شديدة لا تطاق بعد الزوال تجد في الأزقـة الضيقة ، وبعضها مسقوف كالنفق ، بعض الأهلين والبدو قد لجأوا إليها لتمضية وقت القائلة فيشاهد البعض جالسين وبعضهم ممتد في نوم عميق .

أما في الصباح فإن أعيان البلدة ووجوهـا يجتمعون في بعض السويحـات (الميادين الصغيرة) وفي هذه الأزقة الضيقة جاثيين ومتكئين على الحيطان مجتنبين الجلوس على الرمال التي بردت إلى أنهى درجة في الصباح وهم يتحدثون الساعات الطوال .



خريطة بلدة غات

تمتد بساتين النخيل من جنوب البلدة نحو الغرب فتبدو وكأنها جزر خضراء في الرمال التي تتخللها وفي جانب بساتين غات تشاهد الثكنة العسكرية المبنية بالطين بأبراجها الأربعة على حافة منبع (عين تشيت) وسط المثلث الذي يتكون من بلدة غات وقرية (تدومت) التي يسكنها العتارة الزنوج في الجنوب وقرية (تونين) التي يتوطنها مهاجرو توات في الغرب .

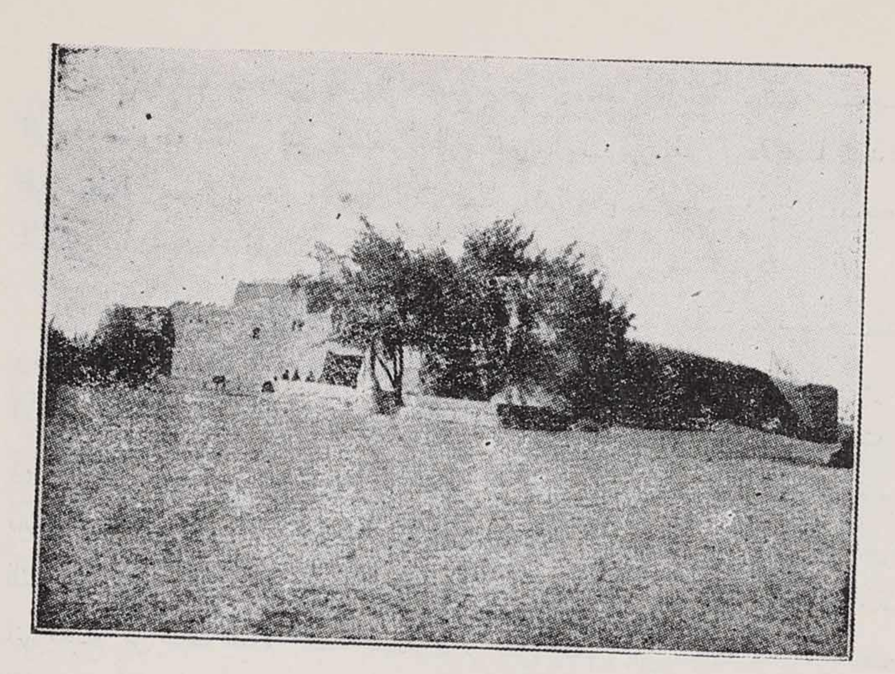
إن هذه الثكنة التي هي الأثر الوحيد للحكم العثماني في مركز تجارة الصحراء في الحقبة الأخيرة قد أنشئت من طرف قوات الاحتلال التي أرسلت للمرة الثانية بعد أن قضي على كتيبة من الجنود العثمانيين في القلعة القديمة التي داخل البلدة أثناء تمرد التوارق .

إن قرية تدومت بأبنيتها المبعثرة هنا وهناك وبعض جدرانها المتداعية الخربة تمثل الفقر والفاقة . أما قرية تونين بأسوارها وأبراجها الحصينة المديدة ذات الكوات تجعل منظرها الخارجي أكثر انتظاماً من أصل البلدة (أي بلدة غات) فهي بنظافة أزقتها واستوائها وأبنيتها المنسقة تفوق بيوت غات لأن هذه الأبنية قد أنشئت حديثاً من طرف أصحاب الثروة . ومع هذا لا فرق بين بيوت تونين وبيوت غات من ناحية طرز البناء والتقسيم الداخلي .

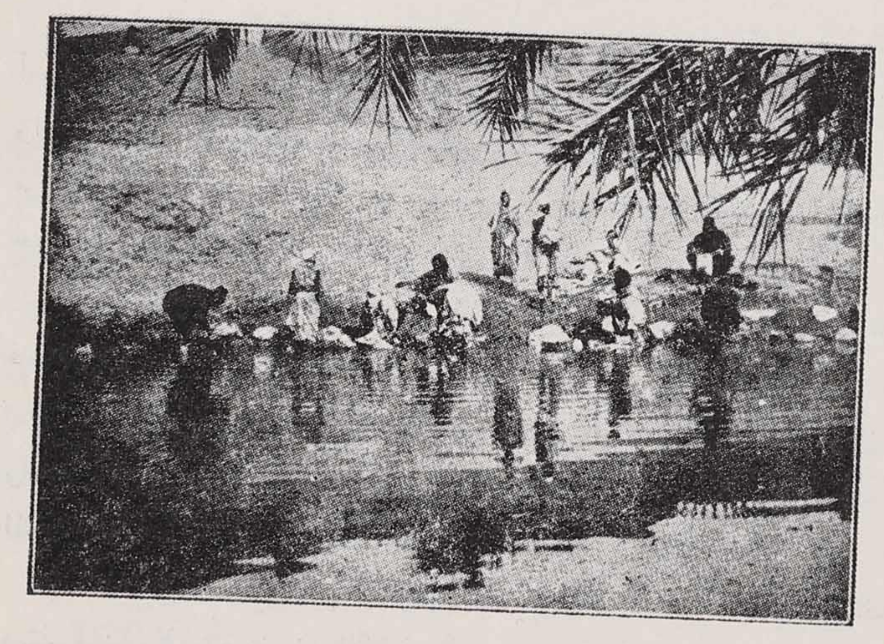
إن تونين بأسوارها ذات الكوات وأبراجها العالية وبفضل منبع الماء الموجود داخل سورها يمكنها المقاومة والدفاع لمدة طويلة ضد غارات أقوام الصحراء الذين لا زالت أسلحتهم بدائية .

جميع سكان قرية تدومت من العتارة ،فالفلاحة والحدادة والنجارة وصناعة الأحذية والدلالة والسمسرة في الأمور التجارية كلها بأيدي هذه الطائفة .

المزروعات في البساتين بضواحي غات تروى من منابع المياه الجارية أو من مياه الآبار التي تستخرج بشتى الوسائل . والزراعة في الأودية التي خارج البلدة في مثابة المعدومة فالأمطار الغزيرة التي يمكنها أن تكوّن سيولاً تكفي لإسقاء وادياً بأكمله من الظواهر التي لا تقع إلا مرة في كل ربع قرن .



المعسكر في غات



العين الكبيرة في غات

إن من أكثر صحاري إفريقيا جفافاً بعد الصحراء الليبية الواسعة القاحلة الواقعة جنوب بنغازي هي الصحراء التي تقع جنوب طرابلس فكلاهما لبعدهما عن منطقة أمطار البحر الأبيض المتوسط ومنطقة أمطار السودان أصبحتا محكوم عليها بالعقم المديد .

في السنة التي وصلت فيها إلى غات هطلت أمطار طوفانية غزيرة جداً وسالت الأودية وزرع وادي تينيزوفت قمحاً وشعيراً . وحسب تأكيدات الأهالي إن هذه البلدة كانت تتحسر لأمطار مثل هذه منذ ثلاثين سنة مضت . في جوار البلدة وضواحيها توجد أكثر من خمسين عين ماء بين كبيرة وصغيرة من بين هذه المنابع المائية الجارية منابع كبيرة كعين « تشيت »و« تونين» و«نابوس» التي نظراً لدرجة حرارة مياهها البالغة (٣٩° — ٤٠°) سانتيغراد لا شك انها تنبع من طبقة مياه عميقة مشتركة لا يقل عمقها عن ١٢٠٠ متر من سطح الأرض . أكثر المنابع في هذه المنطقة معرضة لتسلط الرمال .

إن مياه المنابع الكبيرة مقسمة على حصص بين الفلاحين وتقسيمها لا يتبع أصول البلاد الأخرى حسب قطر الأنابيب أو السواقي بل باعتبار الزمن بالساعات والأيام بالمناوبة لذلك فإن بعض المستحقين لا يحصلون على دورهم في الإسقاء إلا مرة بعد يومين . وفي الأيام التي تهب فيها رياح الجنوب الشديدة الحرارة يسوء حظهم وهم ينظرون إلى مزروعاتهم ومغروساتهم قد يبست وجفت .

أما البساتين الصغيرة التي ليس لها نصيب من مياه العيون تسقى المنبوتات فيها من الآبار بواسطة الأبقار .

كما أن جميع الحبوب التي تزرع في فزان تنمو هنا ، كذلك جميع الخضر والفواكه التي تحصل في حوض البحر الأبيض المتوسط موجودة إلا أن الأشجار المثمرة قليلة العدد .

إن الغاتيين المساكين الذين لا يعرفون ما لأكل الخضر الطرية من قيمة غذائية ويتذوقونها ولا ينتجون منها إلا النذر اليسير .

بجوار العين الكبيرة الذي يملأ ماؤها حفرة عميقة ويسيل في مجرى إلى خارجها تشاهد جماعات من الناس رجالاً ونساء منهم الأبيض والأسود والجندي والعتري والعترية وهم ينشرون ملابسهم بعد غسلها على حجارة صغيرة على سطح الرمال الصفراء الحامية ، تشوه الملابس المبتلة الرمال فيصبح لونها أصفر وبعد جفافها إذا نفضت من ذرات الرمال يرجع لها لونها الطبيعي .

إن أنسب مكان للتسلية والتفريج عن النفس حول منابع المياه حيث يجتمع الأهالي والغرباء نماذج من كل جنس من البشر . أما في زمن ورود القوافل فتشاهد قطعان الإبل وهي مادة رقابها على سطح الماء الراكد تعب الماء ورؤوسها هابطة ناهضة تحرك أذيالها يميناً وشمالاً باستمرار فرحاً ببلوغها مشتهاها بعد جهد طويل عبر الصحراء. كل ذلك في مجموعه يشكل منظراً يستحق مشاهدته .

●

سكان غات

أصل سكان غات القدماء من البرابرة الذين جاؤوا إليها من المغرب الأقصى وهم الآن لا يتعدون الثلاث أو الأربع أسر ،أما أكثر السكان في الوقت الحاضر فعناصر مختلفة من العتارة والتوارق وأهل توات الأنصار وأهل توات المهاجرين المقيمين في « تونين » والغدامسيين . ونظراً للاحصاء الذي أجريته للمرة الأولى كان مجموع نفوس غات وتوابعها المتوطنين ٣٢٠٠ نسمة . إن المواليد عند أهل غات الأصليين والأنصار قليل جداً ولكن بيوت العتارة تعج بالاطفال ، فإذا استمرت نسبة المواليد على هذا التفاوت فإن الجنس الابيض سيضمحل بمرور الزمن وسيتغلب الجنس الاسود من العتارة وسيأتي زمن تكون فيه غات بكاملها مسكونة بالزنوج .

بلدة غات قبل الحكم العثماني كانت تحت إدارة مستقلة فرضتها أسر من الانصار التواتين بالقوة على الغاتيين القدماء أما بعد احتلالها من طرف الجنود

العثمانيين انتقل الحكم فيها من الإدارة المستقلة إلى الحكم والنفوذ العثماني وبقي قسم من إدارتها بيد الانصار وهذا الوضع استمر إلى تاريخ وظيفتي هناك وظل هذا الوضع سائداً بالنسبة للانصار كحق تاريخي مكتسب .

الغاتيون والعتارة وأيضاً التوارق يلبسون سروالاً واسعاً طويــلاً وقميصاً كبيراً واسع الاكمام ويضيف متوسطو الثروة فوق القميص ثوباً فضفاضاً مزركشاً أزرق اللون من صنع السودان يجلب بواسطة القوافل من « كنو » .

ويعصبون رؤوسهم مثل التوارق ويتلثمون بنقاب أسود يغطي أفواههم إلى ذقونهم وخصوصاً إذا صادفوا سيدة من الاحرار ، فوفقــاً لعادات التوارق يسارعون لستر وجوههم وخاصة أفواههم. والاغنياء يلبسون أحذية (شباشب) سودانية مزركشة . يضيف الاغنياء إلى هذه الملابس في الشتــاء برانيس الملف الطرابلسية والفقراء أردية من الصوف الابيض.

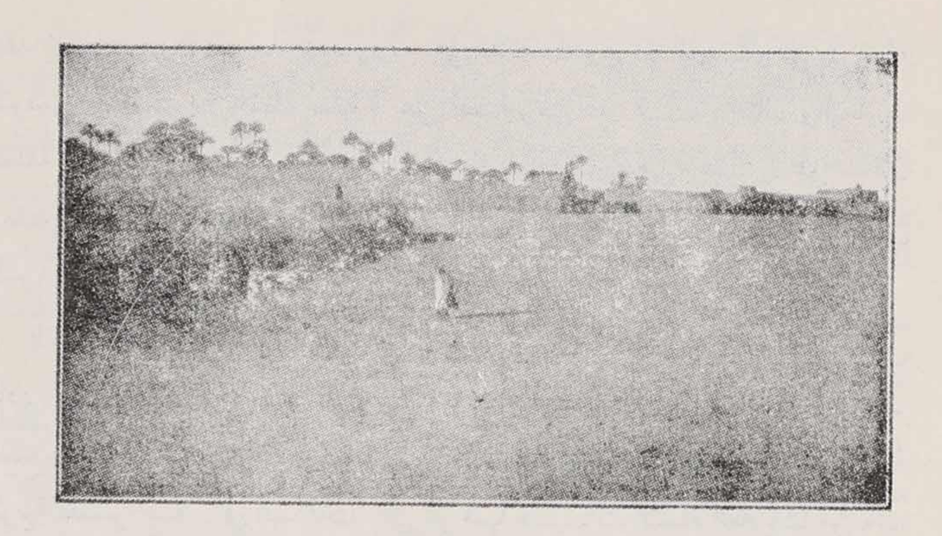
عادات الغاتيين والتوارق متشابهة تقريباً وخصوصاً في الملابس والزينــة لا يوجد أي فرق بينهما .

فوق ملابسهم يعلقون الأحجبة فالفقير والغني كل الغاتيين يشاهد عليهم عدد من الأحجبة المربوطة في سير من الجلد يتدلى من رقابهم . وفي غات الكثير من المدلسين الذين يعتمدون في معيشتهم على كتابة هذه التمائم .

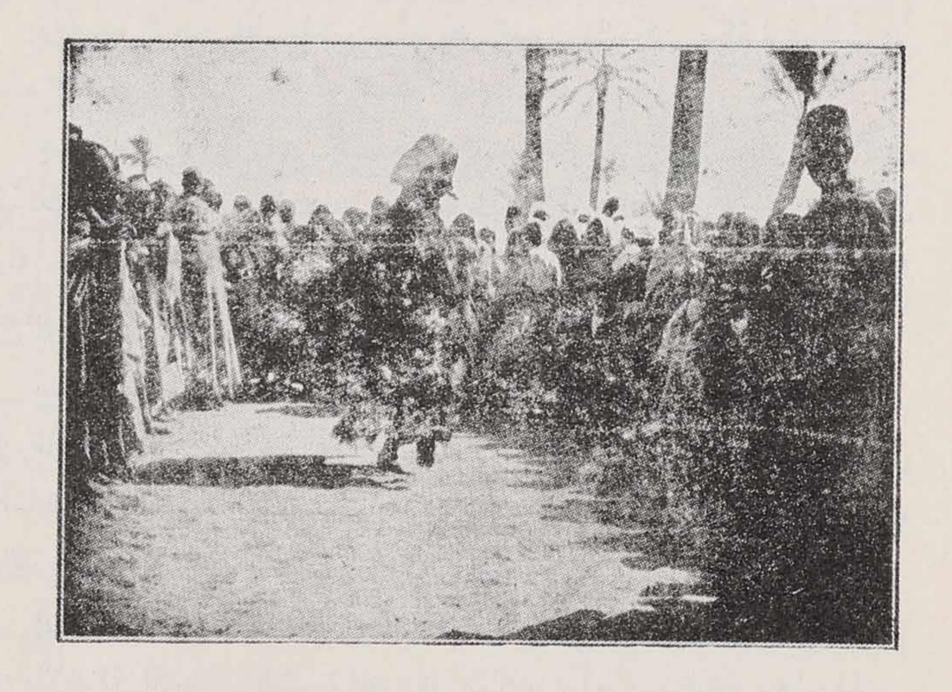
أنواع كثيرة وأشكال غريبة من الكتابات والأرقام والرموز والتعاويــذ وخاتم سليمان يوهمون الناس أنها تقيهم من الرصاص فلا يخرق أجسامهم ولا تؤثر فيها السكاكين القاطعة وتحول دون شر الشياطين وتحفظهم من عيون الحساد ، وصالحة لحمايتهم من آلاف المصائب فتراها معلقة في عقد في رقابهم وعلى عمائمهم وفوق رؤوسهم وعلى جباههم في محافظ من الجلد على شكل مستطيــل . لقد استغربت جداً أول ما رأيت شيخ قبيلة هقار الشيخ آتيسي Eteyssi[1] وفي رقبته

---

(١) الشيخ آتيسي في زمن رياسة خاله الشيخ آهيتاغل (Ahitaghil) لقبيلة هقار هجم على بعثة فلاتير الفرنسية وقضى عليها وبعد وفاة خـاله تولى رياسة القبيلة وعقب احتلال الفرنسيين لاراضي هقار هاجر إلى الاراضي العثمانية (إلى غات) .



قرية تونين من ضواحي غات



احتفال في غات

عقد يحتوي من التمائم ما يزيد وزنه على ثلاثة كيلوغرام تقريباً وعلى طربوشه التونسي صففت ٢٤ محفظة صغيرة من الفضة ومن غير هـذه التمائم والتعاويذ المعلقة تتدلى أدوات أخرى مربوطة في خيط مفتول وهي عبارة عن سكين ومقص ، وحمل السبحة عند جميع الغاتيين وخصوصاً التوارق رجالاً ونساء من الشروط اللازمة .

النساء عموماً يلبسن أثواباً طويلة مثل الرجال ويلتحفن برداء من قماش عادي يسمى «العبروق» والأغنياء منهن يرتدين أردية ملونة من صنع بلدة توات. جميع نساء غات يدهن شعورهن بالسمن وبعد بضعة أيام يتحلل وتبـدأ رائحة كريهة تنتشر منه . في الساعات التي تمر فيها مئـات النساء العتريات من باب تفاغت لحمل الماء يضطر المارون والجالسون هناك إلى سد أنوفهم من شدة العفونة الصادرة من شعورهن .

وينسب التجار الطرابلسيون أمراض العيون المتمكن بكثرة في غات إلى هذه الرائحة الكريهة .

يمتاز اللون الأزرق لدى جميع بدو الصحراء ويفضل على غيره من الألوان كذلك التوارق وأهل غات لديهم رغبة شديدة في « النيلة » وهي صبغـة ذات لون أزرق غامق وغالب الظن أن الميل الكبير للون الأزرق وتفضيله يرجع لقلة الصابون عندهم فهو لون يخفي الأوساخ .

يوجد ميل شديد للنيلة عند التوارق والغاتيين حتى انهم يبلون المنسوجات الزرقاء الداكنة الآتية من السودان في الماء ويلونون أيديهم إلى المرافق بالأزرق وأما النساء بالاضافة لذلك يصبغن به وجوههن وخدودهن بدلاً من البودرة البيضاء والوردية التي تستعملها النساء الاوروبيات في التجميل .

إن الذين لا يعرفون الغاتيين الذين هم من الجنس الابيض والتوارق يخيل لهم انه بالإضافة للاجناس البشرية المعروفة هناك نوع آخر من البشر وهـو الجنس الازرق والزنجيات الـلاتي يلمعن شعرهن الاسود بالسمن ويصبغن خدودهن

بدائرة حمراء في أيام الحفلات يظهرن بمنظر غريب للغاية .

الاثاث البيتي والمفروشات عند الغاتيين عبـارة عن بساط من صنع توات مفروش في الحجرة وبضع وسائد من جلد محشوة بالشعر وشمعدان أو اثنان وصندوق (صحارية) عليه طاقم الشاي وفي بيوت الاثرياء بعض زجاجات ماء الزهر والورد وبضعة أقداح وأوان من الخزف والزجاج أما أدوات المطبخ فهي عند الاغنياء من النحاس وعند الفقراء من الطين ،وصحن الطعام الوحيد قصعة من الخشب سوداء بتأثير المواد الدهنية .

صناعة الطبخ لا زالت بدائية فهي عبارة عن مرق اللحم أو شوربة خضار من البامية والقرعة والملوخية .

توضع القصعة على حصير من سعف النخل ويصفف الخبز حولها .

الغاتيون وخصوصاً الفقراء منهم باستثناء الايام الخاصة يكتفون بأكل « الفجيرة» أو « الدشيشة »، الفجيرة عبارة عن جبن يابس مصنوع من لبن المعز والتمر ، والدشيشة الشعير المحمص أما أطعمة اللحم فلا تؤكل إلا في المناسبات .

ومع هذا فاني رأيت في بيوت الانصار الذين يسكنون تونين أنواعاً من الحلويات والغريبة والكعك لا شك أنها من صنع الزنجيات الـلاتي عشن في طرابلس .

ومن عاداتهم أن يشربوا الشاي الاخضر المحلى بكثير من السكر في الصباح مثلهم مثل شعوب الشمال الافريقي الذين أعتادوا شرابه ثلاث مرات في اليوم . السكر له عندهم مكانة قيمة جداً لذلك فإن الغاتي يمكنه أن يودع عند زوجته نقوده وأشياءه الثمينة ولكن مفتاح صندوق الشاي والسكر المربوط في سير من الجلد المعلق في رقبته لا يأتمن عليه أحداً لأن أعـداء السكر والشاي في البيت كثيرون .

إن سوء الحظ في حياة الغاتيين البيتية والاجتماعية من نصيب الرجال ذلك لأنهم كالتوارق ليس لهم أي حق فيما يخلفه الوالدان من الأموال المتنقلة فهي من حق البنات وبالتالي فان جميع الأموال غير الثابتة بيد النساء وليس للرجـال فيها أي حق للتصرف .

فالولد لا يعتمد في معيشته إلا على ما يكسبه نتيجة سعيه وكده . وبذلك فقط يمكنه أن يكون ذا مال ومن أجل هذا فان الرجل في الحياة الزوجية يظل تحت حكم الزوجة كثيراً ما يشاهد ـ عندما يفترق الزوجان بعد نزاع ـ الزوج المسكين وهو خارج من البيت لا يحمل إلا ملابسه التي عليه وعصاه الطويلة التي في يده .

ولكن أسباب هذه المنازعات كثيراً ما يحدثها الرجال ،فالرجال تحت حراسة شديدة من طرف أزواجهن ، يكلفن الخادمات بمراقبتهم ، إن الأزواج الذين يبقون خارج المنزل بعد صلاة العشاء والذين يرجعون إلى بيوتهم في ساعة متأخرة تقفل في وجوههم الأبواب ويعاقبون بالمبيت في الأزقة . وإذا تكررت مثل هذه الحالة تسبب عدم الامتزاج وتستمر هذه المنازعات إلى أن تنتهي بالفراق . ولقد وجد الرجال وسيلة تقلل من تشدد النساء بتأجيل صلاة العشاء إلى وقت متأخر حتى يتسنى لهم تمديد السهر بحرية .

إن زوجات الأحرار من أعيان غات لا يخرجن من بيوتهن في الأحوال العادية إلا في المناسبات كالأعياد والأعراس والاحتفالات العامة وخصوصاً في يوم الاحتفال بيوم عاشوراء ويسمونه سبيبا « Sbeyba » فيصعدن جماعات فوق السطوح لمشاهدة مواكب الاحتفالات وفي ليالي المولد النبوي يجتمع الرجال لتلاوة قصة المولد في المساجد وتخرج النساء زرافات كبيرة يزرن جميع المساجد والأضرحة التي في البلدة .

والحفلات عبارة عن رقص يشترك الرجال والنساء من العتارة ودخول الاحرار للحفلات واشتراكهم في الرقص من الامور المعيبة جداً .

رقص واحتفالات

مما لا شك فيه أن رقص الرجال والنساء وأوضاعه المختلفة نوع من رقص البربر القديم لانه لا يشبه في وضعه وأشكاله رقص السودان في الجنوب ولا رقص



الغاتيون



ضيافة الشاي في ضواحي غات

العرب في الشمال وخاصة رقص فزان . فبقدر مـــا في رقص فزان من حركات تثير الغرائز الجنسية فان رقص رجال غات بحركاتهم الحربية وألعابهم بالاسلحة وسيرهم بخطوات سريعة متزنة ودوران النساء في رقصهن حول مركز واحـد وتحريك القسم العلوي من أجسامهن في دورات هلزونية إلى آخر درجة من المهارة والاتقان وهز أذرعتهن إلى الامـــام والخلف وتلفتهن إلى اليمين والشمال من الرقصات الجميلة الممتازة جداً إن هذه الحفلات تقام في الاعراس والاعياد الدينية وفي أعياد الحكومة الرسمية . وفي يوم عيد سبيبا وهو اليوم العاشر من محرم الحرام الذي له مكانة خاصة عند التوارق .

إن الاحتفال بالعاشر من محرم الذي بقي من عادات الامويين والذي يحتفل به جميع سكان الشمال الافريقي يسمى عند التوارق « سبيبا » .

يبدأ هذا الاحتفال في ليلة العاشر من شهر محرم الحرام بجماعة كبيرة يتقدمها الطبل والمزمار لزيارة المقابر التي حول البلدة والترحم على الارواح ويستمر ثلاثة أيام بلياليها . ويعتقد التوارق أن «سبيبا» ليلة تقدر فيها أعمارهم وما سيقع لهم في طول السنة .

يتزين الرجال والنساء بأكاليل من سعف النخل عجيبة الشكل ويتحرك هذا الجمع العظيم تحت نور قمر باهت بلا مصابيح ولا قناديل تقطـع المسافة وهي تتصايح صيحات موحشة ويطارد بعضهم بعضاً باغصان الرمان الطويلة ويحمون أنفسهم بتروس من الجلد ويرقصون رقصات عجيبة غريبة .

تصوروا مئات من البشر مادين أذرعتهم في مستوى أفقي كدراويش المولوية ورقابهم منحنية على أكتافهم وهم يلوحون بثيابهم ويسيرون قافزين في صحراء طويلة خالية ، ثم تخيلوا ان هذا الجمع العظيم قد توقف فجأة وكوّن حلقـات للرقص يتضارب ويتصايح صيحات جنونية ثم أضيفـــوا لهذه الضوضاء نغمات موسيقية متزنة متواصلة وبهذا صرتم وكأنكم شاهدتم احتفال الليلة الاولى من عيد « سبيبا » .

وهكذا بعد الانتهاء من زيارة المقابر التي خارج البلدة وبعد أداء الواجب نحو أرواح الموتى وتطييب خاطرهم يرجع الجمع إلى ميدان شيلي وهناك يستمر الحفل بالرقص الفوضوي ونغمات الموسيقى المحزنة الموحشة إلى آخر الليل . أما الرقص الذي يجري في اليومين الثاني والثالث من سبيبا فلا يقاس برقص زيارة القبور في الليلة الأولى . فالاحتفال في الليلتين تقوم به جماعة ترتدي الملابس الانيقة جداً وتعرض رقصات شيقة منظمة للغاية تستحق المشاهدة. ولتكوين فكـرة خاصة



شاب غاتي

عن هذا الاحتفال سأحاول تعريف هذه الرقصات :

تدخل الاحتفال تشكيلات من الرجال بلباس التوارق القديم وزيهم مسلحين بالاسلحة النارية وعلى رؤوسهم الطرابيش التونسية ذات الخصلة الزرقاء الطويلة وملثمين بلثام أزرق لامع يستر معظم الوجه وتتدلى فوق القمصان والجبب المختلفة الألوان التمائم والأحجبة ومتمنطقين بأحزمة حمراء لابسين السراويل الواسعة والأحذية الصفراء ويرقصون بهذا الزي .

أما النساء فيلبسن فوق لباسهن المعتاد العباريق[1] الجديدة النظيفة ويتحلين بأقراط من الفضة قطرها من ١٠ – ١٥ سنتيمتر ويصففن على جباههن صفاً من المسكوكات الفضية اللامعة ويعلقن في طرف كل ذؤابة من شعرهن اللامع نقوداً فضية صغيرة ويلونّ خدودهن باصباغ حمراء . وأكثر ما يجلب النظـر خواتمهن وفصوصها من (الريال أبي طيرة)[2] فالتي تلبس خاتماً أو خاتمين من هـذا النوع لا يمكنها تحريك أصابعها بسهولة .

تصطف الفرقة الموسيقية بآلاتها في وسط المكان الذي يجري فيه الاحتفال وهي عبارة عن مزمار وأربع نقارات صغيرة . إلا أن عازف المزمار يكون من الرجال والنساء يدقن الطبول وفي أكثر الأحوال تتولى شيخـات النساء العتريات هذه المهمة وتقسم الهدايا والعطايا التي تجمع بينهن فقط . ولكي تجمع الفرقة الموسيقية الراقصات والمغنيات تبدأ بالعزف في صف واحد وتسير إلى الأمام وإلى الخلف في دائرة وسعها خمس عشرة خطوة تقريباً . فتخف العتريات جرياً على صوت الموسيقى ويكونّ نصف دائرة في ساحة الرقص ويغنين ويصفقن ويشتركن في الرقص وعند وصول الرجال لمكان الرقص يقفون ويشترط لدخولهم ساحته والاشتراك فيه أزواجاً فلا بد لكل واحد أن يختار رفيقاً لدخول الساحة

(١) اردية أو اثواب فضفاضة.

(٢) سكة نمساوية من الفضة تسمى مارية تاريزة .

وعلى هذه الصورة يدخلون أزواجاً متماسكين بالايـدي وأكتافهم متلاصقة ويلوحون بأيديهم المنطلقة بأسلحتهم فوق رؤوسهم وهم يقفزون وبعد الدوران مرتين في ساحة الرقص يلتقون خلف الفرقة الموسيقية ليأخـذوا أمكنتهم في صفوف وتشرع هذه الصفوف الحاملة للبنادق في حركات إلى الأمام وإلى الخلف مقلدة أنواعاً من الأوضاع الحربية ، وتارة يكوّنون صفوفاً متقابلة متخاصمة ويأخذون الفرقة الموسيقية في وسطهم ويستمر الرقص على هـذا الحال صاخباً الساعات الطوال . أثناء هذا الرقص تصفق النساء المحيطـات بالساحة ويغنين



عترية في غات بلباس الحفلة

ويتمايلن يميناً وشمالاً تبعاً للحركات الرقصية والانغام الموسيقية . عندما يشاهد الناظرون صفوف النساء من بعد وهن يتمايلن يخيل إليهم أنهن يتحركن جميعاً كامواج منتظمة .

وغير هذه الرقصات التي هي نسخة من رقص البربر القديم هناك ألعاب أخرى يقوم بها أهل توات المقيمون في غات وهي ألعاب يصحبها إطلاق النار دفعة واحدة بناء على أمر يصدر لهم من كبيرهم . أما رقص النساء المسمى « تيللوكي » فهو أكثر فناً واتقاناً بالنسبة لرقص الرجال وأكثر متعة للمشاهدين .

تصوروا راقصتين تدوران حول مركز مشترك متحرك . إن دورانها حول مركز واحد ودورانها حول بعضها في آن واحد ودق أقدامها وتحريك القسم الاعلى من جسديها وهز ذراعيها تبعاً لمتطلبات فن الرقص، لمشهد جذاب رائع. إن هذا النوع من الرقص لا تصحبه الموسيقى ويجري وسط دائرة تحيط بها النساء يغنين ويصفقن وتدور الراقصات داخل هذه الدائرة كالمروحة ، إن



بعض أوضاع هذا الرقص فوضوية تشبه الرقص المعروف عند الأوروبيين بـ (لا دانس ساربانتي) .

تتحزم النساء اللاتي يرقصن رقصة « تيللوكي » بحزام أحمر فوق خصورهن ويحذفن أرديتهن إلى الخلف ولا يبقى عليهن إلا قميص ضيق ملتصق بالقسم العلوي من أجسادهن فيبدو بارزاً للعيان ظاهراً تماماً أثناء الأوضاع الرقصية. إن رقصة تيللوكي ترقصها النساء وتقع في محيط نسائي أما في الحفلات الكبيرة فترافق النساء الرجال ولكنهن يغنين فقط ولا يرقصن .

وفضلاً عن هذه الحفلات الكبيرة تعقد جمعيات للرقص في الأيام العادية وخصوصاً الليالي المقمرة حيث تشترك العتارة في الرقص على انفراد ويعزف لكل واحد لحنه الخاص، وفي مثل هذه الحفلات تقف شيخات العتارة على أحرار البلدة وعلى أعيان التوارق وعلى موظفي الحكومة وعلى التجار وبالاختصار على كل من يمررن عليه فيغنين ويتلقين العطايا. ولكي يحصلن على مزيد من العطايا يرتبن ألحاناً ويعزفن عزفاً مختلفاً خاصاً باحرار البلدة وكبار التوارق فيعجبهم ذلك ويطربهم فيتنافسون في إكرامهن . وأحياناً يراجع أحد التوارق الشيخة شخصياً لتضرب الطبل عليه وتغني عليه وحده ساعات متواصلة فيخرج كل ما في جيبه من نقود ويدفعها لها .

عندما شاهدت في يوم شديد الحرارة شاباً من أحرار التوارق يحب الظهور بمظهر العظمة متكئاً على جدار داخل باب تفاغت وعلى رأسه فرقة العتارة الموسيقية التي هي عبارة عن زمارة قربة وثلاثة طبول تعزف وتدق بصورة جنونية ظننت أنهم يفعلون ذلك لاغواء هذا الشاب المسكين لسلب أكثر ما يمكن من نقوده وحاولت منعهم ، ولكن الحاضرين هناك طمأنوني بانهم يعزفون لحناً خاصاً يعجبه بناء على طلبه ومنعوني من التدخل . وهناك رقص آخر غير تلك الرقصات خاص بالبنات اللاتي سنهن دون الاثنتي عشرة سنة ولكنه نادر جداً .

إن ورود القوافل المتواصل بنظام والغرباء المختلفي الأجنـــاس والانساب الذين يصلون من الشمال والجنوب والوطنيين والتوارق وحياتهم ومعاشرتهم وطباعهم العجيبة ورقصهم واحتفالاتهم تبقي كلها على ذكريات بلدة غات عند زائريها فلا تنسى بسهولة ولا تمحى من الذاكرة على طول العمر .

إن بلدة غات بمواردها الثابتة اليوم بالنسبة لبلدة مرزق التي تصارع الفناء بعد توقف تجارة برنو لا زالت تحتفظ بحياتها في وسط الصحراء شابة قوية تقاوم محن الدهر وحملاته ، ولكن بعد أن ربط الانجليز تجارة « كنو » بخط حديدي إلى خليج كينيا من جهة وبعد أن بذل الفرنسيون جهدهم لتحويل تجارة الصحراء الكبرى إلى تونس من جهة أخري وقد تحولت فعلاً وأخذت طريقاً آخر فماذا سيكون مصير غـات التعسة في وسط الصحراء يا ترى ؟ فهي أيضاً سيكون مصيرها الانقراض كمرزق وربما أسرع منها وستنسى تحت رداء من الغبـــار الذي تكومه الاعوام .



رقص طفلة في غات



عترية في الحفلة

التوارق

اسألوا قوافل التجار الذين يقطعون إفريقيا من أعلى إلى أسفل ، متوجهين من شمالها إلى جنوبها ، من ساحلها الشمالي إلى وسطها ، إلى بحيرة تشاد ونيجيريا ما الذي يثير شعورهم في هذه الصحارى الواسعة الخالية غير المسكونة ؟

إن التاجر الذي يهتز فوق الجمل ، وفقاً لسيره ، يقطع الصحارى الشاسعة والحمادات الواسعة المغطاة بالحصباء بخطوات هادئة متزنة ، المستغرق في التفكير العميق في هدوء وإيمان لا يلهيه عن تفكيره العميق ويثيره وينبهه إلا إذا لمح أشباحاً متحركة في الآفاق هي تشكيلات من راكبي الهجين ، نعم راكبي الهجين أو المهارة – كما يسميها أهل البلاد .

من هم ؟ أأعداء ؟ أم أصدقاء ؟

هذه هي الأسئلة المرهبة التي ترعب قافلة تجارية كبيرة تسير معلقة كل آمال مكاسبها وأرباحها على مفاجآت الصحراء .

تقترب الأشباح التي في الأفق ، المهارة الجميلة بأرجلها الدقيقة الطويلة وأجسامها النحيلة ورقابها الطويلة ورؤوسها الصغيرة بنظراتها البراقة الهادئة وعليها رجال ملتفون في أثواب زرقاء ملثمون ، يديرون رماحهم الحديدية ويهزونها في الهواء في أوضاع معينة ، واضعين أرجلهم على رقاب جمالهم . إنها أزياء موحشة

ومخيفة بالنسبة لنا ، مرعبة جداً ، فهؤلاء هم التوارق ! وحينذاك يتنفس كل من في القافلة الصعداء .

نعم ، إن التوارق بما فيهم من مساوىء فإرضاؤهم ممكن ومقاومتهم سهلة . لقد اتخذوا النهب والسلب وسيلة منذ أقدم العصور من أجل العيش في حياتهم الصحراوية التي تفرض عليهم شرطين أليمين : العوز والجوع . بعد أن يقتطفوا من القافلة برضائها أو غصباً ما يشبع بطونهم ، وبعض الملابس ، يستمرون في طريقهم .

والآن يجب تصحيح الأفكار الخاطئة التي بثها الرحالون من الأوروبيين في القرنين الأخيرين في حق التوارق . سأحاول – قدر الإمكان – تكوين فكرة في وصفهم ، ذلك لأني عاشرتهم لمدة سنتين متواصلتين واتصلت بهم في البلدة وفي السفر وفي معسكري وفي مراعيهم وفي خيامهم ، ولاحظت كل صفحات حياتهم وفحصتها عن قرب وتمكنت من النفوذ إلى داخل نفوسهم .

* * *

في الزمن الذي حكم فيه الفينيقيون البلاد العامرة الكائنة على سواحل البحر الأبيض الجنوبية إلى سلسلة جبال الأطلس ، والرومان من بعدهم ، كان أقوام يسكنون سفوح الجبال المذكورة يطلق عليهم (جيتول) قبائل صحراوية معروفة بالتوحش والنهب والسلب والتجاوز . كانوا يندفعون نحو الشمال لمهاجمة الشعوب المتمدنة في المستعمرات الساحلية كلما أحسوا فيهم ضعفاً ، فيخربون وينهبون ، وعندما تستعيد شعوب السواحل قدرتها وقوتها يضطرون إلى التقهقر ويرجعون للصحراء التي في الجنوب للعيش فيها .

تفرعت من هؤلاء الجيتول في القرون الوسطى القبيلتان البربريتان الجسيمتان المعروفتان : زناتة وصنهاجة ، وقبائل التوارق المختلفة الموجودة الآن .

يقول المؤرخ ابن خلدون عند بحثه عن الصنهاجيين الملثمين انهم كانوا في

الأزمنة القديمة قبل الإسلام يسكنون الصحارى الجنوبية ويعتمدون في معيشتهم على لحم الإبل ولبنها لبعدهم عن مناطق جبـــال التل المنبتة الخصبة ، وانهم يجتنبون التقرب من الأقوام المتمدنون والاختلاط بهم ويعيشون على انفراد . ويصفهم بالشجاعة والخشونة ويقول إنهم لم يرضخوا لحكم الاجنبي أبداً .)

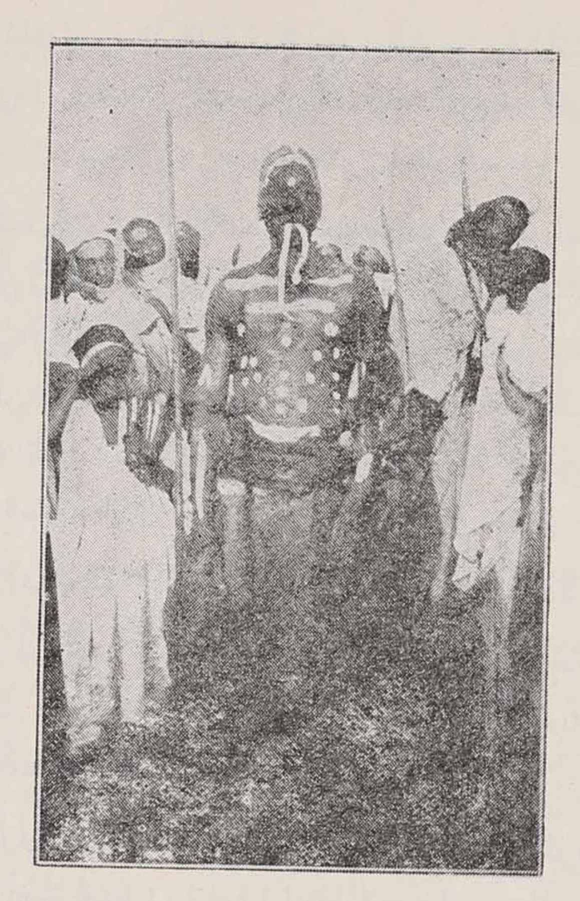
إن تعريف المؤرخ الشهير هذا يطابق أحوال التوارق اليوم تمامـــاً . وفي وصف ابن خلدون أيضاً لاحفـــاد الجيتول في القرن الميلادي السابع يقول : « رماحهم في أيديهم راكبين على جمالهم يجوبون الصحراء دائماً يقومون برعي حيواناتهم وتنميتها ويغيرون على أبناء السبيل ويسلبونهم » . إن هـذا الوصف في هذه الصورة يتجسم تماماً في توارق اليوم .

إن كلمة التوارق جمع لكلمة التارقي المفردة ، ذلك لأن العرب أطلقوا عليهم اسم التوارق نسبة لقبيلة « تارغا » إحدى قبائل البربر القاطنـة في الصحراء الممتدة من المحيط إلى غدامس في القرن التاسع الهجري .

يسمي الطوارق أنفسهم (ايموهاغ Imohag) ولغتهم (تاماهاغ Tamahag) هاتان الكلمتان من الاسماء البربرية القديمة ولهما شبه بكلمة (تاماهو Tamahou) التي أشارت إليها المخطوطات المصرية القديمة .

وتدل الشواهد التاريخية أن التوارق قد عاشوا متحدين في دولة كبيرة في الصحراء الكبرى . إن قبائل (كودالا Guedela) و (لمتونا Lemtouna) و (مسوفا Messoufa) و (لامتا Lamta)وتارغا التي عاشت في الصحراء الكبرى إلى القرن التاسع الهجري قامت من بينهم قبيلة لمتونا بأعباء الحكم وحكمت جميع القسم الصحراوي إلى نهر النيجر .

يقول ابن خلدون عند بحثه عن هؤلاء : (ان الملك « ثلوتان » الذي توفي في سنة ٢٢٢ هجرية كان إذا ركب لغزو يصحبه مائـــة ألف هجان . أشهر ملوكهم في القرن السادس الهجري تنزما Tenezma كان يحكم الصحراء كلها . وبعد أن اختلت وحدتهم القومية تشتتوا وأصبح لكل قبيلة رئيس تابعة له) .



زنجي يلعب بالافاعي

إن قبيلة لمتونا التي أشار إليها ابن خلدون من المحتمل جداً أن تكون قبيلة « اولا ميدن » التارقية اليوم منحدرة منها . وتعرف « الاولاميدن » عنـــد التوارق قبيلة أصيلة مفضلة .

يروى وجود آثار بلدة قديمة وسط الصحراء حيث يسكن توارق قبيلتي هوغار وازغر ،غالب الظن أنها كانت أثناء حكم التوارق مركز تجارة وعاصمة لهم. وقد أسس الصنهاجيون بلدة تومبوكتو في أقصى الجنوب .

* * *

يقسم علماء الجغرافيا قبائل التوارق القاطن بعضهم جنوب الجزائر وبعضهم فزان والصحارى الشمالية من نهر النيجر إلى قسمين هما توارق الجنوب وتوارق الشمال .

فتوارق الشمال يعدون بالنسبة للجنوبيين وخصوصاً نظراً لتوارق « كيلوى » أرقى وأكثر اعتباراً ، لأن الجنوبيين صاروا خليطاً متنوعاً لكثرة امتزاجهم بالجنس الأسود . نفوس توارق آزغر Azgher الذين هم من الشماليين خمسة آلاف فقط ، وأما نفوس هوغار وتوابعها فتقدر بثلاثة أمثال نفوس آزغر . إذا قيست القلة في النفوس باتساع مناطق الصحراء المستوطنين فيها يتضح جلياً مدى حالة التشتت التي هم فيها .

قبيلة هوغار Hoggar ضمها الفرنسيون تحت نفوذهم في المدة الأخيرة .

ومن التوارق الذين دخلوا تحت الإدارة العثمانية قبيلة ازغر العظيمة التي تنقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة هي « وراغن Vraghen » و « امنين Emenen » و « منغساتن Menghassaten » .

وينقسم التوارق من الناحية الاجتماعية إلى طبقتين الأولى اهاغار Ahaggar من الأحرار قبيلة أصيلة نجيبة ، والثانية (ايمغاط Imgat) ويطلق على عامة الناس وتارة على العبيد، وتسمى قبيلة ايمغاط أو مغاطة بين التوارق « كيل اوللي » التي تفيد بلغة تاماهاغ « رعاة المعز » .

وغير هاتين الطبقتين توجد قبيلة « ايساك كامارين » تنتسب إلى قبيلة هوغار بعد طبقة متوسطة بين قبيلتي اهاغار وايمغاط .

كانت قبيلة ايمغاط في الأزمنة القديمة تحت نفوذ قبائل الأحرار ، وبتعبير أصح كانت في مقام جيش يقوده الأحرار إلى حيث شاءوا .

يسمى رئيس القبيلة سواء عند قبائل الأحرار أو مغاطة آمغار Amgar أي الشيخ ، والذي يترأس عموم القوم أي القائد أو الحاكم يسمونه آمونوكال Amonokal .

(إن الإرث والحسب والنسب عند التوارق ليس عن طريق الوالد وإنما عن طريق الوالدة ، لذلك لكي يكون التارقي من الأحرار لا بد أن تكون والدته منهم . وبناء على التفضيل فعند وقوع وفاة أحد مشايخ التوارق فإن مقام المشيخة و « الطبل » يعطى لبنته ، وتعتبر البنت الوارثة الشرعية للطبل ولكنها تفوض أمور الرياسة لابنها أو لأخيها من رجال القبيلة)

يصادف في تاريخ البربر حكم المرأة المباشر ، ويمكن ذكر مثال لذلك وقعة « الكاهنة » المشهورة في أوائل الفتح الإسلامي للشمال الافريقي أن زهير والي إفريقية[1] في عهد عبد الملك الأموي لما انهزم أمام ثورة قبائل البربر التي تولت قيادتها ملكة « جراوا » — وهي فرع من قبيلة زناتة — المسماة « ديهيا » أو « داميا » التي عرفت عند العرب بالكاهنة لاشتهارها بمعرفة الحوادث قبل وقوعها استولى فتور عام في الفتح الاسلامي في إفريقية . وقد استمر حكم الكاهنة مدة غير قصيرة وتغلبت على خليفة زهير وهو القائد حسن بن النعمان أيضاً ، ولأجل عرقلة تقدم العرب وتحركاتهم خرّبت جميع القرى العامرة والغابات الشاسعة في إفريقية وقلبت المنطقة إلى صحراء قاحلة ولكنها قتلت في معركة ثانية جرت بينها وبين حسن بن النعمان .

إن الشواهد التاريخية التي من هذا القبيل تدل دلالة واضحة على أن النساء البربريات تحتل مستوى اجتماعياً أرقى من مستوى الرجال .

عندما كنت في بلاد قبائل ازغر كان رئيسهم انكدّازن Inkeddezen والحال أن طبل القبيلة كان من حق خالته ولكن لصغر سن ابنها « ماتوكو Matoukou » وكلت ابن اختها الشيخ انكدّازن لرئاسة القبيلة .

يعدّ هذا الشيخ رئيساً لعموم التوارق ورغماً على ذلك فقد كان الشيخ آمود Emoud الذي يترأس قبيلة وراغن التي هي قسم من قبيلة ازغر ، والشيخ

(١) أطلق العرب اسم افريقية عقب استيلائهم على شمال افريقية على تونس وطرابلس الغرب والقسم الغربي من الجزائر .

(اوفنايت Oufnayt) لا يمتثلان لأي أمر يصدر منه ، حتى انهما كانا يخالفانه ويعارضانه معارضة ظاهرة أحياناً .

إن قبائل ازغر باعتبارها أحراراً ومغاطة تنقسم على الوجه الآتي : إن القاطنين في منطقة أودية جبال تاسيلي الممتدة من غات نحو الشمال الغربي الأحرار ومغاطة ينقسمون إلى ست عشرة قبيلة صغيرة :

قبائل الاحرار	كيل اريكن [1]	Kiel Ericuen
	كيل ايزابن	Kiel Izaben
	كيل ايمهرو	Kiel Imehrou
	كيل ايندندن	Kiel Indenden
قبائل مغاطة	مكارغاسان	Mekargassan
	ايفيلالن	Ifilalen
	كيل توبرن	Kiel Toubren
	كيل اوهيت	Kiel Ouhet
	كيل اين تونين	Kiel In Tunin
	كيل اراس	Kiel Erass
	ايكر كومين	Iker Komen
	جراجر يوين	Djeradjriven
	ازيكه كاتن	Ezicue Cuaten
	فوغاس اغداد	Fogasse Igdad
	ايوار وارن	Ivarvaren
	ايفاراك كانن	Ifarak Kanen

(١) كلمة كيل في لغة تاماهاغ معناها : صاحب ، متوطن ، مقيم ، والكلمات التي تليها أكثرها أسماء أودية أو جبال أو مراع . وعلى سبيل المثال اسم كيل اريكن أصبح علماً لقبيلة تسكن في وادي اريكن جنوب غات .

إن قبيلة وراغن التي هي أكبر فروع قبيلة ازغر أصلها من توارق الجنوب انفصلت من الاولو ميدنين وهاجرت إلى جوار غات وتغلبت على قبيلتي امنين ومنغساتن بعد حروب طويلة وقد سادها الغرور نتيجة انتصاراتها فصارت من أكثر المعتدين والشريرين بهذا التفوق . كما أن قبيلتي امنين ومنغساتن تقابلان هذا التغطرس من وارغن ببرود ولا تخفيان ضغائنهما نحوها للأسباب نفسها .

كانت قبيلة امنين التي تسكن سفوح جبال تاسيلي الجنوبية وسهل ادمار التي تعد أكثر نفوساً بعد قبيلة وراغن المتفرعة من ازغر تحت رئاسة الشيخ آمود ، وقد تعارفتُ به عندما كنت هناك فهو رجل ليس تارقياً فحسب بل من النبلاء لم أصادف من يماثله من ناحية آداب المعاشرة ورقة الطبع المتصف بها في جميع بادية طرابلس الغرب ولا حتى في قراها .

قبيلة امنين تنقسم بالنسبة إلى أحرار ومغاطة على الوجه الآتي :

قبائل الأحرار	ايهاد انارن	Ihad anaren
	فوغاس طبل	Fogas Tobl
	كيل اهرر	Kiel Eherer
قبائل مغاطة	ايبات تانادن	Ibat Tanaden
	ايبات امان	Ibat Aman
	كيل تو وين	Kiel Touven
	ايجريسوتن	Idjeressouten

إن قبيلة امنين رغماً عن أنها معدودة من ازغر وتابعة لحكومة غات من القديم فلقلة نفوسها اضطرت الى الاعتماد على قبيلة هوغار لتسلم من تعديات قبيلة وراغن .

إن قبيلة منغساتن المنتشرة من شمال غات إلى فزان وفي جميع الأودية إلى

شرقها من أقدم أحرار التوارق . وأما قبيلة مغاطة التابعـة لها فقد انقرضت بتمامها .

عندما كنت في غات كان شيخ منغساتن الشيخ اوفنايت يرى وكأنه شاب فوق هجينه وهو في السبعينات من عمره يحلو معه الحديث . والحقيقة انه رجل قلّ ما يصادف مثله في تلك الأرجاء وكانت له شهرة في الفروسية وركوب الخيل.

لباس التوارق

إن لباس التوارق رجالاً ونساء كالغاتيين وأصبح لباس قدمـاء التوارق التقليدي من النوادر فلم تعد الطاقية التونسية ولا العمائم الملفوفة ولا نقـاب ولا لثام يغطي معظم الوجه ولا البرانيس المكلفة المزينة تميزهم ، إلا أن المشايخ المسنين في السبعينات والثمانينات مثل اوفنايت وأتيس يرون بهـذا الزي في الأيام الخاصة .

أما الآن فاللباس يعتبر موحداً من الناحية الأساسية وأكثر بساطة .

إن أساس اللباس عند التوارق قميص وسروال من القماش الأبيض. ويضيف الذين حالتهم ميسرة ثوباً أزرق غامقاً من صنع السودان . والمشايخ وكبار الأحرار يلبسون فوقه البرانيس التونسية المتعددة الألوان .

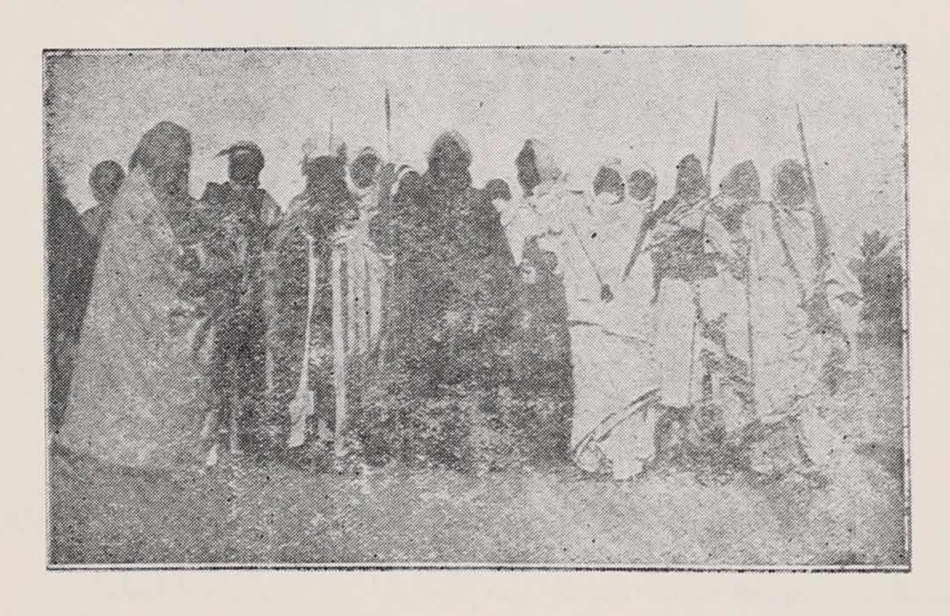
كما تشاهد عامة الناس والمغاطيين ملتفين بالأردية الصوفية العربيـة وحتى بالبطاطين الحمراء التي يأتي بها التجار من الشمال في فصل الشتاء .

إن أغرب شيء وأجلب للنظر في لباس التوارق غطاء الرأس عند الرجال وخمار الوجه .

الشبان الذين لم يتزوجوا بعد لا يضعون على رؤوسهم أي شيء ، يسترون وجوههم بنقاب فقط ، أما رؤوسهم فعارية ويتركون حاجزاً من الشعر يطول إلى أربع أو خمس سنتيمرات في وسط الرأس كخط يفصل الرأس إلى قسمين.



اجتماع المؤلف بمشايخ ازغر



شيخ وراغن انكدازين

بأنهم مسلحون بالرماح الطويلة ومجهزون بالتروس الجلدية ، لبـاسهم الجلود شبه عراة .

ولا زال قسم من توارق مغاطة الذين يعيشون في جبال تاسيلي يلبسون جلود المعز الطويلة الشعر حتى اليوم . ونظراً لذلك فإن التوارق الذين بقوا منسيين في أعماق الصحارى لم يتطوروا تطوراً كبيراً مع تعاقب العصور،ولم يزل المغاطيون يعتمدون في معيشتهم على صيد الودان ويجهلون حتى أصول الزراعة البدائية .

التوارق لا يزالون يحملون مجموعة من الآلات الجارحة التقليدية،ولكنهم بعد أن عرفوا تفوق الأسلحة النارية في الحرب من بعدُ أصبحوا يملكون البنادق الحديثة من كل نوع ، وأكثرهم مسلحون ببنادق من طراز (غرا) التي انتشرت وكثرت في أواسط إفريقيا بفعل المهربين اليونان الذين يدخلونها إلى ساحل ليبيا . ومع هذا فإن قلة الذخيرة تحد من قدرتهم على القتال ، لأن ما يوجد عند الشخص الواحد من الذخيرة لا يتجاوز ٣٠ — ٣٥ رصاصة ومعظمها صارت تعبئته محلياً للمرة الثانية . وزد على ذلك عدم اعتنائهم بصيانتها مما جعل أكثر بنادقهم غير صالحة ومن الصعب أن تصيب الهدف . ومن عادتهم تعديل بنادقهم لضرب المسافات البعيدة فإذا اقترب خصمهم إلى مسافة ٢٠٠ متر تقل فيهم الإصابات .

إن الاصابات في القتال في الصحارى قليلة عموماً ، وقد وقعت معركة بين هوغار وازغر تعد من أكبر المعارك قرب بلدة غات . ونظراً لما يرويه الغاتيون الذين يبالغون في روايتهم لم يقتل في هذه المعركة إلا أربعون قتيلاً في حين أن الطرفين المتخاصمين كان عددهما يتجاوز الألفي مقاتل. وقد أسفرت هذه المعركة عن التجاء قبيلة ازغر إلى غات .

وفي معركة (تيت Tit) التي رضخ بعدها الهوغاريون للحكم الفرنسي كان عدد مقاتليهم ٢٩٩ مقاتلاً في هجومهم على قوة من مرتزقي توات تحت قيادة ملازم فرنسي قوامها ١٣٠ جندياً ، فلم يبق من الهوغاريين في الميدان بعد القتال

إلا ٩٣ كتب لهم النجاة . إن هذه المعركة العظيمة التي وقعت في ٧ مايو ١٩٠٢ والتي كانت نتيجتها دخول هوغار تحت نفوذ فرنسا ستبقى لدى أقوام الصحراء من الوقائع التي لا تنسى ذكراها .

المساكن والطعام

أصل مأوى التوارق ليس الخيم كالبدو من العرب بل الأكواخ والزرائب المنصوبة من الحصير .

تصوروا أربعة أعمدة طويلة في ارتفاع ١,٢٠ متر مركوزة في أرض رملية أحيطت بحاجز من الحصير. هذا هو المسكن الذي بلا سقف بيت التوارق الذي لا يأوون إليه نهاراً ولا يدخلونه إلا في الليل للنوم . والذين حالتهم متيسرة يضعون مظلة فوق حواجز الحصير .

أما الخيم المصنوعة من الجلد السوداني التي تصادف عند كبار المشايخ فقليلا مـا تشاهد .

والفقراء من مغاطة يسكن أكثرهم المغارات وفي جذوع اشجار الاثل الكبيرة وفي الأكواخ التي يبنونها من أغصان هذه الأشجار . إلا أن التوارق الذين في غات وما حولها يسكنون أكواخاً على نمط أواسط إفريقيا التي توجد في فزان، وفي طرابلس نماذج منها .

عندما بحث المؤرخ الشهير هيرودوت عن الليبيين قال : « قبائل رحّل مساكنهم أكواخ من الحصر والبردى المضفور ينقلونها متى شاءوا إلى أين شاءوا، غذاؤهم لبن الضأن ولحمه » .

إن تعريف هيرودوت في معيشة ومساكن الليبيين لا زال موجوداً عند أحفادهم التوارق .

إذا كان هناك شيء غير معين عند التوارق فهو الطعام . التارقي يأكل مـا

يجده ويأكل كثيراً وبرغبة . ويحرص الجائع ويقنع بالقليـــل عندما لا يجد إلا القليل من مطلوبه ويكتفي بما يسد الرمق . وقد شاهدت تارقياً بقي ثمانية أيام جائعاً وقد شد على بطنه حجراً ليتحمل شدة الجوع وآلامه .

إن هؤلاء ذئاب الصحراء المتصفون بما يحير العقول من الصبر والتجلد يشربون دم الإبل التي يركبونها أثناء السفر الطويل والغزوات ، ومنهم من يقطع من شحم الذروة جزءاً يقتات به ليتمكن من مواصلة السير والبقاء على الحياة . والحاصل إنهم خاضعون لأحكام عقامـة المحيط الذي يعيشون ومنقادون لطبيعته من كل الوجوه وفي جميع الأحوال .

الطعام المفضل عنـــد التوارق لبن النياق . إن فصل ربيع مزهر في سنة مخصبة يقدم لهم مائدة مؤقتة ولكنها مائدة ضيافة شيقة . والجبن الناشف الذي يصنعونه من لبن المعز ، ولحم الإبل في الأعراس وغيرها من الأعياد والمناسبات ، والخبز المسمى (تاكيلله) الذي ينضج على الحجارة المصهورة يصنعونه من القمح أو غيره من الحبوب إذا وجدوها .

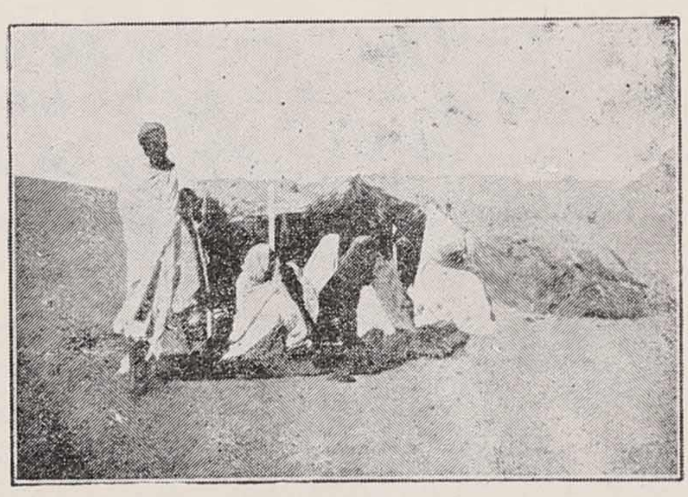
أصول الطبخ عندهم بدائية جداً . وسواء الغاتيون أو التوارق يطحنون القمح وكل الحبوب برحى تدار باليد ، ويخلطون الدقيق بالمـــاء ويصبونه على الحجارة المصهورة ويغطونه بمثلها ،وهكذا ينضج الخبز ،ويشوون اللحم على هذه الطريقة وهو نوع من الكباب . والحساء المخثر بدقيق القمح واللبن يوضع في أوان خشبية (قصعة) .

يجب الاعتراف بأن التوارق لا يتناولون أي طعام بأيديهم ، فيستعملون الملاعق ، لذلك ترى التارقي يحرص على حمل ملعقته كحرصه على حمـــل سيفه عندما يتهيأ للسفر ، فتراها معلقة خلف راحلته ، إذا نسيها في البيت أو ضاعت منه يعمد حالاً إلى شجرة يقطع منها غصناً ويصنع منه ملعقة مؤقتة .

والأثاث عند التارقي المتوسط الحال عبارة عن بساط توارقي عريض وحقيبة أو حقيبتان من الجلد وقدور الطبخ وهاون من خشب وطاسة من نحاس أصفر



شيخ هوغار أتيسي



النساء أمام خيمة تارقية مصنوعة من الجلد

لشرب الماء وعدد من القرب .

ومن عادة التوارق أنهم لا يأكلون الدجاج والديوك والبيض لأنها تقتات بالحشرات وبالمواد القذرة ويقولون في غرور إن أكلها لا يليق إلا بالحضريين .

والحقيقة ان منشأ ذلك عقيدة باطلة منسية لديهم [1] .

ومن غرائب طباعهم ان رئيس هوغار الشيخ أتيس عندما قدم لغات جاء إلى قصر الحكومة بناء على إلحاحي وقال لي إنه لأول مرة يدخل لمكان مسقف رغماً عن بلوغه الخامسة والسبعين من عمره . وأضاف قائلاً إني ما فعلت ذلك إلا انقياداً لأمر الدولة ولكن أرجو أن تعفيني من تناول أي شيء من شراب أو طعام الذي يعد عاراً على شيخ هنا . والحقيقة أنه كلما يقدم إلى غات ينصب خيمة خارجها لكي لا يرتكب مذلة البلديين .

التوارق لا يقيمون مجتمعين كقبائل العرب إلا عند ظهور الأخطار وحينذاك يضطرون لجمع النساء والأطفال والعجز وحيواناتهم في واد يسهل الدفاع عنه ويشكلون نجماً كنجوع العرب. أما في سائر الأيام فيقيمون مشتتين في الصحراء القليلة السكان في أكواخ مخفية في قاع كل واد وفي الكهوف الصخرية وبين أشجار الأثل الكبيرة بحيث لا يمكن مشاهدتها .

إن التارقي لا يخبر حتى أخاه بالمحل الذي يبني فيه كوخه .

إن هذا الاعتكاف والانفراد عند جميع الشعوب الصحراوية ليس منشأه الشجاعة ولكن خوفاً من غدر الآخرين . لذلك يخفون مؤنهم الزائدة وأثاثهم الثمين في مزاود من الجلد ويضعونها في حفر بمهاوي جبال تاسيلي ، وخصوصاً النقود .

---

(١) بمقتضى المذهب الخارجي الذي اعتنقته قبيلة « برغواطه » الكبيرة فإن أوقات الصلاة تعين بصياح الديوك ، لذلك حرم عندهم أكله . وحيث أن هذه القبيلة انقرضت نتيجة مهاجمتها من طرف دولة المرابطين التي أسسها الصنهاجيون أجداد التوارق فمن المحتمل أن هذا الاعتقاد انتقل إليهم حيث أن تسرب عوائد واعتقادات الشعوب المغلوبة إلى الأقوام المحتلة الغالبة حقيقة تاريخية متكررة .

إنها عادة قديمة عند بربر الشمال الافريقي عموماً ، يدل على ذلك المغارات لحفظ المؤن في رؤوس الجبال وحافة الكهوف التي يتخذونها كمخازن .

ويعتنق البربر دين الشعوب المحتلة التي يدخلون تحت حكمها ويضحّون بمعتقداتهم وأديانهم مؤقتاً .

كان معبود البربر في القرن الثامن قبل الميلاد « آمون » فأقاموا مكانه معبود القرطاجيين « بعل » ثم قبلوا معبود الرومان ثم رجعوا في القرن السادس قبل الميلاد إلى معتقداتهم الأولى . وهكذا فإنهم رغماً على قبولهم لاعتقادات وأديان الشعوب الحاكمة في الظاهر فإنهم يتمسكون بمعتقداتهم .

ليس لهم أية عقيدة ثابتة صحيحة . وقد شوهد انقيادهم في أزمنة كثيرة للساحرات من النساء ولمعتقداتهن الباطلة .

ومن المحقق أنهم قبلوا الدين الإسلامي في القرن الثالث والرابع الهجري عندما استولى العرب الفاتحون على جميع المناطق الصحراوية إلى تومبوكتو . وكانوا قبل ذلك يدينون بالمسيحية .

والمعلومات التاريخية في هذا الخصوص صريحة :

إن عبيدالله والي إفريقية في عهد الخليفة الأموي هشام عيّن ابنه اسماعيل عاملاً على سوسة وأرفق معه قائد الجيش الحبيب بن أبي عبيدة وأمره بأن يرسل القوات نحو الصحراء ، فاعتنق الصنهاجيون الملثمون الذين هم أجداد التوارق الدين الاسلامي أثناء هذه الحملة التي شملت المناطق الصحراوية إلى السودان .

والنقاب الذي يتلثم به التوارق اليوم لا علاقة له بأي أمر ديني أو معتقد .

تتحكم في التوارق اعتقادات كثيرة ، فيتطيرون ويتفاءلون من الرياح والتغيرات الجوية ويزعمون أن بعض الجبال مقر للجن والعفاريت ويخشون الاقتراب منها ، ويعتقدون أن جبال « ايدينين Idinin » و « اودان Oudan » القريبة من غات تسكنها أقوام من الجن ، فحاكم جبال ادينين الملك شمهروش ، وجبال

اودان التي شرقها يحكمها الملك مانتاروجا .

ملكان من الجـــان متعاديان وطوائف الجان والمردة التابعين لهما في حرب مستمرة ؛ ويدعون أن الحرب قائمة بينهما بالأسلحة النارية ، ويحاولون تأييد ادعائهم بقطع حجر الصوان الذي يحتوي على مواد حديدية الموجود بكثرة هناك بأنها من قذائف أسلحتهم ، ويخشون الاقتراب من تلك الجبال . يتنبأون بقدوم القوافل أو بوقوع غارات من اتجاهات الرياح ومن شكل السحب وسيرها ، وعلى حسب ما يمليه عليهم تفــاؤلهم أو تطيرهم يقدمون على ما عزموا عليه أو يعدلون عنه .

إن أحد أكابر التوارق في قرية « البركت » ادعى في أحد الأيام وهو يشير إلى سحاب كثيف يصحبه رعد وبرق قائلا : « إن أخبار العدو ستأتي من هذه الناحية ! » . ولدى التوارق اعتقاد الاستعانة بأرواح الموتى : عندما يتطلعون لمعرفة أحوال الغائبين في الغزوات أو النازحين لديار أخرى لحمل البضائع للتجار أو غير ذلك من أخبار الغيب تعمد النساء إلى بنت شابة فيلبسنها أجمل الملابس ويصحبنها إلى إحدى مقابر ما قبل التاريخ التي يسمونها (ايديبنين Idibinin)[١] فتنام الصبية على القبور ليلتها وتقص على النساء في الصباح ما رأته في منامها . ومن الطبيعي أن تطابق الرؤيا الوقائع أحياناً نظراً للانطباعات المتمركزة في مخيلتها عن الغزوات والغارات ووقائع الصحراء مما يقوي عقيدة هؤلاء القوم في هذه الأفكار الباطلة .

إن هذه العادة الموجودة عند التوارق اليوم كانت موجودة أيضاً عند الليبيين القدماء القاطنين في سواحل خليج سرت في عهد الفينيقيين فكانوا يعبدون أرواح الموتى ويحلفون بها ويجعلون استخارات على القبور يتحركون حسب نتائجها .

* * *

(١) مقابر ايديبنين من آثار ما قبل التاريخ وهي عبارة عن أكوام من الحجارة على شكل هرم تحيط بها دائرة من الحجارة .



شاب تارقي



بنت تارقية

لقد ذكر بحث التوارث عند التوارق اتباعاً للعرف والعادات المرعية القديمة.

في الأزمنة التي ما قبل التـاريخ وربما في عهد حياة الانسان في الكهوف لا لا ينسب الأولاد إلى آبائهم من جهة الحسب والنسب بل إلى أمهاتهم . فالتارقي مهما كانت منزلة أسرة والده واعتبارها إذا لم تكن أمه من الأحرار فلا يعتبر من علية القوم ، لذلك تراهم يقدرون أقاربهم من الأم كالخـال والعم ويعتبرون أبناءهم كالإخوة الأشقاء ، وينظرون لأقاربهم من جهة آبائهم نظرة الأجانب . وينتقل « الطبل » بالوراثة من الأم إلى أولادها وإلى أبناء الأخت ، وإذا لم يوجد وارث من جهة المرأة ينتقل إلى أقارب من الدرجة الثانية إلى الجدات والخالات. أثناء إقامتي في غات كانت الوارثة لطبل قبيلة ازغر بنت رئيسها القديم الشيخ اخنوخن .

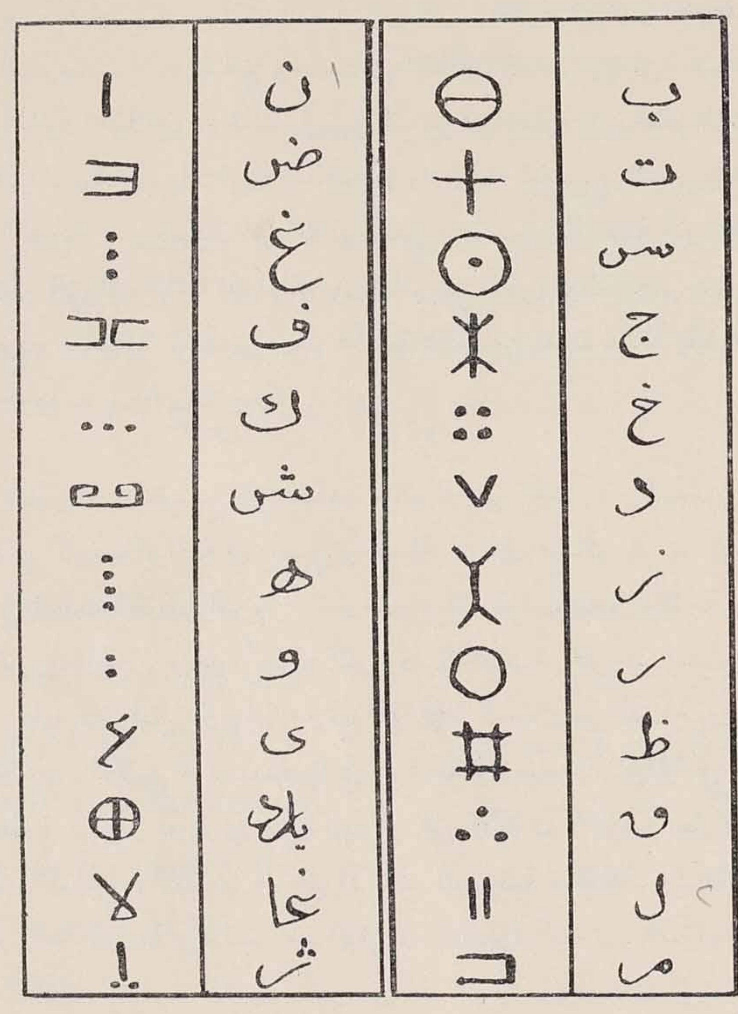
كل تارقي يعد من قبيلة والدته فإذا وقعت حرب بين قبيلة ينتسب إليها والده وقبيلة أمه قد يبقى على الحياد إذا كان والده على قيد الحياة ، ولكنه بعد وفاة والده ينضم إلى أخواله ولا يتردد عن شهر السلاح في وجوه أعمامه .

إن الأحرار الذين لا يتزوجون بأكفائهم من النساء – وهذا نادر جداً – لا يعد أبناؤهم من الأحرار ويحرمون من وراثة طبل القبيلة .

نقوش وآثار

إن الرحالين الذين يقومون برحلات في طرق المواصلات المتجهة من شمال افريقيا إلى حكومـــة سقوطو ونهر نيجيريا والمناطق الجنوبية من الجزائر وتونس يشاهدون مخطوطـــات منقوشة على صخور جسيمة هي مخطوطات « تيفينيغ Tifinigh » . وأشكال هذه المخطوطات قريبة من الثمانين ويستعملها التوارق حتى الآن باختلاف بسيط يزيد أو ينقص .

والحروف المستعملة عند توارق ازغر عبارة عن تشكيلة من أربعة وعشرين حرفاً غير صوتية وهي :



إن الفينيقيين الذين أسسوا مستعمرات في سواحـل الشمال الافريقي كله لم تسر عاداتهم ولم تنتشر لغتهم في عمق الدواخل ، وفي القرن الخامس الميلادي نسيت حتى في السواحل .

ولكن ما تشهد به الآثار القديمة أن مخطوطات الليبيين المجهولة المنشأ كانت مستعملة في الشمال الافريقي قبل الفينيقيين ، وتؤيد ذلك الاكتشافات داخـل

منطقة من شبه جزيرة سيناء في الشرق إلى جزر كناريه في غرب افريقيا .وحتى جميع المخطوطات الحجرية التي وجدت في المناطق الصحراوية من جنوب دائرة العرض الثالثة والثلاثين مباشرة إلى نهر النيجركلها عبارة عن مخطوطات تيفينيغ Tfinigh . ولا يوجدإلا فرق بسيط بين حروف تيفينيغ اليوم ومخطوطات الليبيين القديمة . والغريب في الأمر الذي يستحق الملاحظة أن المخطوطات والأشكال التي استعملتها أقوام الشمال الافريقي المعروفون بالبربر منذ عهود ما قبل التاريخ مستقلة تماماً وليست لها أية علاقة من حيث المنشأ بأية مخطوطات قديمة أخرى .

إن مخطوطات تيفينيغ التي تشاهد منقوشة على الحجارة والصخور في فزان وخاصة في الأودية الواقعة في تاسيلي وسلسلة جبـال مساك بقيت الآن خاصة بالنساء في الوقت الحاضر تقريباً. تتعلم النساء التارقيات هذه الكتابة والموسيقى باعتبارهما زينة لهن . ويعدّ أحرار التوارق الكتابـة بحروف تيفينيغ خاصة بالنساء وعليه فلا تليق بالرجال ، ومع هذا فإن الرجال من المغـاطين يكتبون هذه الكتابة ولكنهم لا يستعملونها في المراسلة وينحصر استعمالها في الكتابات على الحجارة كرموز لذكرى شيء مهم أو على الآلات الحربية مثـل مقابض السيوف والخناجر والتروس ، وعلى الآلات الموسيقية وغيرها. ويكتب التوارق رسائلهم باللغة العربية ويكتبها لهم الفقهـاء المحترفون الذين يكتبون لهم أيضاً التمائم والتعاويذ ليعلقوها فتقيهم تأثير ضربات السيوف وطعنات الرماح وتحميهم من رصاص البنادق وينفخون وينفثون على مكان الألم لشفائه من العلل . إنـــا اعتقادات باطلة سائدة هنا ككل المناطق التي يتحكم فيها الجهل على البشرية .

أغاني التوارق

إن أغنية التوارق أضبط لحناً وأكثر تناسقاً من الأغنية البدوية العربية .

إن صوت الربابة الصغيرة المسماة «ايمزاد»[١] الخاصة بالنساء ونغماتها المتناسقة المتواصلة تتناسب وتأثير الجو الصحراوي .

وغير ايمزاد هناك الدفوف التي يضربنها في الأعراس وغيرها من المناسبات ، حيث يجتمع الشباب من الرجال حول هؤلاء المطربات ويشتركون في الغنـــاء وفقاً لنغمات ايمزاد الخافتة . وبما اني علمت باشتراك الشباب من الأحرار في الغناء فأيقنت أن أكثرها لا بد أن يدور حول حكايات ووقائع تتعلق بالرجولة ،لذلك رأيت أن أثبت من بين هذه الاغنيات أغنيتين إحداهما تبين التفاخر والأخرى الغرام.وبناء على صعوبة ضبط وتحرير هاتين المنظومتين بالحروف العربية أكتبها بالحروف اللاتينية :

(١)

النظم بلغة تاماهاغ	التعريب
Nekide éfout se douve yrat	سرنا للدوريات للغزو
Nouat abadé sé serirat	قطعنا الفيافي وطرق الصحارى
Noussintilé hat ilazlazintat	وجدنا الإبل ترعى في مراعيها
Nikesaghil sez cuerin dat	سقناها في اتجاه الوطن
Foulsinén tinde ghin hanin gat	هذه المجازفة قمنا بها من أجل المقيمة في غات
Moumagbet tenebivan takmart	« موماغبات »[٢] البيضاء كالجبن
Inderitiké enegas dagtedellalt	ماذا يكون لو عرضها أخوها للدلالين
Nékéf tilemin dakimin tisagt	لكنت أدفع ألف بقرة وألف ناقة مهراً لها

(١) كلمة ايمزاد معناها أوتار بلغة تاماهاغ .
(٢) اسم امرأة .

(٢)

غرام « كونوا » [1] في صدري	Tran « Kounouven» degh idmarin
يحرق كطعنة رمح	lstemsi valtenned allaghen
وأي رمح رمح في يد خصم لدود	Diki kemiksin vezizna hilen

إن المنظومة الأولى من غير أنها منقبة عادية تليق بأقوام الصحراء ليس لها قيمة أخرى . أما الثانيـــة فتدل على شعور رقيق وروح حساسة في أجسام خشنتها شمس الصحراء المحرقة .

تشاهد في أطراف بلدة غات جماعات صغيرة . امام الأكواخ أو تحت ظل شجرة اثل منقطعة في مرعى من المراعي .

فها هو هناك يلتقي شباب التوارق في ليالي الصيف تحت نور القمر الفضي مجتمعين حول بضعة من الشابات اللاتي يعزفن على الربابة (ايمزاد) ويغنون معاً اغنية مناقب الحرب والغرام إلى أن تفاجئهم حمرة أشعة الشمس .

وأظن أنه لا لزوم لذكر عدم اشتراك الشيوخ في جمعيات الطرب هذه .

كل ما يزيد عدد المعجبين من الشباب حول البنت في مثل هذه الاجتماعات البريئة تزداد منزلتها عند أهلها .

عادات الزواج

إن مراسم الزواج عند التوارق بسيطة ، إلا أنه قبل العقد يصعب على البنات إرضاء جميع الخالات والدايات من عجائز القبيلة . بعد التخلص من هذه المشكلة يقدّم أهل العريس لأهل العروس – حسب عادات التوارق – ستة من الإبـل

(١) اسم امرأة .



توارق كيلوى الذين يحملون بضائع السودان إلى غات



شاب تارقي في زي السفر

لتذبح في حفلات الزفاف ، ولكن هـذه الإبل التي تعد مهر الزوجة بقيت في الوقت الحاضر تعهداً شفوياً وأملاً متروكاً للمستقبل . ولكن الجمل المعتاد نحره في العرس لا مناص من تقديمه .

ويجب على العريس ، فضلاً عن تقـديم ملبوسات وحلي للعروس ، تقديم ملابس للعجائز من أقاربها .

عقود النكاح في غات يعقدها شيوخ الزوايا ، وفي البوادي يجريهـا التوارق أنفسهم . وحفلات الأعراس بسيطة . بعد دق الطبول وغنـاء النساء وجري المهارة وسباقها وانتهاء الزنجيات من رقصة (تيللولي) المعروفة تشبع البطون بلحم الإبل وعجين السبط ، تحمل العروس إلى كوخ من الحصير ذي أربعة أركان ليس له سقف سوى قبة السماء قرب كوخ والديها .

الأسر التي تشكل حديثاً لا يمكنها أن تكون صاحبة بيت مستقل قبل أن تنجب أطفالاً . فالزوجان يجتمعان ليلاً في الكوخ المبني بالحصير ويفترقان صباحاً . فالزوجة تمضي النهار في بيت والديها القريب من الكوخ ، والرجل يذهب لشأنه ولا يجمع بينهما إلا ظلام الليل .

وبعد ولادة الأطفال ينصبون خيمة على حدة ويعيشون حياة مستقلة . وبما أن الرجال يمضون أكثر شهور السنة في السفر والسير وراء حيواناتهم في المراعي فالنساء يقمن في غات أو في ضواحيها يستجدين التجار والموسرين فيها لإشباع بطونهن ؛ ولا يعد التوارق هذه الحالة تسولاً بل حقاً مكتسباً وشرطاً يفرضه الحكم والنفوذ .

إن قلة المواليد عند التوارق تعزى إلى حياة التشرد والتشتت التي تعيشهـا شعوب الصحراء ، ولكن أمر قلة المواليد موجود حتى في السكان المستقرين في البلدان كمرزق وغات .

ويجب تحري الأسباب الأساسية لهذه الظاهرة التي يستوي فيهـا البدوي

والحضري إلى طبيعة الصحراء التي تعجز مواردها عن تغذية أعداد كبيرة من البشر ..

ويعرف الغاتيون طبيعة بعض التوارق وهوايتهم في نشر الإشاعات الكاذبة : إذا جاء تارقي لغات ودخل بين جماعة جالسة على المصاطب التي في مدخل باب تفاغت لا يرتاح إلا إذا أذاع خبراً عن سطو أو غارة على قافلة . والقصد من ذلك إيجاد حالة من الارتباك والتشويش بين السكان الذين أكثرهم من التجار ليلتقوا به ويلتفوا حوله للاستطلاع والحصول على معلومات مفصلة عما أشاعه ، وبذلك يظهر الشهرة والعظمة ويضمن لنفسه الأنانية التي يتوق إليهـا . ولقد شاهدت مدى تأثير هذه الإشاعات الكاذبة وما ولدته من فوضى وارتباك وسلب للراحة العامة .

شاهدت أيضاً بعض كبار المشايخ في « الميعاد » [1] وهم يقصون قصصاً طويلة عن وقائع ومعارضة المعارضين لهم وإسكاتهم بقولهم : « باهو ، باهو ! » أي : كذب وافتراء .

لا أدري هل يحتد الشخص الذي يتعرض لمثـل هذه المعاملة ؟ لا شك أن النقاب الكثيف الذي يستر وجهـه يحول دون الاستدلال على علائم الغضب التي تبدو عليه .

التارقي أناني يفضل نفسه ، يدبر الغدر بأعدائه وينصب لهم الكمائن ويهاجمهم فجأة وغير ذلك من خدع الحرب . ومن جملة ذلك فإنهم ، أي التوارق ، يعمدون إلى تسميم خصومهم ببذور نبات فلزلز [2] السامة بوضعها في اللبن أو الماء للتخلص منهم .

---

(١) الميعاد : اجتماع لأجل التشاور والفصل في الأمور المهمة الطارئة .

(٢) يوجد هذا النبات بكثرة بجوار غات وفي وادي تنيزوفت ، ويقع التسمم في غات بهذا النبات كل سنة تقريباً وذلك لاعتياد الناس أكل الجراد الذي يلتهم هذا النبات الدائم الاخضرار ، وعلامة التسمم به انخفاض في الصوت وظهور علائم الجنون . ويعالج أهل غات هذه الحالة من التسمم بإطعام المصاب الفلفل الأحمر المسحوق والسمن بكثرة .

إن أول من عرّف التوارق للأوروبيين هو الرحالة (دويرير Duveirier) الذي مرّ في غات سنة ١٨٦١ وشق أراضي قبيلة وراغن تحت حماية رئيس وراغن حينذاك الشيخ اخنوخن وخاصة بفضل الهدايا التي وزعها ببذخ . وقد قدّم التوارق للأوروبيين في صورة فرسان الصحراء النبلاء . ونتيجة لاغترار الفرنسيين بهذا الوصف الخاطىء وقعت بضعة من بعثاتهم التبشيرية ضحية لاغتيالات التوارق وغدرهم . ولم يقفوا على أخلاق التوارق إلا بعد تكبدهم تلك التضحيات .

ومع هذا كله ، فإن التوارق أكثر شعوب الصحراء حرصاً على الاستقلال ، وإنهم لا يقبلون حكم الغير في أي شكل من الأشكال إلا إذا غلبوا على أمرهم أمام قوة قاهرة ، وحتى في هذه الحالة يظهرون الطاعة والانقياد ، ولكنهم يثورون في أول فرصة سانحة لأخذ الثأر كقدماء البربر .

إن احتلال الفرنسيين التدريجي للصحراء واستيلاءهم عليها أجبر التوارق على اللجوء إلى الحكومة العثمانية التي لم يقبلوا الاعتراف بها من قبل ، ولكن هجرتهم لم تكن مبنية على محبة الدولة العثمانية بل هرباً من الشدة والمراقبة اللتين فرضتها الادارة الفرنسية عليهم في الأراضي التي أدخلتها تحت نفوذها إلى مناطق داخل حدودنا التي لا إشراف لنا عليها لنقص في تشكيلاتنا الإدارية ، ونتيجة لذلك معاملتهم بالتسامح في أوسع معانيه ومبني أيضاً إلى ما يتوقون إليه وهو المحيط الملائم لحياتهم حياة مستقلة خاصة بهم .

إن حاكمية التوارق لم تكتف بالعوائد السنوية التي تؤخذ من قبائل مغاطة المعدودة من الرعايا من القديم بل تعدت إلى غيرها من القبائل التي تخترق الصحراء فيفرضون على القوافل التي تجتاز الأراضي التي تحت نفوذهم دفع نوع من العوائد المحددة مقابل الاجتياز .

ولكن هذه الأتاوات والواردات التي تؤخذ سواء من مغاطة أو من الأهالي في غات والبركت وغيرهما ومن التجار والسياح قسمت أخيراً بين قبائل

التوارق ومن جملة ذلك اقتسموا الرحالين الأوروبيين فاختص مشايخ قبيلة وراغن بالفرنسيين ومشائخ قبيلة كلين دندن بالإيطاليين أما الانجليز والألمان فكانوا من نصيب مشائخ قبيلة منغساتن والروس والنمساويون غير معروفين هنا.

وبناء على هذه التصرفات السقيمة وبقاؤها بمثابة حكومة داخل حكومة والسكوت عنها لضعف إدارتنا اتخذ الفرنسيون قبائل وراغن التي ازداد نفوذها بفضل الأموال التي تتحصل عليها من العوائد سلاحاً بأيديهم فتقدموا حتى الأودية القريبة من غات ووسعوا رقعة احتلالهم .

بعد وصولي إلى غات ببضعة أشهر شرعت في تنظيم إدارة القائمقامية وألغيت أصول العوائد المذكورة ولكن ما الفائدة ؟ فإن آثار الفساد لم يكن في الإمكان إصلاحه .

بموجب اعتقادهم وتعلقهم وزعمهم بالحاكمية تراهم يأخذون من غيرهم ما استطاعوا ولا يراعون إن كان قليلا أو كثيراً ويعتبرونه حقاً تفرضه حاكميتهم لذلك ترى نساء أحرار التوارق يتجولن جماعات في أزقة غات وأسواقها يقبلن ما يعطى لهن ولو كانت حفنة من شعير أو تمر ولا يعتبرن هذه من قبل ذل التسول أو فعل يمس شرفهن بل يقبلنها كجباية لضريبة مفروضة .

ومن جهة أخرى فلا تشاهد مثل هذه الحالة في نساء أو رجال قبيلة مغاطة حتى في أكثرهم عوزاً وفقراً وفاقة .

إن نساء التوارق يدخلن المجتمعات سافرات بخلاف الرجال الذين يسترون وجوههم فمن أكبر العيوب عند الرجال إزالة اللثام عن الوجه أمام النساء وخاصة الفم وتناول الطعام بحضورهن ويقصون وقعة عجيبة في هذا الخصوص:
دعي الشيخ « وانوكروف Vanoukrouf » أحد مشائخ وراغن المعتبرين من مشائخ أزغر الآخرين إلى قبيلة أزغر التي تبعد مسيرة خمسة عشر يوماً عقب مذاكرات الصلح في الحروب الطويلة التي كانت قائمة بين أزغر وهوغار وعند وصولهم شرعوا في مباراة العدو على الهجين حسب عادة التوارق أمام نساء القبيلة

وفي أثناء العدو سقط الطربوش التونسي الثقيل الذي على رأس وانكروفو وجر معه لثامه أيضاً فتعرى وجهه فأسرع اليه الحاضرون وغطوه برداء وأخرج من الميدان واستحالت إقامته بعد هذا الموقف المخجل الذي وقع له أمام النساء،فعاد من وقته على هجينه إلى بلاده .

وكشف اللثام عن الوجه ليس معيباً أمام النساء فقط بل حتى أمام أكابر القبيلة . ومن عاداتهم إظهار العظمة نحو بعضهم وخصوصاً في المجالس التي يعبر عنها بالميعاد فترى أيديهم لا تهدأ من تفقد النقاب الذي على وجوههم يتقلدون أوضاعاً مليئة بالغرور والكبرياء ويحبون الكلام بصوت خشن رزين وخاصة إذا كان الميعاد يجمع رؤساء قبائل مختلفة .

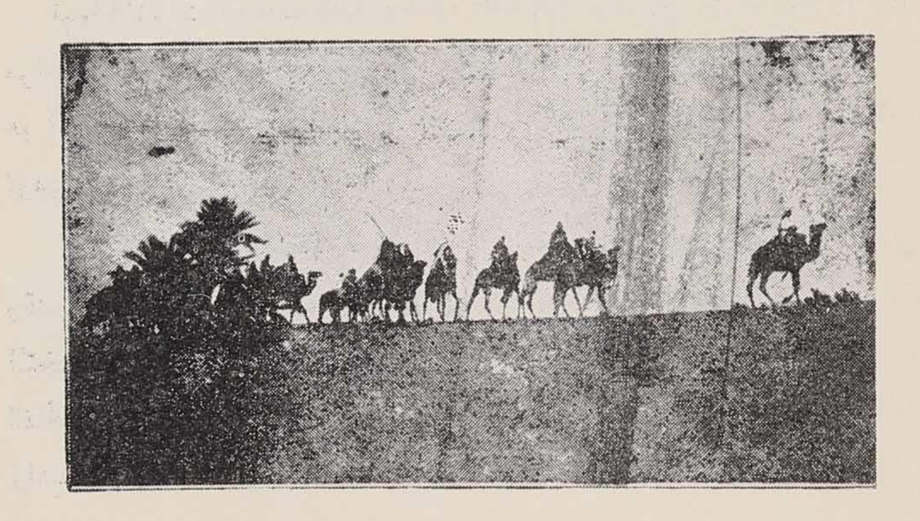
تعقد اجتماعات « الميعاد » في أرض رملية يجلس الواصلون الأولون على هيئة قوس دائرة وتبدأ غليونات التبغ المصنوعة من الخشب وعلب السعوط (النفة) تخرج إلى الميدان وتشاهد أكابر القبيلة الأخرى عن بعد وهم يتمايلون في مشيتهم ويجرون أرجلهم بتكلف لاظهار العظمة والكبرياء أمام الطرف الأخر ويحاول الطرف الآخر مقابلة ذلك بنفس الشعور فلا يتحرك من مكانه ولا يكترث بما يشاهد . ويقع اللقاء وتمتد الأيدي في صمت من الطرفين وتبدأ المصافحة وأي مصافحة صفقة من أيدي تصلبت وخشنت تسمع من بعيد والكلام أثناء هذه المصافحة مغاير للتقاليد فلا ينبس أحد ببنت شفة .

أحياناً يكون أحد الجماعة مستغرق في التفكير أو منشغل بايصال غبار التبغ الذي بين اصبعه إلى أنفه فلا يرى اليد الممدودة اليه في صمت المصافحة فيبقى التارقي الواقف الماد يده للمصافحة واقفاً لايتكلم ويحاول تنبيه الثاني بصوت طقطقة أصابعه أو بحركة مماثلة . بعد المصافحة الصامتة تبدأ سلسلة من السلام والاسئلة والاستفسارات التي لا تنتهي ولا تنقطع فتذكر مراسم استفسار الخاطر عند بدو طرابلس مهما كانت طويلة بخير .

إن منظر مجالس الميعاد من بعدٍ غريب جداً فمعاملة أكابر القوم نحو بعضهم



شيخ من أكابر التوارق



غزوة التوارق

بالكبرياء والغرور وجلوس المغاطيين من الرعايا في دائرة خارج محيط الميعاد وهم منحنيين في جلوسهم يستمعون لما يدور في طور المطيع المنقاد جذاب للمشاهدة وجلوسهم في غابة من الرماح المغروسة في الرمال مادين سيوفهم فوق ركبهم يرى الميعاد وكأنه مجمع للارواح الشريرة .

إن التوارق لطمعهم وحرصهم على سلب أموال القبائل المجاورة سواء كانت من جنسهم أو من التبو أو من العربان فهم في حالة حرب دائمة تقريباً مع شعوب الصحارى . الغزو هوايتهم فرغماً على ما يتكبدون في ذلك من مشاق وتضحية وتعريض أموالهم للنهب والسلب من طرف خصائهم ومـــا يواجهون من جراء ذلك من حالة القلق وعدم الطمأنينة لا ينتهون من الغزو ولا يعدلون عنه لأن الغزو عمل مستحسن عندهم يشكل ركناً رئيسياً في حياتهم الاجتماعية فهم منذ نعومة أظفارهم يستمعون إلى حكايات الغزو والانصات لمناقب أبطاله فيشبون ويشيبون على حياة الشقاوة هذه ويعدونها بطولة ومهارة .

إن المغاطيين أصحـــاب حيوانات أكثر من الأحرار فيتعرضون للأضرار والخسائر أكثر من غيرهم في الغزوات لذلك تراهم ضدهـــا إلا أنه بسبب نفوذ الأحرار المتسلط عليهم يساقون إليها كرهاً .

تبدأ الغزوات لأسباب تافهة ومثال ذلك إذا سرق جمل من صاحبه ولم تثمر مراجعته في استرداده من ناهبيه فيرى ذلك حطاً من كرامته فيقوم بالاعتداء هو الآخر وتدوم حالة المقابلة بالمثل بين الطرفين في النهب والسلب سنوات وتارة تؤدي إلى جرائم القتل .

ثم تتوسع الاعتداءات على قوافل التجار بتهمة أن الجمالين من الطرف المعادي وقد يتوسط التجار المتضررون في إنهاء حالة الحرب القـائمة بين الطرفين المتخاصمين لفض النزاع ويتم الصلح الذي يعقد بين القبائل في « الميعاد » بقراءة الفاتحة والأدعية ولكنه مع الأسف لا يدوم طويلاً فيتذرعون بأسباب بسيطـة واهية ويهاجمون بعضهم بعضاً .

إن أحوال التوارق وأفعالهم جميعها مطابقة تماماً لما كان عليه البربر في الشمال الافريقي قبل ثلاثين قرناً .

وكخاتمة للمحاولة التي قمت بها لوصف هذا الشعب البائس في تأليفي الذي لا يعد شيئاً أكرر ما قاله في حقه المؤرخ الصقلي القديم « ديودور » :

« يعيشون في العراء يتغذون بما تصل إليه أيديهم ، لا مسكن ولا مـلابس لهم يتسترون بجلود المعز فقط يتفوقون على اعدائهم بالسرعة سواء في الهجوم أو التراجع يذهبون للحرب وبأيديهم الرماح ويحملون أكياساً من الجلد مملوءة بالحجارة ولا يراعون للأجانب عهداً ولا ميثاقاً في معاملاتهم . »

إن هذه الأوصاف في الأجداد منذ ثلاثين قرناً لم يتغير منها إلا القليل وبقي أكثرها وصفاً للاحفاد اليوم أيضاً .



الهجين عند التوارق

خريطة القسم الغربي والجنوبي من ليبيا

فهرس المواضيع

فهرس الاعلام

فهرس القبائل والشعوب

ملاحظة : في المشهور والمتداول ·· طوارق ·· بالطاء ·· ولكن المؤلف رسمها بالتـــاء ·· وفـــي بعض الصفحات رسمتها المطبعة بالطـــاء ايضا ·

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الصور

فهرس الصور